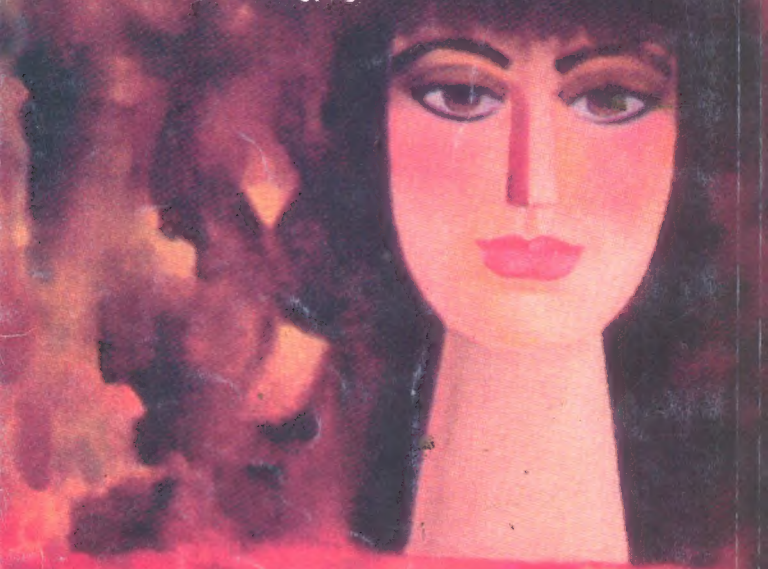


أدب وثقافة

مجلة الثقافة / الوطنية الديمقراطية

نوفمبر ١٩٩٩ - العدد ١٧١



أمي أضيق الشمس رواية من داغستان / البياتى :
سارق نار أم فحم ؟ / جرّ نكل : باب جديد
للمناوشات / لعبة الست كاريوكا / أنت أخى يامارسيل
خليفة / حوار مع عز الدين نجيب / قصيدة جديدة لعفيفى مطر

أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية
شهرية يصدرها حزب التجمع الوطنى
التقدمى الوحى / نوفمبر ١٩٩٩

رئيس مجلس الإدارة:

د. رفعت السعيد

رئيس التحرير:

فريدة النقاش

مدير التحرير :

حلمى سالم

سكرتير التحرير:

مصطفى عبادة

مجلس التحرير :

إبراهيم أصلان / صلاح السروى / طلعت الشايب

غادة نبيل / كمال رمزى / ماجد يوسف

المستشارون:

د. الطاهر مكى / د. أمينة رشيد / صلاح عيسى /

د. عبد العظيم أنيس / ملك عبد العزيز /

شارك فى هيئة المستشارين ومجلس التحرير الراحلون:

د. لطيفة الزيات / د. عبد المحسن طه بدر / محمد درويش

أديب ونقد

التصميم الأساسي للغلاف الفنان:

محيى الدين اللباد

لوحة الغلاف للفنان الأردني : اديب مكى (مجلة عمان)

الرسوم الداخلية للفنان: أشرف ابراهيم

(لوحة غلاف العدد الماضى للفنانة : شلبية ابراهيم)

(رسوم العدد الماضى للفنانين: يوسف الناصر وفيصل لعيسى

مأخوذة- بالاتفاق- من مجلة بانيبال بلندن).

(طبع شركة الأمل للطباعة والنشر).

أعمال الصف والتوضيب الفنى: نسرین سعيد ابراهيم

مؤسسة الأهالى

المراسلات : مجلة أدب ونقد ١ / شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب /

الأهالى « القاهرة- ت ٢٨/٢٩ / ٥٧٩١٦٢٧ فاكس: ٥٧٨٤٨٦٧

الاشتراكات (لمدة عام) ٢٤ جنيها / البلاد العربية ٣٠ دولار

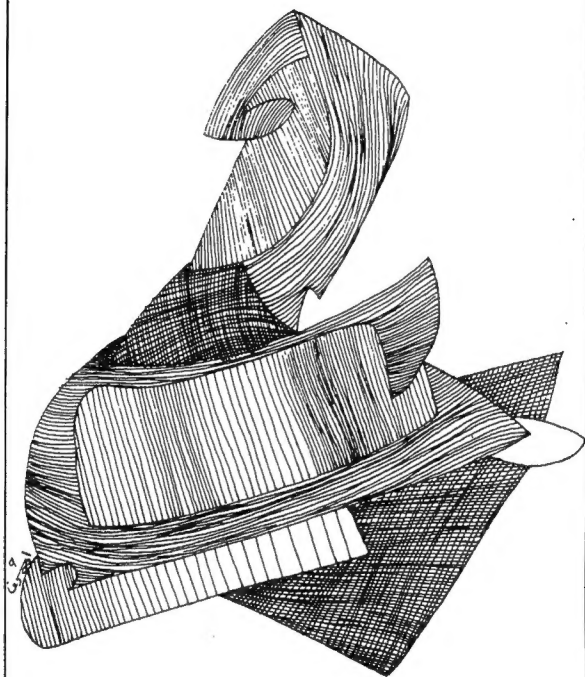
لل فرد - ٦٠ دولار للمؤسسات / أوروبا وأمريكا ١٠٠ دولار

باسم الأهالى -مجلة أدب ونقد.الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها

سواء نشرت أم لم تنشر.

المحتويات

- * أول الكتابة / المحررة / ٥
- * العنصرية فى أدب الأطفال العبرى / دراسة / أنطوان شلحت / ١١
- * قصيدة: منمنمة يؤيدون لحظة السيراميك / محمد عفيفى مطر / ٣٤
- * قصة : الملعب الطبيعى / عبده جبير / ٤٠
- * شعر: الغرقة ذات الشباك المغلق / سمير درويش / ٤٤
- * الديوان الصغير / أمى أضيئى الشمس / رواية داغستانية /
أحمد خان أبو بكر / ترجمة : أحمد مصطفى / ٤٩
- * جرُّ شَكَل :
 - من له أذنان فليسمع مارسيل / غادة نبيل / ٩٨
 - نطاعة بالقوة وبالفعل / ماجد يوسف / ١٠٢
 - لاجائع ولاأمى / فريدة النقاش / ١٠٤
 - تحية : بنت البلد / أحمد عز العرب / ١٠٦
 - لعبة الست / حلمى سالم / ١١٣
- * غياب: - مات سارق الفحم / عبد المنعم رمضان / ١١٦
- برومثيروس عصرنا الجديد / عذاب الركابى / ١٢٧
- * حوار : عز الدين نجيب : مسرح أطلال نفسى / أشرف إبراهيم / ١٣٣
- مهرجان المسرح التجريبي / لاجدر فى البحيرة / خالد سليمان / ١٤٠
- تعليق : مراد وهبه وإعلان كوينهاجن / أيمن فايد / ١٥٢
- متابعة : أزمة الأدب فى منوف / عبد الحميد الدغيدى / ١٥٧
- هى لاتنام على قمر / شعر / سليمان دغش / ١٥٩



أول الكتابة

خروجاً مما تصورنا أنه حالة الضجر العام بعد هوجة المبايعة ، حاولنا فى هذا العدد أن «نجرّ شكل» بعض المؤسسات والأفراد أملين أن يحدث اشتباك صحى من نوع ما بين أفكار وتيارات وتوجهات، ويبلور مع الزمن مجموعة من قضايا الاختلاف والاتفاق، وحرصنا أن يكون هذا الاشتباك حول القضايا لا الأفراد ، بعد أن تابعتنا على امتداد الشهور الماضية معركة شائنة لتلويث كتاب وسياسيين شرقاء والتشهير بهم، وافتعال المعارك الزائفة معهم، وأدعاءات البطولة على حسابهم وقد بينت هذه المعركة مستوى التدهور الذى وصلت إليه حال أخلاقيات العمل السياسى والعام فى سنوات الركود التى عشناها على مدى عقدين رغم لحظات التوهج بين الحين والآخر.

ولم يكن الركود سمة للحياة السياسية وحدها بل إنه طال كل مؤسساتنا بما فيها مؤسسات الثقافة وتنظيمات المثقفين فأنتج حالة من التآكل ، بدا معها كما لو كان سوس قد أخذ ينخر فى بدن هذا العملاق ويزحف على عقله بهدوء فى ظل البطالة الفعلية الواسعة بين المتعلمين.

وبالرغم من المؤسسات والمنظمات الكثيرة وتجمعات المثقفين المتزايدة كان ما أسميه بالعزف المنفرد سمة شائعة ، وليس نجاح العالم المصرى «أحمد زويل» فى الحصول على جائزة نوبل فى الكيمياء إلا دليلاً على هذه الحالة ، ويكفى أن نتابع التحقيقات الصحفية التى جرت فى مؤسسات التعليم التى تخرج منها «أحمد زويل» قبل أن يسافر إلى أمريكا ليواصل تعليمه هناك ويتوصل إلى اكتشافه الذى رشحه للجائزة لنعرف حال التعليم العام فى مصر ، ونؤكد أن هذه الحال لا يمكن أن تساعد على تأهيل علماء أكفاء أو باحثين قادرين على الإبداع: وبالقطع فلو لم يسافر «زويل» إلى أمريكا ليعيش فى بيئة علمية صحية تتوافر لها كل إمكانيات التقدم والنمو ويعمل الباحثون فيها كفريق لما وصل أبداً إلى الجائزة.

وهذا لا يعنى أن هؤلاء التلاميذ الذين تحدثت عنهم المدرسة الابتدائية فى امباية للحررة وقالت إنهم سيئو التغذية بل جائعون يستحيل أن يخرج منهم عالم أو كاتب كبير أو باحث ، على العكس تماماً فلو توافرت لهؤلاء فرصة حقيقية ومناخ ملائم لأتى بعضهم بالمعجزات وقد رأت الحررة أنه ليس أقل من «جر شكل» . النظام الاقتصادى - الاجتماعى كله والخيارات السياسية للقائمين عليه التى جعلت مجانية التعليم خرافة ووأدت مواهب كثيرة قبل أن تنضج وتعطى..

أما الفنان «عز العرب» فيقدم لنا تلخيصاً بليغاً لسيرة الفنانة الراحلة

«تحية كاريوكا» بنت البلد ، ويطرح علينا سؤالاً كبيراً هو لماذا دأب المجتمع على وضع الراقصة في مرتبة الجوارى ما أدى إلى الخلط بين المعايير العلمية أو الفنية والأحكام الأخلاقية في رؤية الرقص الشرقي الذي يرى الفنان أن علينا نحن المثقفين أن نرد له اعتباره ، وهو ما سبق أن فعله المفكر الأمريكي الفلسطيني الأصل «إدوارد سعيد» الذي كتب عن «تحية كاريوكا» .«كثير من الظواهر أو الشخصيات أو الحالات التي نعتبرها نحن أهل الثقافة المحترمة- خارجة عن نطاق عملنا الجاد، إنما هي ظواهر وشخصيات وحالات تكتنز مجموعة هائلة من الدلالات ..» كما يقول حلمى سالم .

في رثائه « لتحية كاريوكا » قال إدوارد سعيد « إنها ضيعت الشرائط التي سجلت عليها أفلامها وبددت الصور والكتابات الغزيرة التي مدحتها أو انتقدتها على مدى ستين عاماً ولم يبق لها أرشيف خاص بها فبدت هذه الحالة وكأنها تجسيد عفوى لوضع دولة متخلفة مهددة لثرواتها مثلما هو حال بلدنا .

ومع ذلك نعدكم أن نفرد ملفاً خاصاً لهذه الفنانة الفريدة في تاريخنا ، ملف نضع مقالة «عز العرب» خطوطه العريضة التي سيكون علينا أن نعتبرها أساساً لعملنا .

ويجر «ماجد يوسف» شكل «النطاعة» المتفشية في حياتنا ويؤاسى ضحاياها بعد أن ذاق الأمرين . وتكتب «غادة نبيل» عن مارسيل خليفة وقضائه قائلة إنه في ظل الوصاية الأبدية لن يصدق أى نظام بمؤسساته أن الشعوب قد بلغت سن الرشد .. ويفيب عن حزمة جر الشكل زميلنا العزيز «طلعت الشايب» رغم أنه هو صاحب فكرة الباب، وسوف نلح عليه منذ الآن ليجر شكلكم في العدد القادم .. فكم من القضايا الملحة سوف نكون مدعويين لمتابعتها ، فعندما يكون هذا العدد بين أيديكم سوف يكون الحكم قد صدر في قضية الكاتبتين الكويتيتين «ليلى العثمان» و«عالية شعيب» المقدمتين للمحاكمة بسبب ادعاء بعض الظلاميين الذين انتزعوا جملاً من روايات الأولى وأشعار الثانية وقالوا إنها تتضمن دعوات غير أخلاقية.

وقبل أيام من مصادرة جريدة السياسة بسبب تناولها على الذات الأميرية كما قيل كان أمير الكويت قد استخدم صلاحياته الدستورية للإفراج عن أستاذ العلوم السياسية في جامعة الكويت الدكتور «أحمد البغدادي» الذي جره بعض هؤلاء إلى المحكمة بدعوى التطاول على الرسول لأنه كتب مقالاً في مجلة طلابية ، فحكمت الأخيرة بحبسه شهراً ، وسارعت جهات تنفيذ الأحكام بإيداعه السجن فعلاً حيث أضرب عن الطعام.

ويهدى عبده جبير قصته الملعب الطبيعي بكل من أحمد البغدادي ومارسيل خليفة مرة أخرى أتذكر معكم قول الشاعر الراحل «عبد الرحمن الخميسي» كنت طيلة الوقت أدافع عن قيثارتي أكثر مما أعزف الحاناً فالمبدعون والمفكرون العرب يعيشون إلى حالة طوارئ إضافة لحالة الطوارئ العامة في غالبية البلدان

، فهم محاصرون بين مطرقة الجماعات الظلامية التكفيرية فقيرة الثقافة والروح ضيقة الصدر ، وسندان الاستبداد الحكومى ، لذا يصبح ما سميته بالعزف المنفرد فى أول هذا المقال خطرا على المستقبل فالعزف المنفرد فى العمل الابداعى ، ضرورى فى حالة الابداع ذاتها لكن المبدعين والمثقفين عامة مطالبون بخلق أشكال للتضامن والحماية الجماعية لأنفسهم ضد هؤلاء الذين يملؤهم الفزع من انتصار الحرية ومن الافاق غير المحدودة التى تتفتح فى ظلها للفنان والكاتب العربى ، وهم يجمعون كل عدتهم فى أوطاننا ساعين إلى القطع الطريق عليها ، غير مدركين أن العودة للماضى .. ليست مستعصية فحسب بل مستحيلة ، إنها حالة من معاندة التاريخ وفرض الماضى على المستقبل ولا أحد يستطيع أن يتنبأكم من التضحيات علينا نحن المثقفين أن تقدمها على هذا الطريق الطويل، ولكى تثمر هذه التضحيات. ثمة حاجة لأن تتسع قاعدة التيار العقلانى الديمقراطى والمستنير فى المجتمع العربى ، وأن تتقدم الدعوة لفصل الدين عن السياسة بثبات وجذرية ودأب ، وتعمق الدراسات العلمية التى تدرس هذه الظاهرة الثقافية -السياسية الكبيرة فى البلدان العربية والإسلامية- التى يطلق عليها أصحابها وصف الصحوحة الاسلامية-والتي جرت إليها نفرا من المنتمين للتيارات القومية التقدمية إذ رأوا فى روحها الاحتجاجية الموثبة ضد إسرائيل والصهيونية مبررا كافيا لغض الطرف عن أفكارها وممارساتها ضد حرية الفكر والاعتقاد وتحرير المرأة ، وبدا كما لو أننا بصدد تكرار أخطائنا القريبية حين ارتضينا بمقايضة الحريات السياسية بالانجازات الاجتماعية.

هذا هو موضوع زمننا الكبير والذى سندخل به إلى القرن القادم وما لم تصف العقلانية والحداثة والديمقراطية جميعا حسابها الفكرى معه دون تردد ، سوف تصبحنا التدايعات المريرة إلى القرن الجديد لنظل نراوح مكاننا أو نخطو للأمام خطوة ونعود للخلف خطوات تمهيدا للخروج من التاريخ.

إن الوجه الآخر لحالة الهوس العصائى باسم الدين الشائعة فى حياتنا هو ذلك الشعور اللاوعى بالدونية تجاه ثقافة العالم المتقدم وهو ما يلتقط الناقد «خالد سليمان» مغزاه فى متابعته لبعض عروض المسرح التجريبيى التى برزت فيها عروض للمسرح العربى جديده مبهجة ومتقدمة بل ومتفوقة بكل المقاييس على بعض العروض الغربية التى ترفع لافتات تجريبية وتستخف بنا ، يقول خالد بغضب عن المفتونين «عمال على بطل» بالمسرحين الأوروبى والأمريكى.

«لم يشعر هؤلاء بالدونية والعار حين تم فرض الحماية الثقافية عليهم فى بداية القرن الواحد والعشرين ، ومطلع الألفية الثالثة ، واستقدموا لهم لجنة مشاهدة للعروض المشاركة فى المهرجان مكونة من بريطانى وفرنسى وأسبانيى وكان العالم العربى من المحيط إلى الخليج لا يوجد به مثقف أو مسرحى واحد موضوع» إنها العقلية التابعة نفسها التى قوضت مهرجان المسرح العربى قبل سنوات ليوصل التجريبيى حضوره منفردا رغم الانتقادات الجذرية والجديدة له .

وقدر لى أن أشاهد العرض الفرنسى الفائز هذا العام «من أجلك أقفل» هذا بجائزة لجنة التحكيم والذي كان عرض سيرك تدرب فنانوه تدريباً راقياً يصعب ادراجه فى خان مسرح فالسيرك فن له أدواته ورؤاه والمسرح فن آخر، ولكن لاقتة التجريب التى لم يعرف أحد حتى الآن لماذا حرض القائمون على المهرجان على رفعها عليه قدمت مبرراً لأن يصبح كل شئ ممكناً بينما يعانى المسرح المصرى من حالة ركود وتعثر خانقة.

كنا قد قررنا قبل فترة طويلة أن نعد الملفات عن كتابنا وفنانينا العرب وهم أحياء احتفاءً بانتاجهم ولا ننتظر حتى يموتوا لنمشی فى الجنازات ، ونكتب كلما التأبين التى تقبدها رهبة الموت ، هكذا احتفلنا بكل من «على الراعى» و«شكرى عباد» قبل أن يرحل عن دنيانا ، وأعدنا ملفات عن أحياء أمد الله فى أعمارهم ، ولكن الموت يفاجئنا كل يوم ، وها قد رحل كل من «البردونى» وعبد الوهاب البياتى» سارق الفحم» كما يكتب عنه الشاعر «عبد المنعم رمضان» نصه الجميل رغم قسوته إذ يرى أن هزيمة ١٩٦٧ كانت أول الشفاء من «حمى البياتى» الذى روج عبر نصف قرن لرؤية شعرية يجب أن تزول وقد زالت فعلاً- من وجهة نظر عبد المنعم رمضان طبعاً..

على أى حال سوف تقرأون «النص» الذى يتضمن رفضاً مبطناً لتعددية الشعر ، ولحل دليل قوة هذه التعددية فى النظر وفى قدرات التلقى والتذوق والأمزجة أن تكون واضحة للغاية بمقارنة نص «رمضان» مع ما كتبه «عذاب الركابى» الذى رأى فى «البياتى» بروميثيوس عصرنا ، سارق النار الذى لن يزيل اسمه رأى شاعر آخر فيه..

ويخصنا الشاعر الكبير محمد عفيفى مطر «بنصه الجديد» بمنعمة يؤيدون لحظة السيراميك ونؤيد الزلزلة» نص يحمل غموضه المعتاد الممتع مع هجائه المرير الساخر لحالة التردى والهوان . العربى الذى يولد ما لا نهاية له من عدم وأنسحاق وتدن أخلاقى وإنسانى وسياسى للنظم وانهيارات المثقفين الذين باعوا أنفسهم للنظم المهترئة وخانوا حلم الزلازل.

ضمن -بالجراح البليغة- أعطاك هذى الدلاء.

لكى تتسقى، وأعطاك فسحة عمر

وأغرى بك المومياء

لتطويك بين لفائف كتابها المتوقدة حتى تفوح

عظامك بالند والحر محترقا بالحنوط

يبلل وجدك مجد السراب!

قبل سنوات كتب لنا «صنع الله إبراهيم روايته الجميلة «ذات» مطلقاً تعبيره التهكمى «مسيرة السرمكة» على الحمى التى أصابت المصريين بعد أن انتعشت صناعة السيراميك ، أو ربما انتعشت بسبب هذه الحمى التى أصابت كل بيت ، وها هو «عفيفى مطر» يجد فيه أى السيراميك مطلقاً من «خرائب

أما الديوان الصغير فى عددنا هذا فهو رواية قصيرة من «داغستان» البلد الأسبوى المسلم فى الاتصاد الروسى التى دخلت فى نزاع مؤلم مع الدولة الروسية تمت راية الاسلام ، وشنت القوات الروسية حربها الوحشية ضد «الشيشان» بدعوى أن المماريين الداغستانيين يعتدون فى تسليحهم عليها.. وليست نزعات الاستقلال فى آسيا الوسطى جديدة ولكن أخطر ما فيها الآن أنها «تستلهم» تجربة طالبان الحزنة فى أفغانستان بعدائها للفكر والمرأة وللآخرين جميعا ، وتتلقى الدعم من بعض البلدان العربية الاسلامية التى يتغاضى حكامها عن حقيقة أن تفتيت روسيا سوف يشكل خطرا كبيرا على الوطن العربى فى المستقبل القريب..

إن أحدا لا يستطيع أن يقف ضد الطموح الوطنى للاستقلال خاصة بعد أن عجزت التجربة الاشتراكية للاتحاد السوفيتى خلال سبعين عاما عن حل المسألة القومية حلا جذريا رغم الاسهامات النظرية الجادة والجهود الكبيرة فى هذا السياق .. ولكن مصير «اليوسنة» يجب أن لا يغيب عن أذهاننا ، فقد تحولت الدولة الصغيرة التى استقلت عن الاتحاد اليوجوسلافى إلى قاعدة أمريكية وماخور كبير تعربد فيه القوات الأمريكية، لأن هذه الكيانات الصغيرة سوف تبقى لزمن طويل قادم عاجزة عن حماية استقلالها.

أما: أضيئى الشمس لأحمد خان أبو بكر هى إضاءة ساطعة لأدب آسيا الاسلامية فى ظل الدولة الاشتراكية ترجمها لنا من الانجليزية الصديق «أحمد مصطفى».

وفضلا عن قيمتها الفنية الرفيعة والخاصة جدا فإن هذه الرواية الصغيرة تحمل لنا بصورة جبينية تلك الوعود التى حملها المشروع الاشتراكى للناس والذى كان ينضج حتى فى زمن الحرب حيث المحبة والود والتضامن والغيرة والتعايش الصمى بين البشر بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو العقيدة أو الموطن.

ويتسم المنحى التعليمى فى هذه الرواية بفنية عالية تبعد به عن الوعظ والتبشير والنصح لتحيله إلى وجدان خالص مركب كالوشى على بساطته .

سوف نعود مرة أخرى إلى آداب آسيا الوسطى ، وحتى نفعل ذلك لعلنا نقرأ معا مرة أخرى شعر «رسول حمزاتوف» الذى سبق أن قدمنا له ديوانا صغيرا وهو ابن داغستان الاشتراكى الأسمى القلب والضمير لنكتشف علاقات القرابة بين هذا النص الذى نقدمه لكم وبين الشاعر الذى أحب وطنه والإنسانية كلها.

المخزرة



العنصرية في أدب الأطفال العبري

(أفنيير كرميلي نموذجاً)

انطوان شلحت

صفوف منظمة «الليحي» (أحدى المنظمات الارهابية الصهيونية التي انشقت عن «الاتسل»). وقد حفر تأثير ابراهام شتيرن (يائير)، قائد هذه المنظمة الذي مات مقتولاً، بصماته العميقة عليه. يقول غفني إن مقومات رؤيته السياسية مصدرها في رؤية شتيرن الأصلية وبوحها يكتب قصصه ويبني أنماط شخصها.

يرصد كرميلي في حكايته -كما يكتب محرر «مونتين»- دولة إسرائيل كما لو أنها أرض العبرانيين القديمة. «إنه يتطلع إلى قيام البعث العبراني في أرض العبرانيين كلها من الفرات حتى النيل، انه يرى فيها مصدر الحياة للإنسانية جمعاء ومنازل للأغيار».

في سن (٤٣) عام بدأ غفني في دراسة موضوع التاريخ في جامعة بار إيلان. ويفسح المحرر المجال أمام

* أفنيير كرميلي هو الاسم المستعار للكاتب الاسرائيلي شراغا غفني. ألف عشرات الكتب الخاصة للأطفال والفتيان الأماليد الممهرة بتوقيعه الصريح وبخمس أسماء مستعارة هي: «أفنيير كرميلي» (وهو الاسم المستعار الأكثر شهرة له بين سائر أسمائه المستعارة) وإيتان درود و«أون شريغ» و«يغفال غولان» و«إيتان نوتيف».

ولتوسيع دائرة الضوء حول هذا الكاتب نستعين بمقابلة مطولة أجراها محرر مجلة «مونتين» الاسرائيلية الشهرية، رون ما يفرغ، مع شراغا غفني بالتزامن مع تزايد وتيرة الاهتمام بالعنصرية في أدب الأطفال.

غفني -كما يعرفه المحرر- هو أحد رجال «أرض إسرائيل الكاملة» في سن ١٦ عاماً، تطوع للخدمة في

المقطع : «أرض العبرانيين، وأرض إسرائيل هي جزئها الجنوبي، الممتدة على ضفتي الفرات وعلى ضفتي نهر الأردن في مفرق العبور واللقاء بين آسيا وأوروبا وإفريقيا وفي قلب الانسانية، هي في تمامها وحدة ثيوقراطية وسياسية- ما معناه وحدة سياسية طبيعية واحدة -هي مركز العالم. إذا أصبحت موحدة يصبح بمستطاع شعوبها التي تعيش فيها أن تستثمر كل منافعها السياسية والاستراتيجية والاقتصادية والثقافية من أجل عظمة وازدهار الوطن المشترك لصالح كل أبنائه والمخلصين له».

بوحى هذه «الرؤية» كتب شرعافغنى حكاياته للأطفال، وبوحىها أيضا قال إنه يستعد لكتابة غيرها .. ولكتابة حكايات للكبار أيضا . والمقصود بـ «الكبار» هنا، كما يوضح ذلك بنفسه، أولئك الصغار الذين كبروا على حكاياته ويعتمد على أنه عبأهم بـ «رؤياه» التي سيضمونها مؤلفاته القادمة.

نبدأ الفوص في « أفكار » كرميلي من خلال التعرض إلى بعض كتب سلسلة قصصه حول «فرقة البحارة» التي ترصد ، حسبما جاء في تظهير كل كتاب ، مغامرات «أفراد الفرق السرية العبرية من أجل إقامة إسرائيل وعملياتهم الملاحقة ضد

غفنى ليسرد بيوغرافيته : «ابن ٥٥ عاما ، من قدامى «الليشى» ، أب لثلاثة وجد لأحفاد . التاريخ -عملى الأساسى . يرى نفسه خارج ما يسميه «النطاق التقليدى» للكتاب الاسرائيليين . يرى نفسه كاتباً عبرانياً يخدم ، فى نتاجه ، مثل الانبعاث العبرى للامة العبرانية الشابة الأخذة بالنمو فى البلاد . لا يرى فى هذه الامة استمراراً للامة اليهودية فى المهاجر وإنما هى انبعاث واستمرار للامة العبرانية التوراتية التى أضفت على بلاد العبرانيين خصوصيتها وعظمتها فى التاريخ»

ويشدد المحرر على أن مؤلفات كرميلي القصصية ونتيجة لسرعة انتشارها واتساع نطاق المنكبين على قراءتها تؤدى دوراً فى مخاطبة وعى الطفل اليهودى (القارئ) أكثر بما لا يقاس من كتب التاريخ التى يجرى تعليمها فى المدارس اليهودية حسب مناهج وزارة المعارف والثقافة الفاصلة بالطلاب اليهود (والتي لا تخلو هى أيضا من عناصر التشويه والتزييف).

وقرأ كرميلي على مسامع محرر «مونيته» مقطعاً من مقال يختزل رؤيته السياسية: كان كتبه إبان دراسته الأكاديمية وضممنه بعضاً من أفكاره أنفة الذكر . وجاء فى هذا

فهو اليوم مقيم في فلسطين ويمكن أن يقيم غدا في الأردن أو في سورية أو في هونولولو.

انطلاقاً من هذه القرية يبرز كرميلي في قصة «البخارة في عملية الانقضاء» إن المهمة المثلى التي يتطلع إلى تحقيقها افراد الكيبوتس هي «تخليص البلاد من أيدي الغرباء واعادتها إلى الشعب العبري (ص ٦٥)». ويأخذ «البخارة» الذين ينتصر لهم كرميلي، على افراد الكيبوتس تفكيرهم بأن مهمة طرد الغرباء لا يجرى تحقيقها «بقوة السيف وإنما بقوة المراث» (ص ٦٥) فالعرب لا يفهمون سوى لغة القوة. ألم يكتب يعقوب روثي، في مقاله عن العلاقات بين سكان رحوبوت وجيرانهم العرب في السنوات بين ١٨٩٠-١٩١٤، يقول «منذ أوائل أيام الاستيطان ساد الرأي القائل بأن العربي يحترم ويعرف لغة واحدة هي القوة»؟.

يجهد كرميلي كذلك في شرح طابع الصهيونية الحضاري ورسالتها المدنية إلى «أرض اسرائيل». فإن العرب في قصبهم هم ليسوا «غرباء» فقط عن الأرض وإنما «غرباء» أيضاً عن الحضارة والتطور. ونراه يعكس بلفة موجهة لوعي الطفل ما روج له دعاة الصهيونية الأوائل في هذا الصدد.

العرب. وتسرد كل قصة «عملية بطولية» تقوم بها هذه الفرقة ويرى الكاتب أنها تجلب الفخار للنشء الاسرائيلي الجديد وتبرز أمامهم الخلفية التي مهدت لإنشاء دولة إسرائيل.

كانت الصهيونية تهدف إلى الاثبات، خلال عملية تشويه مفضوحة، بأن فلسطين لم تكن سوى أرض خالية من السكان عبارة عن «بلاد قاحلة تملأها الحشرات والمستنقعات» كتب موشيه سميلانسكي في صحيفة «العالم»، ٢٩/١/١٩١٤، يقول «وصفت دعاية الفكرة الصهيونية منذ نشأتها البلاد التي سنتوجه إليها كبلاد خربة ومهجورة تنتظر الخلاص بفارغ الصبر. وفي محاولتها لاثبات هذا الهدف لم تستطع الصهيونية أن تنفي كلية حقيقة وجود شعب عربي فلسطيني يقيم فوق هذه الأرض. وأوقعها هذا في تناقض حاولت تجاوزه من خلال تركيز نصوصها على الحديث عن شخصية العربي أو البدوي، لا العربي الفلسطيني، مع التأكيد على افتقار الروابط بين هذا العربي أو البدوي وبين أرضه.

وبما أن الأرض في مثل هذه الحالة هي الوطن وبما أن العربي يفتقر إلى الروابط القوية بالأرض لهذا فإنه يفتقر إلى الروابط القوية بالوطن

البركة والتطور ليس لليهود فحسب وإنما أيضا للفلاحين العرب الحمقى المستغلين (بالتفج) استغلالا بشعا من قبل أسيادهم الأفندية» (ص ٦٥).

يقابل هذه الرسالة «المضارية الإسلامية للكيبوتس» وحشية ما بعدها وحشية للعصابات العربية . ففي كل القصص التي قرأناها لا نجد البطل العربي إلا «فرداً في عصابة» أو «متعطشا للدم اليهودي» . على وجه العموم يعبأ الطفل اليهودي ، القارئ لهذه القصص ، بالاحساس الواعي أن العربي يمكن أن يكون كل شيء سوى نفسه ، سوى الإنسان المركب بكل ما فيه من خير وشر ، سوى الإنسان العادي .

وبنموذجية بالغة يتفنن المؤلف ، في مقاطع متباينة من القصة ، في وصف التفاوت بين وحشية العربي وحضارة اليهودي - قرية العربي وكيبوتس اليهودي . لنقرأ هذا المقطع : «لم يكن في كل البلاد كيبوتس سعى رجاله للحياة بسلام مع جيرانهم العرب ومساعدتهم مثل كيبوتس بيت غيبغ . وعلى الرغم من أن العصابات العربية قامت أكثر من مرة بشن غزوات على هذا الكيبوتس وكثيرا ما قام الفلاحون العرب ، بتحريض من زعمائهم الأفندية ، بمهاجمة رجال الكيبوتس وهم يحرضون حقوله ، لم يتدخل

ولقد عبر ثيودور هرتسل ، حين صاغ مشروعه الصهيوني في كتابه «دولة اليهود» ، عن هذا التوجه حين كتب في مقطع «فلسطين أم الأرجنتين» ، مفضلا فلسطين لتنفيذ مشروعه على الأرجنتين ، ما يلي «بالنسبة لأوروبا فإننا سنكون لهم هناك (في فلسطين - المؤلف) بمثابة جزء من السور الدفاعي أمام آسيا . ويكون بمسئطاعتنا أن نزودها بالقوات الامامية المضارية ضد البربرية» .

كما نجد الدليل على هذه الفكرة في السؤال الأول من مجموع أسئلة امتحان الامانة لطلاب صفوف الثومان (كانون الأول ١٩٧١) حيث جاء فيه ما يلي : «لم يتوقف استيطان اليهود لفلسطين أبداً . وبغض النظر عن عدد اليهود الاجمالي في البلاد كان الكثيرون منهم مفكرين وحكماء ومبدعين نشروا أبحاثا وكتبوا بالمقارنة معهم فإن العرب والمسيحيين الذين استقروا في هذا المكان (بما معناه أنهم ليسوا أبناء هذا الوطن بل بمثابة مستقرين - المؤلف) لم ينتجوا في فلسطين أي شيء له أهمية بالرغم من قدسية البلاد لأديانهم» .

إن أفراد الكيبوتس ، في القصة المذكورة أنفا «كانت غايتهم جلب



التي تصل ما بين الكيبوتس والخضيرة لئلا تصل من هناك مساعدة لليهود» (ص ١٠٠-١٠١).

ينتقل كرميلى من وصف التحضير للهجوم إلى وصف الهجوم العربى . وعنون الفصل الخاص بذلك تحت عنوان «انبحوا اليهود» . ويكتب «بهتافات» عليهم و«انبحوا اليهود» (كتبها باللهجة العربية وأحرف عبرية وكتب معناها بالعبرية بين قوسين -المؤلف) انقض العرب من كل حذب وصوب على السياج» (ص ١٠١-١٠٢).

ينتهى «الهجوم العربى» إلى الفشل . لكن المؤلف يعود ليؤكد لقرائه الأطفال انه «لا حدود لنهم العرب خصوصا إذا كانت الغريسة يهودية».

وعلى امتداد فصل كامل عنوانه «التحضير لهجوم جديد» يشهر كرميلى قلعه ليزرع فى نفوس أطفاله من القراء الكراهية لهؤلاء العرب «اللصوص القذرين».

جاء فى هذا الفصل : «فى الليلة نفسها استعد العرب فى قرية الأحمدية والقرى الأخرى المجاورة لكيبوتس بيت غيبغ من أجل التحضير لشن هجوم إضافى على الكيبوتس . ومع أن الهزيمة التى منوا بها فى الليلة السابقة بلبلتهم فى البداية لكن مشهد الاعتقالات

الكيبوتس عن طريقه السلمى . لقد تسامح دوماً مع مهاجميه وتطلع إلى أن يعقد معهم حلفاً أبدياً . ولهذا اختارت السلطات البريطانية والزعماء العرب هدفاً أول لهجوم العصابات العربية كيبوتس بيت غيبغ الذى كان لقمة سائغة فى نظرهم» (ص ٦٥-٦٦).

ولا يعدو العرب فى هذه القصة أكثر من كونهم فزيقاً من المرتزقة تكفى شارة ضابط بريطانى لتستفز مشاعرهم المتعطشة للدم اليهودى : «بانارة حماسهم نفخ الضابط البريطانى فيهم روح القتال والرغبة فى الخروج فوراً لتنفيذ العملية ضد الكيبوتس . وبسرعة فائقة استنفر المقاتلون العرب من أماكن نومهم فى القرية حيث جرى توزيعهم على خمس فرق . الفرقة الأولى ، تعدادها مائة شخص ، انيطت بها مهمة التسلل خلسة إلى البوابة واقتحام الكيبوتس . الفرقة والثالثة والرابعة ، تعداد كل واحدة منها ثلاثين شخصاً ، انيطت بها مهمة محاصرة الكيبوتس ، ومنع هروب الأشخاص من داخله كى يقتلوا كل أهاليه -رجالاً ونساء وأطفالاً . الفرقة الخامسة ، تعدادها عشرة أشخاص ، انيطت بها مهمة قطع الاتصال الهاتفى عن الكيبوتس ، قبل الهجوم وبعد ذلك سد الطريق

وحظر السلاح الذي نفذته البريطانيون في الكيبوتس رفع معنوياتهم من جديد . فليس باستطاعة الكيبوتس الآن أن يدافع عن نفسه بعد أن قل عدد مقاتليه ، جمع الحاج ابراهيم والشيخ عبد الله الكونتاي ، قائدا العصابات العربية ، مساعديهما في مجلس حربى عقد فى مقهى القرية . وحضر المجلس الشيخ مختار قرية سوميل . وخرج مبعوثون إلى القرى المجاورة لنقل البشرى إليها بأن الكيبوتس أضحي عمليا لقمة سائغة بسبب تجريده من السلاح واعتقال معظم مقاتليه . ولهذا فإن من واجب كل فتى عربى متعقل أن يتسلح ببندقيته وينضم إلى المهاجمين الشجعان . فى كل لحظة تقريبا وصل إلى مقهى قرية الأحمدية نخبة من شبان القرى العربية القريبة والبعيدة وأعربوا عن رغبتهم فى الانضمام للهجوم . وتأكيداً على رغبتهم القوية فى القتال دار هؤلاء الشبان بعد ذلك فى أزقة القرية وهم يهتفون بحياة الانتصار القريب وينشدون أناشيد الكراهية والانتقام . وبعثت القرية برجال ذوى شوارب كثة يلبسون «العباءات» ويعتَمرون «الكوفية» والعقال . أحزمة الرصاص ماثلة على صدورهم . و«الشبريات» للامعة مغروسة فى أحزمتهم .

بنادق مما هب ودب ، قديمة وحديثة ، فى أيديهم . لقد تجمع حول المقهى عشرات المقاتلين مثل هؤلاء ، وذلك لسماع قرارات القادة المجتمعين فى الداخل . وسرت اشاعة بأن المجتمعين اتخذوا قراراً يقضى بمنح المقاتل البارح فى المعركة واحدة من نساء اليهود الجميلات . لقد احمرت الأعين . وانتصبت الشوارب . وحتى مساء ذلك اليوم تجمع فى قرية الأحمدية حوالى ٤٠٠ مقاتل عربى مسلح . واستمر وصول عشرات المقاتلين الإضافيين إلى المكان . وفى المستوطنات العبرية القريبة والبعيدة ساد الحذر الشديد . كل مستوطنة عبرية صغيرة ومعزولة كانت معرضة أيضاً لهجوم العرب عليها مثل بيت غيبغ - ولهذا لم يكن بالامكان نقل قوات كبيرة ومعدات عسكرية كثيرة من المستوطنات الأخرى إلى بيت غيبغ . رغم كل ذلك أرسلت قبل المساء نجدة إلى الكيبوتس من الضخيرة . بلغ عدد أفراد النجدة ٢٢ شخصاً . كانوا مسلحين ، أساماً ، بالمسدسات وبالقنابل من صنع محلى . كان من الصعب الحصول على بنادق . ولم يكن بإمكان هذه النجدة أن تعبر الطريق المؤدية إلى الكيبوتس الا فقط بعد حلول الظلام خوفاً من أن يحس بها البريطانيون فى وضع

بنادقهم ومسدساتهم على الجماهير المتجمهرة للحرب أمام المقهى . قذفت خمس قنابل من الشاحنة إلى داخل المقهى وانفجرت هناك محدثة دويا هائلا (ص ١٢٨-١٢٩).

إن: وحشية اليهودى هنا هى شرعية؟ ثم قال ان هذه «العملية البطولية» هى وحشية؟ أين منها وحشية العصابات العربية؟ هذه هو ملخص الأسئلة التى تراود ذهن الطفل اليهودى لدى مطالعة هذه النصوص ولسان حال يقوله «العرب يستاهلون أكثر من هذا».

فى الفئات من أيلول ١٩٨١ ترجمت جريدة «الاتحاد» فى حيفا مقالا للبروفيسور يسرائيل شاك تحت العنوان «ماض لا يمكن أن ننساه فى تاريخ الحركة الصهيونية . كيف أهدرت عصابات الهاغاناه والاتسل والبلماخ دم العرب الفلسطينيين الأبرياء من أجل رفع معنويات اليهود؟» وصف فيه عمليات الارهاب التى نفذتها هذا العصابات وأطلقت عليها لقب «عمليات انتقامية» واعتبرت منفضيها أبطالا صناديد وذلك بالاعتماد على المقالين الذين نشرهما الدكتور اورى ميلشتاين فى صحيفتى «هآرتس» و«نفار» . وأرى لزاما هنا أن أقبس بعض ما جاء فى

النهار فيجرو دونها من سلاحها . كسان من الواضح أنه ليس بمستطاع المسدسات والقنابل أن تغير إلى حد كبير من وضع الكيبوتس اليانس . أضف إلى ذلك أن ذخيرة المسدسات كانت ضئيلة وعدد القنابل قليل جدا . وأصدرت مؤسسات المستوطنات أمرا لقائد النجدة أن يدافع عن الكيبوتس فقط بهذه الذخيرة ريثما يتم تنظيم نجدة إضافية فى ساعات المساء اللاحقة تكون مسلحة بالبنادق المجلوبة من أماكن بعيدة . لكن نجدة كهذه كان يمكن أن تصل فقط فى ساعات المساء المتأخرة.

لم يكن الحاج ابراهيم والشيخ عبيد الله الكونتياوى ، قنايدا العصابات العربية ، مغلفين وعلما أنه كلما بكرا فى مهاجمة الكيبوتس زادت إمكانات احتلاله بسهولة . انتظرا غروب الشمس وغادرا مجلسهما فى المقهى من أجل تعبئة رجالهما للمعركة الكبرى».

ويتضح هدف المؤلف من وراء هذا الشرح المفصل لاستعداد العرب من أجل شن الحرب على اليهود لاحقا : «فى تلك اللحظة (والعرب يعبثون أنفسهم للمعركة الكبرى) فرقت فرامل شاحنة فى الساحة الصغرى قبالة المقهى . وشرع عشرون فردا كانوا على ظهرها فى اطلاق النار من

هذا المقال الهام:

«سوف نتنقل مباشرة إلى العملية الأخيرة التي وصفها الدكتور ميلشتاين في مقاله هذا، حدثت في كانون الأول ١٩٤٧. في تلك الأيام، يذكر الكاتب، صدرت أوامر للاتسل بضرب التجمعات الكبيرة للجماهير العربية». وأصدر هذه الأوامر قائد الاتسل في تلك السنة مناحيم بيغن. وبحسب هذه الأوامر فقد تم إرسال إحدى سيارات الاتسل في حيفا، بقيادة شفص يدمي يريف، بمشا عن هدف مناسب في حيفا التحتية. وبعد جولتهم قدموا تقريراً لقائد الاتسل في حيفا شموئيل مايتين، أفادوا فيه أن التجمع العربي الوحيد هو مصافي النفط، وافق مايتين، عادت السيارة إلى مصافي النفط وألقي ركابها ثلاثة صناديق ملأى بالمواد المتفجرة وقطع الحديد على العرب. نتيجة لذلك قتل ستة وجرح العديدون». إن البقية تثير الاهتمام. لقد عمل في المصافي آنذاك، حسب مقال الدكتور ميلشتاين ٤٧٠ عاملاً يهودياً و ١٧٠ عاملاً عربياً. إذن فقد نشأت علاقة عمل وتفاهم متبادل بين اليهود والعرب. وحالاً بعد قذف القنبلة الفتاكة قدر العاملون العرب، بشكل خاطئ طبعاً، بأن العاملین

اليهود ساعدوا إلى حد ما على تنفيذ هذه العملية فشنوا هجوماً عليهم استعملوا خلاله أدوات عملهم. ومنع البريطانيون العمال اليهود من دخول مخزن السلاح. وقتل خلال ذلك ٤١ عاملاً يهودياً حتى جاءت قوات الأمن البريطانية، التي لم تبذل جهداً للقبض على الجناة وإنما احضرت باصات وأرسلت كل طرف، على حدة، إلى بيته.

وكيف ردت الهاغاناه؟؟ قررت في الغداة مهاجمة ما أسماه الدكتور ميلشتاين «قرية المشاقبين»، بلد الشيخ قرب حيفا لأنه وصلت معلومات إليها تفيد أن المعرضين والقتلة يسكنون هناك».

لقد وصف هذه «العملية» ضد قرية بلد الشيخ حاييم أفينوعم (الذي يشغل منصب حاسب في شرطة إسرائيل) وكان في حينه قائد في البلماخ - كما يذكر الدكتور ميلشتاين، قاد الوحدة المدعو دان ليز (يعيش اليوم في كيبوتس ناؤوت مرتضى) وهو عضو في حزب «هتحييا» الفاشي، الذي دعا للتصويت له في انتخابات إكنيست الأخيرة). لقد استدعى على الفور للمثول أمام موسى كرميل في حيفا «وبعد أن عاد من هناك أصدر أوامره - يقول أفينوعم - بمهاجمة بلد الشيخ بقصد قتل ١٠٠ شخص وعدم

إصابة النساء والأطفال».

يرام».

ووضعت تحت إمره أفينوعم وحدتان ثانويتان من أجل تنفيذ هذه العملية قاد إحداهما اسحاق حوفى ، الذى اشغل فيما بعد منصب جنرال فى الجيش الاسرائيلى ، وقاد الأخرى الدكتور بنحاس وسمان ، الذى شغل فيما بعد منصب مدير عام وزارة الأمن . ويذكر أفينوعم بافتخار أن رجال الوجدتين كانوا من سكان المستوطنات وأنه بعد أن شرح لهم الأوامر والوضع لم يرفض أى منهم الذهاب لأداء هذه المهمة «وإن عانى بعضهم من مشاكل ضميرية».

ونفذت العملية- المهمة « حسب ما خطط لها » . دخلوا القرية و« تنقلوا من بيت إلى بيت وقتلوا الرجال » . لم تكن أية مقاومة وفقط لدى محاولة اقتحام البيت الأخير لقي أحد الأفراد مصرعه ، ورغم أن الجنود البريطانيين أطلقوا عيارات نارية من داخل سياراتهم المدرعة لكنهم « لم يشوشوا العملية » . كانت المفاجأة تامة . وفقط من داخل بيت واحد أطلقت النار صوبنا . وأبان تبادل إطلاق النار أصبنا أيضا النساء والأطفال . لقد كان هذا هو الانحراف الوحيد . بعد أن قتلنا أكثر من مائة شخص مدنا إلى يافور » . ويستطرد السيد أفينوعم « تم تحقيق الهدف بشكل عام . وتصرف الرجال على ما

يركز أفنير كرميلى فى قصة أخرى « البحارة فى عملية الرميح » على وصف سمات أبطال الأمس من خلال الدعوة المبطنة لأن يكونوا قدوة الحاضر والمستقبل . يكتب عن « البحارة » : هؤلاء الفتية الصغار ، رغم أن أيا منهم لم يبلغ سن السابعة عشرة بعد ، كانوا خبراء حرب مثل جنود قدامى شاركوا فى عدد من الصروب . لماذا ؟؟ لأنهم حاربوا بكل ما أوتوا من قوة من أجل المثل السامى الذى وهبوا كل حياتهم ومواهبهم وقواهم ونشاطهم من أجله- إنه مثل تحرير شعب إسرائيل وأرض إسرائيل من المحتلين الغرباء وإقامة إسرائيل المستقلة النامية المزدهرة.

ولهذا فهم لم يحاربوا بفعل الطاعة الحديدية العمياء مثل جنود فى جيش استبدادى إنما حاربوا كمتطوعين بود ورغبة كبيرة ، عندما كان قوادهم يدرّبونهم على استعمال السلاح ويعلمونهم كيفية التصرف أبان الحرب وكيفية التخندق فى الأرض والتسلل خلسة بين صفوف العدو وكيفية الانقضاض على مواقع العدو واحتلالها كان المصابون الشبان هؤلاء يعيرون كل انتباههم لجميع أقوال المرشدين ويحفظونها جيدا عن ظهر قلب ويحفظونها فى

عملية الفأس» يرد ذكر أم الفحم كثيراً مثل «القرية العربية سيئة الصيت أم الفحم» (ص ١٠). كما يرد وصف لأهاليها على هذا النحو «أليس هؤلاء العرب هم أناس حمقى تربوا كل حياتهم على تقديس القوة والمال؟» (ص ١٩).

كما تتردد كثيراً جملة «المقاتل العربي (من أم الفحم- المؤلف) ذو المظهر الوحشي والقلب القاسي».

والسؤال هنا هو: ما الضمانة في أن لا تختلف نظرة الطفل اليهودي إلى أم الفحم الأمس، بفعل هذه النصوص المسمومة، من نظرته إلى أم الفحم اليوم أو إلى أية قرية عربية أخرى؟

في محاولتها لنفي حقيقة وجود شعب عربي فلسطيني ولتنفيذ سياساتها الاستيطانية الكولونيالية، التي كانت مبنية على الفرضية المفارقة للواقع حول «شعب بلا أرض وأرض بلا شعب»، لجأت الحركة الصهيونية إلى اتباع المبدأ الاستعماري «فرق تسد» في تعاملها مع أبناء هذا الشعب وإلى الحديث عن ملل وطوائف خيالات طمس الروابط القومية التي توالف فيما بينها، فهي تتحدث عن العرب والمسيحيين تارة وعن العرب المسلمين والدروز طوراً.. وأبرزت

ذاكرتهم ويعد ذلك في ساعة القتال الحقيقي كانوا يعدون على هذه الأمور بنجاح منقطع النظير. شجاعتهم لا تعرف الحدود وإخلاصهم للوطن ولبعضهم البعض يثير أعماق مشاعر الدهشة. إن الثقة التي يحوزونها والتي تدفع كل واحد فيهم لأداء واجبه حتى النهاية وبدون الخوف أمام الخطر وبدون ترك زميله تحت أي ظرف، هذه الثقة الشجاعة المتكاملة منحتهم القوة والبطولة، والروعة عند الحرب حولتهم إلى وحدة ماحقة رهيبة لا يمكن الوقوف حيالها» (ص ١٤٠).

هؤلاء «البحارة» سن قاندهم قانوناً لهم ينص على أنه «لا يجوز التخلي عن السعي إلى تحقيق الهدف حتى يتم إحراز الهدف وليكن ما يكون، حتى لو فشل البحارة ثلاث أو أربع أو خمس أو ست مرات في طريقهم القاسية إلى قرية العدو أم الفحم فسيفرجون مراراً وتكراراً من أجل الوصول إليها ومهاجمتها وبذلك يتسنى لهم إحراز الهدف. ذلك هو «قانون الحديد» بالنسبة للبحارة» (١٤١-١٤٢).

ويشير ذكر «قرية العدو أم الفحم» رنة خاصة في ذهن قارئ هذه القصص لكونها لا تزال قائمة حتى يومنا هذا.

في قصة الثالثة «البحارة» في

فى العديد من أدبياتها ما أسمته « حلف الدم » القوائم بين اليهود وأبناء الطائفة الدرزية وردته إلى عوامل دينية مختلفة وملفقة.

وقد خصص افنير كرميلى جزءا كاملا من سلسلة حكاياته آنفة الذكر حول «فريق البحارة» لهذا الموضوع فى هذا الجزء « البحارة فى عملية ساحقة » يطل علينا البطل «الدرزى» الذى يرى فيه العربى (حسب النموذج الكرميلى) أنه غير مخلص له، مثل بقية الدروز الذين يميلون إلى اليهود (ص ٢٢). ولهذا قام العرب بقتل أخيه وبخطف ولده رهينة من أجل الضغط عليه للقيام بمهمة التجسس على فريق البحارة.

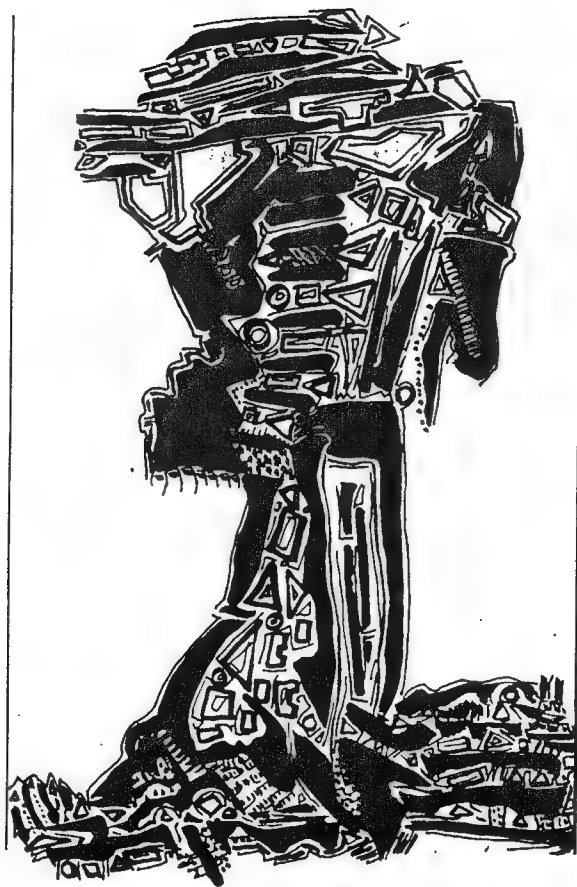
أما اليهودى ، فيرى فى الدرزى « أنه ليس عربيا ، يخون شعبه » ويعطينا المعلومات لقاء حفنة من الأموال ، إنما هو إنسان درزى من قرية دالية « الكرمل » .. وهو يكره العرب كرهاً مقبهاً لأنهم قتلوا أخاه بسبب رفضه دفع الضرائب التى يفرضها زعماء العصابات العربية على كل المنطقة (جبال الكرمل) (ص ١١).

ولا يكتفى كرميلى بهذا القدر من تفريغ شخصية بطله «الدرزى» من أى مضمون قومى أو إنسانى فهو يفرد فصلا خاصا (ص ٦٧-٦٨) تحت العنوان « الدرزى رزق منصور »

لتعريف الطفل اليهودى على الدروز فيكتب:

« رزق منصور (وهو اسم البطل الدرزى» فى هذه الحكاية) هو درزى والدروز- كما هو معروف- هم قبيلة من المقاتلين الشجعان ، تتوزع قراهم من جبل الدروز فى سورية وحتى جبل الكرمل فى أرض إسرائيل . وعدد افراد هذه القبيلة قليل . فهو لم يزد البتة عن ربع المليون نسمة . لكن الدروز الفخوريين عرفوا دائما كيف يردون الضربة لضاربها وكيف يحبطون كل من تسول له نفسه مهاجمتهم.

« وكان فى أرض اسرائيل فى تلك الأيام العصيبة حوالى عشرة آلاف درزى سكنت أكثريتهم فى الجليل . وفى جبل الكرمل سكن الدروز فقط فى قريتين هما عسفايا ودالية الكرمل . وكانوا معزولين وبعيدين عن إخوانهم فى الجليل وجبل الدروز . ولهذا زاد العرب المسلمون ، جيرانهم ، الضغط عليهم أكثر من أية بقعة أخرى فى البلاد . وطالبوهم بالمشاركة معهم فى حربهم ضد اليهود وإرسال ابنائهم مع كامل عدتهم الحربية للخدمة فى صفوف عصابات المماربين العرب أو بدلا ذلك(ولأن الدروز رفضوا باصرار التعاون مع العرب فى حربهم ضد اليهود الفخوريين والصناديد) أن



من الأفراد الذين قتلوا ابن عائلتهم بقيت مضطربة في نفوسهم . وانتقدت شهوة الانتقام هذه بشكل خاص في قلب رزق منصور الشجاع».

ولكى يؤكد المؤلف لقارئه الصغير عمق الهوة القائمة بين «العربي» و«الدرزي» فإنه يجر بطله «الدرزي» ، في سياق مقتضب للأحداث ، إلى التوضيحية بآبانه الرهيئة في أيدي العرب من أجل اهدار دمهم وحفظ دم اليهود . ويرد كل هذه العملية إلى «شرف الدرزي» الذي يلح عليه -كما تصور الحكاية- أن يبقى مخلصا لليهود بأي ثمن وأن يدير ظهره للعرب!!.

إن نوايا التهويد الصهيونية لا تراعى شعوراً ولا تصون حرمة ، بما في ذلك حرمان المساجد . ويطعن الواقع اليومي المعاش للجماهير العربية الفلسطينية في بلادنا وفي المناطق المحتلة الدليل على ذلك . فمن الاعتداءات المتكررة على المسجد الأقصى إلى قرار تحويل مسجد حسن بك في يافا إلى منطقة سياحية مروراً بنش مقبرة الاستقلال وهدم جزء من المسجد الصغير في حيفا وقيام أوباش الاحتلال باقتحام الحرم الإبراهيمي في الخليل وفتح ثغرة في أحد

يدفعوا ضرائب باهظة لزعماء العصابات العربية».

«واضطرت غالبية الدروز القلائل ، الذين عاشوا في جبل الكرمل ، إلى الخضوع لمطلب زعماء المحاربين العرب وأن تدفع لهم الضرائب حسب رغبتهم . وفقط الفخوريون والأكثر شجاعة بين أوساط الدروز في الكرمل رفضوا دفع الضرائب المذكورة للعرب . وبين هؤلاء الفخوريين والشجعان كان أفراد عائلة منصور من دالية الكرمل . وفي أحد الأيام قدم حوالى مائتى رجل من أفراد العصابات العربية إلى هذه القرية وحاصروا المنطقة التي كان يسكنها أفراد عائلة منصور وقبضوا على شقيق رزق منصور البكر . وقتلوه رمياً بالرصاص مقابلاً له على رفضه دفع الضرائب لزعمائهم حمدان فارس الفوقا . وبعد ذلك هذبوا بقية أفراد عائلة منصور بأن مصيرهم سيكون مثل مصير المقتول فيما لو واصلوا مخالفة الأوامر . وحينما أيقن أبناء عائلة منصور ، وبضمنهم رزق ، أنه ليس في مقدورهم الوقوف في وجه جماهير المحاربين العرب على ضوء كونهم معزولين وبعيدين عن بقية الدروز والاستمرار في تحمل هذه المرارة دفعوا للعرب الضرائب المفروضة عليهم . لكن شهوة الانتقام

جدرانه وتحطيم بعض رخامه.

ولافسرو إذن أن لا تشور ثائرة
أبناء الشعب الاسرائيلي ضد هذه
الممارسات الوحشية طالما أن أطفالهم
يتربون على فكرة أن المسجد هو
وكر للذين يضمرون العداء لليهود .
ولا نرى أبعد من هدف غرس المبرر
لهذه الممارسات فى ذهن الأطفال
الاسرائيليين فى تأكيد كرميلى
المستمر (فى أكثر من حكاية) على أن
المسجد العربى فى قرية جت
العربية (الواقعة على جبل الكرمل،
كما يوحى له خياله) هو مركز قيادة
العصابات العربية «المتعطشة للدم
اليهودى». وفيه يجرى التخطيط لكل
العمليات «الوحشية» ضد اليهود:
«على بعد ثلاثين كيلو مترا من
معسكر البحارة وفى غرفة صغيرة
بين أرجاء مسجد قرية جت العربية
جلس زعيما العصابات المعروفان
حمدان فارس الفوقا والصمصى
محمود. وعلى ضوء قنديل زيت
صغير خططا مؤامرتهما (ص ١٩)
وفى أكثر من فصل تكررت الجملة
التالية المسجد الذى استعملته
العصابات مقراً لها».

ننتقل إلى استعراض جزء من
سلسلة أخرى للمؤلف نفسه حول
فريق «الرياضيين الصغار» التى
ترصد لأبطال معاصرين وبالتحديد

فى الفترة التى اعقبت عدوان
حزيران ١٩٦٧.

والحق يقسمال إن أول من لفت
الأنظار إلى هذا الكتاب «الرياضيون
الصغار عائدون» كان الكاتب
والصحفى شلوموفرنكل فى المقالة
الجريئة التى نشرها فى مجلة
«هعولام هزيه» تحت العنوان «إذا
أردت أن تربي فاشيا صغيرا فى
البيت اذهب إلى المكتبة واقتن أحد
الكتب المخصصة للأطفال.والتي
تتحدث عن ابطالنا الصغار- القتلة
العرب والخائن اليسارى».

فيما يلي قصة هذا الكتاب
(وليسمع لنا القارئ بالمزيد من
الاقتباسات الطويلة لكونها
ضرورية).

عاشت لعبة كرة القدم فى
إسرائيل أياما عصيبة فقد أملت
مصائب عديدة بلاعبى المنتخب
الوطنى . اثنان منهم أصيبا بحادث
طرق ولقى ثلاثة منهم مصرعهم فى
حريق غامض شب فى مساكن أفراد
المنتخب بمعهد «وينغت» . كما اختفى
حارس مرمى المنتخب.

«وهكذابقى فى المنتخب لاعبان
فقط هما لاعب الهجوم المركزى الون
ليفى وحارس المرمى رافى . وانتمى
كلاهما مؤخرا إلى النادى الرياضى
الجديد والمزدهر الذى أقامه رياضيو
المستوطنات الجديدة فى مناطق

الوطن المحصرة- ويحمل هذا النادى اسم هتحميا».

لم يمض وقت طويل حتى اختفى رافى أيضا بطريقة غامضة بينما نجا ألون بأعجوبة من حادث تسمم قاس فى المعدة .وكانت هذه الحوادث جميعها مصدر قلق كبير فى وزارة التربية والرياضة التى شغلها الوزير دافيد رونين .وكانت المهمة المطروحة أمامه مع رئيس قسم كرة القدم ، يهوئتان افيفى ، هى إعداد المنتخب لمباريات كأس العالم فى أسبانيا من المنتخب الوطنى . وعندها اختطف ، ألون عندما كان فى طريقه لإجراء فحص فى مستشفى رمبام بحيفا .
من هو ألون ليفى هذا؟؟

«منذ حرب الأيام الستة يومنذ تحرير الجزء الأكبر من أرض إسرائيل من نير الغرباء على أيدي جيش إسرائيل فى حرب بطولية لم يسبق لها مثيل وعاد الوطن تقريبا إلى الحدود التى كانت للشعب الاسرائيلى فى عصره الذهبى أيام الأنبياء -منذ هذا اليوم العظيم كان ألون ليفى يدغدغه حلم هو أن يمنح مجال كرة القدم فى أرض اسرائيل كلها تلك الهالة العظيمة التى منحها فى حينه لدولة إسرائيل القديمة والصغيرة فى مباريات بطولة العالم لكرة القدم فى طوكيو . لقد

تطلع شعب أرض اسرائيل دائما ، وهو استمرار شعب الانبياء العظيم ، الشعب الاسرائيلى ، إلى أن يكون طليعة الانسانية فى كل المناطق وفى كل المجالات وهذه هى رسالة شعب اسرائيل التى قطعها على نفسه منذ آلاف السنين- أن يكون منارا للأغيار فى كل أعماله وفى كل المجالات» (ص ٢١-٢٣).

ولهذا الغرض أقام ألون ليفى مع حارس المرمى رافى ناديا رياضيا جديدا:

«قرر ألون ورافى ان يقيما ناديهما أولا وقبل كل شئ فى المستوطنات الجديدة التى قامت فى مناطق الوطن المحصرة منذ حرب الأيام الستة . وأرادا أن يقوم ويتجدد فى مناطق الوطن هذه ، التى هى قلب وأساس أرض إسرائيل ، أرض الانبياء العظام ، شعب إسرائيل كشعب يحتذى به . ترك ألون ورافى فريقهما القديم وانتقلا للسكنى فى مستوطنة شخيم عيليت (نابلس العليا) على جبل جرزيم حيث أقاما أول فرع لناديهما .وكان اعضاءه الأوائل من شبان المستوطنات وبعد زمن قصير انضم إليهم عدد من الشبان السومريين الذين يقطنون فى نابلس وعدد من الشبان العرب المحليين الذين قرروا وربط مصيرهم

العالم «عرب ويهود بنخوة كاملة فى إطار منتخِب أرض إسرائيل الوطنى لكرة القدم وللحؤول دون ذلك فقد اقيمت منظمة مخربين عربية خاصة «وجرى امدادها بوسائل غير محدودة وبأشخاص موهوبين من بينهم واحد من خيرة النومين المغناطيسيين فى العالم العربى . كما جرى ربط هذه المنظمة التخريبية مع عدد من الخونة اليهود فى البلاد وهم خونة من أسوأ صنف ممن يعملون فى خدمة العدو - وهؤلاء هم شببان ليس فى قلوبهم أى احساس للموطن والمشغب وهم يتطلعون لتسليم أرض إسرائيل كلها إلى السلطة العربية المطلقة ، التى ستمنع عودة بقية شعب إسرائيل من المهجر إلى وطنه وتصفى كل الاسرائيليين الذين ولدوا فى البلاد أو هاجروا إليها (ص ٧٧).

وقام النوم المغناطيسى العربى بتنويم مدرب المنتخب الوطنى ، الذى بدأ يعمل فى صفوف الخونة دون علمه وأدى إلى القضاء على المنتخب الوطنى . وقد اكتشف رافى هذا السر عندما اختطف ونجح فى تنويم النوم المغناطيسى وفى أن يبتز منه اسرار المجموعة الفائزة . ولكن سرعان ما تنكشف خطط المخطوفين ويجدون أنفسهم محاصرين فى الطابق الثالث

بمبصر شعب إسرائيل «(ص ٢٤-٢٥).

وأسرت تولى «هتحياء» قلوب الشبان . وتحسن لعبهم . ولم يمض وقت طويل حتى تغلب منتخب «هتحياء» على منتخب البرازيل الذى زار البلاد بالنتيجة ٤ / صفر .

ويقرر اللون الذى اشتبه فى أن هناك يدا موجهة وراء سلسلة المصائب الغامضة التى ألمت بالمنتخب ، ان يحقق فى الأمر بالتعاون مع صديقه رنانه . ويقرر ابقاء نبأ سفره إلى حيفا طى الكتمان.

فى الطريق إلى حيفا يوقف ألون سيارته لحمل جنديين كانا يقفان على قاعة الطريق وبعد وقت قصير يوجه أحدهما سلاحه إلى اللون معلنا أنه وزميله ليسا جنديين وأن هذه عملية اختطاف . ويقوم الخاطفان بتخديره . وفى الأسر يكتشف اللون انه موجود بصحبة صديقه رافى ونائب مدرب المنتخب وأن أسريهم هم أشخاص يمثلون منظمة مخربين عربية يتعاون معها بعض الخونة الاسرائيليين . وأن الذى يتعاون مع الخاطفين ليس سوى مدرب المنتخب الوطنى افراهام هجليلى.

كيف صار مدرب المنتخب الوطنى خائناً؟ يشرح رافى ذلك لألون : فزع السوفييت والعرب من احتمال أن يلعب فى مباريات كأس

ومستوانا الانساني هما اللذان يقرران وليس الكثرة العددية وغناهم المادى . وأن لنا هدفا ساميا وهو أن نكون فى بلادنا شعبا يحتذى به ومنارا للاغبيار مثل آبائنا الانبياء من قبلنا» (ص ١٠٦-١٠٨).

وصار «الخائن» يتلوى وقد تملكته مشاعر الاحباط لقد اقتنع بأن كل ما قاله ألون عن العرب والاسرائيليين هو حقيقة أكيدة . الاسرائيليون هم الذين تطلعوا دوماً حقاً ، إلى السلام وهم لا يتغيرون حتى لو تحول أعداؤهم إلى حيوانات مفترسة وإلى قتلة يبعثون على الاشمئزاز . وأن الاسرائيليين على استعداد للاستمرار فى كونهم مثلاً يحتذى به أعداؤهم فى تصرفاتهم الشجاعة والأصليّة التى تلزمهم باعطاء أعدائهم نموذجاً فى كيفية التعامل مع الضعاف والمهزومين» (ص ١٢٤). وفى هذه اللحظة يكشف الجرم الرهيب الذى ارتكبه ضد شعبه ويستل «شبرية» ويفرّزها فى قلبه!

* * *

لعل أكثر ما يثير الحنق فى المجادلة التى تدور بين ألون والخائن ذلك الجزء منها الذى يتعلق بتاريخ النكبة الفلسطينية واللجوء إلى التزييف فى عرض الوقائع . ولنستقرئ مقاطع من هذا الحوار:

وعندها قام الخائن ، وهو أحد الجنديين اللذين أخذهما ألون فى سيارته ، بمطالبة الرياضيين بالاستسلام وقال لهم «إننى لا أعترف بهذا الشعب وبهذا الوطن اللذين تتكلمون عنهما . إن شعب إسرائيل وأرض إسرائيل هما اختلاق امبريالى ينبغى القضاء عليهما مع كل الامبريالية فى العالم . وينبغى إعادة هذه الأرض للعرب التى سلبوها منهم -إننى أقاتل من أجل هذا الأمر العادل» (ص ٩٩).

ويبدأ ألون فى مقارعة . ومما يقوله «إن الجميع يعرفون جيداً ، ونحن نعود ونصرح بلا هوادة ، أن هذه البلاد هى أيضاً وطن العرب الذين ولدوا فيها بصورة لا تقل عن كونها وطننا نحن أبناء البلاد الاسرائيليين ، لكنها وطننا بصورة لا تقل عن كونها وطنهم» . لكن العرب لا يريدون العيش معنا بأخوة فى وطننا المشترك» . ويقف من ورائهم ملايين الناس وهم أكثر غنى من شعوب العالم كافة بسبب نفعهم الوفير .. وهم لا يوافقون على أن يكونوا على وجودنا فى بلادنا ويتطلعون بكل السبل والوسائل لإبادتنا تماماً مثلما إبادوا قبل أجيال الاشوريين والارمن .. إلا أن مؤامرة العرب ، الذين يتطلعون لإبادتنا ، سيكون مصيرها الفشل . لماذا ؟ -لأن نوعيتنا

سكانه أقل من نصف مليون نسمة ،
وينفذون فيه حقدهم المروع
ويبيدونه وينهون ويسلبون كل ما
كان يملكه . ولكن قبل خروج
البريطانيين وغزو الجيوش العربية
دارت في البلاد معارك طاحنة
ودموية بين قوى الاستيطان العبرى
القليلة التى خرجت من العمل
السرى -قوات الهاغاناه والبلماخ
والاتسل والليمى وبين عصابات
عرب أرض اسرائيل الكبيرة التى
اعتدت على المستوطنات اليهودية
بمساعدة البريطانيين وقوات عربية
وقوية تسربت إلى البلاد بضوء
أخضر من البريطانيين من أجل
المشاركة فى السلب والنهب والمذابح
المعدة ضد المستوطنات العبرية
والتي لم تستطع الانتظار حتى
موعد مجئ الجيوش العربية
النظامية . وسأله الفائز : هل شرد
الاسرائيليون فى حرب التحرير
وفى حرب الأيام الستة مئات آلاف
العرب عن البلاد ؟ .

أجاب الون : لقد بدأوا بشن
هجوم على مستوطناتنا فى أرجاء
البلاد كافة ونصبوا الكمائن للقوافل
التي كانت تزودها بالذخيرة فى
الطرق .

.. وقتلوا بوحشية شيوخا ونساء
وأطفالا عزل ومثلوا بجثث القتلى ..
لقد ارتكبوا أعمالا آثمة يصعب

« تكلم الون وأجاب الفائز عن
الحقيقة الأكيدة : كانت حرب
التحرير (كارثة عام ١٩٤٨ فى
القاموس الصهيونى -المؤلف)
الحرب الأكثر صعوبة لشعب
إسرائيل فى السنوات الأخيرة . لقد
بلغ عدد المستوطنين الاسرائيليين
فى البلاد آنذاك حوالى ستمائة
وخمسين ألف نسمة فقط مقابل
مليون عربى محلى وحوالى أربعين
مليون عربى فى الاقطار التى من
حولنا . وكان الهدف الذى سعى إليه
المليون عربى الذين استقروا فى
البلاد بسيطا ورهيبا على حد سواء
وهو -إبادة السكان العبريين
بجماعات دماء رهيبة وبواسطة
الذبح والتعذيب الوحشى ووراثه
بيوتهم وأماكنهم وكل البلاد ومحو
أى ذكر لنا تحت السماء وعلى وجه
البسيطة . كانوا على ثقة من انهم
سينجحون بدون أننى شك فى
تنفيذ ذلك حال خروج البريطانيين
من البلاد فى ١٥ ايار ١٩٤٨ لأنه حال
خروج البريطانيين استعدت لغزو
البلاد جيوش خمس دول عربية
مجاورة يبلغ عدد سكانها سوياً
حوالى ٤٠ مليون نسمة -جيوش من
مصر وشرق الأردن والعراق
وسورية ولبنان- وسوية معهم
يتغلبون بسهولة على الاستيطان
العبرى الصغير ، الذى بلغ عدد

وصفها . لكن شبّابنا ، محاربينا القلائل ، ردوا الصاع صاعين وشيئا فشيئا عدلوا كف ميزان الحرب لصالحنا . واقتحمت قوافلنا المستوطنات المحاصرة وانتقلنا في المدن المختلطة إلى الهجوم المضاد وضربنا مقرات عصابات القتل ومواقفهم . وقد انهار المقاتلون العرب بفعل قوة انقضاضنا وبدأوا بالتراجع . وتراجع في اعقابهم من المدن والقرى العربية الأهالي العرب كذلك . لأنهم ، وهم الذين ارادوا ان يشربوا من دم امهاتنا وان يحطموا الجدران على رؤوس أطفالنا وابادتنا جميعا حتى الرجل الأخير ، كانوا متأكدين من أننا سنفلح بهم مثلما أرادوا أن يفعلوا بنا .

وبعد أن دار دولا ب المرب وبدأنا في التغلب عليهم لم يصدقوا نداءاتنا بأن الأهالي العرب في القرى والمدن المحصرة على أيدي قواتنا بامكانهم العيش فيها بهدوء وطمأنينة وأخوة تامة معنا . لكن هنا وهناك ، في حالة واحدة أو حالتين ، أصاب مقاتلونا في حمأة المعركة عرباً غير مقاتلين لكننا بكثرتنا- كابناء شعب الأنبياء في أرض الأنبياء - اردنا بجدية أن نكمل تراثنا الكبير كشعب حنون ورؤوف يتطلع إلى أخوة كل الشعوب وكنا مستعدين أن ننسى ونصفح ونربيهم

لكي يكونوا مثلنا .

لكن العرب الحليين لم يريدوا عقد راية السلام معنا . وآمنوا بأنه بعد مرور فترة قصيرة ومع غزو الجيوش العربية النظامية للبلاد يكون بامكانهم العودة إلى بيوتهم مع الجيوش العربية المنتصرة والاستيلاء على بيوتنا وتنفيذ مآربهم في إبادتنا .

ولهذا اختاروا مغادرة البلاد بارادتهم على الرغم من نداءاتنا اليهم بالبقاء هنا والحياة بسلام معنا- لقد تركوا حيفا ويافا وطبريا وصفد وغيرها وانتقلوا إلى الأقطار العربية المجاورة وكلهم ثقة من إنهم سيعودون بعد فترة منتصرين ويتخذون ثأرهم .

ولكن غزو الجيوش العربية إلى بلادنا انتهى بهزيمتها الساحقة وبقي أهالي البلاد العرب الذين تركوا بيوتهم في الدول العربية المجاورة لاجئين خائبين عاجزين عن العودة إلى هنا لآبادتنا جميعاً .

وفورا غيروا جلودهم وتحولوا من منتقمين متعطشين للدم إلى مولولين على مصيرهم البائس ، مصير اللاجئين عديمي المأوى الذين طردهم الاسرائيليون بوحشية من مدنهم وقراهم في البلاد في الوقت الذي كانوا فيه مستعدين للعيش معهم مع الاسرائيليين ، بسلام .

وعادوا على هذه القربة كل يوم حتى أصبحت في أذهان الرأي العام حقيقة أكيدة . وهكذا نشأت أسطورة اللاجئين العرب المساكين .. «وعادت القصة نفسها في حرب الأيام الستة. لقد تجند العالم العربي برمته من أجل اسرائيل . ووقف الاتحاد السوفياتي ، الدولة العظمى والجيالة التي حتى الولايات المتحدة ترتعد منها ، إلى جانب العرب بشكل علني وزودوهم بأحدث السلاح من أجل تسهيل مهمة إبادةنا عليهم . لكن مرة أخرى اثبتت الشعبية الاسرائيلية والشعب الاسرائيلي كله انهم ليسوا فقط أبناء شعب الأنبياء وإنما أيضا أبناء المكابيين وورثة الليحي والاتسل والبلماخ وفي حرب بطولية ستذكرها اجيال الحقوا هزائم ساحقة بجيوش مصر والأردن وسورية وحرروا أرض اسرائيل الغربية والجلولان ومسيناء . وهذه المناطق هي وطننا ليس أقل من كونها وطننا لسكانها العرب.

وكان سلوكنا مع عرب المناطق التي حررناها سلوكا مثاليا لكن أكثر ريتهم كانت متأكدة من أننا سنفعل بهم ما ارادوا فعله بنا ولهذا سارعوا إلى الهرب فيما وراء الحدود . وكالعادة وبعد عدة أيام بدأوا يصرخون عبر الاذاعة والتلفزيون والصحافة انهم شردوا من قبلنا

بالقوة . ومرة أخرى نجحوا في اقناع الرأي العام العالمي بأن هذه حقيقة أكيدة (ص ١١٢-١١٨).

عندما تصل قصة من هذا النوع إلى أطفال في العاشرة من عمرهم فإن هدفها يكون واضحا للعيان . وهم يتعلمون أن جميع العرب هم قتلة يدبرون لآبادة اسرائيل وقتل الأطفال وتحطيم رؤوس الأمهات . وهم يتعلمون ان العربي الصالح هو أحد اثنين : إما العربي الميت أو العربي الذي قرر الانصهار في الشعب اليهودي من خلال التخلي عن هويته القومية.

والآنكى من كل هذا أن المبسر الذي يصوغه افثير كرميلي لانصار العرب في الشعب اليهودي هو كونهم من سلالة بنى إسرائيل (٩٩) فهو حين يتحدث عن الشبان العرب الذين قرروا ربط مصيرهم بمصير شعب إسرائيل يكتب:

«بدأ عدد من الشبان الناطقين باللغة العربية يؤمنون انهم من سلالة بنى اسرائيل القدماى . وهم بقوا في البلاد ولم يذهبوا إلى المهجر بعد أن خربها الرومانيون . وعندما احتل العرب البلاد اضطرت غالبية أبناء البلاد الاسرائيليين إلى قبول دين المحتلين وعاداتهم رغما عنهم - والآن هكذا آمن هؤلاء الشبان العرب - ازفت ساعة الرجوع

من عمره كان زعيم عصابة خاصة وأحب أن يقرر من ينوى أن يقتل أو أن يسرق».

وقد عبر سيتر عن المفهوم الذى يوجهه فى الكتابة للطفل بقوله:

«أنا لا أؤيد الفكرة القائلة إن الكتاب ينبغي أن يكون تربويا . إذا قرأ الإنسان كتابا لطيفا وواجهته ، أزمة عائلية فمن شأنه أن يرتكب جريمة قتل . إننا نعيش فترة تتميز بالتعقيدات مع العرب فيما يمكن أن نسميه بكل بساطة «حقول ملائى بالدم» . وليس من العدل ، بالحالة هذه ، أن نحكى للأطفال قصصا جميلة عن الأزهار والفراشات وزيت الزيتون الصافى . إن ذلك سيؤدى إلى أزمة : الطفل سيقراً قصصا جميلة عن تفريد العصافير . وفجأة -هنا حرب وهناك مخاوف .وعندها سيمانى أزمة ثقة . فهل يجوز لنا ، إذن ، أن نخدع أولادنا .

فى المقام نفسه أعلن عيدو سيتر بصراحة متناهية : «إننى أكره العرب».

ومنساقا وراء هذه الكراهية فإنه يصدر جميع قصصه بهذه الكلمات الموجهة إلى قرائه الصغار:

«هذا ما سيكون أيها الأصدقاء . الحياة لا تسير فى التلم . أحيانا يخيّل لنا بأن كل شئ على ما يرام ، وأن ليس ثمة ما يبعث على القلق ،

إلى حزن شعبيهم الحقيقى ، شعب إسرائيل ، والمشاركة فى عملية بعثه الكبيرة والعظيمة فى بلاده كشركاء متساوين» (ص ٢٥).

* * *

«أنفير كرميلى» هو نموذج واحد فقط على كيفية ترجمة العنصرية فى أدب الأطفال العبرى.

ومثله ، أيضا ، يفتال موسينزون (أول كاتب للأطفال باللغة العبرية) ، صاحب سلسلة القصص الأشهر بين كتب الأطفال العبرية- سلسلة «حسبما» . وكذلك عيدو سيتر (اسم مستعار لحزاي لوفبان) ، وهو كاتب مسلسلات «موزيعوز» و«جماعة المربع الأزرق» و«توكيديس» . ومنه نقتبس هذا الوصف النمذجى لشخصية العربى (من قصة «موز يعوز ضد تماسيح فرعون»):

«هل سمعتم مرة من سليم جحيدا ؟ إذا لم تسمعوا اصغوا إلى جيدا : إنه وحشى مثل شعبان صينى . غير هياب مثل نمر هندى . مكار مثل ثغلب سورى . مجرم من بطن أمه . منذ نمومة أظفاره كان أشبه بلص أكثر من كونه ولدا طبيعيا .. فى السابعة من عمره ضرب معلمته بالكرسى على رأسها ، وقال لها إن حاصل جمع اثنين زائد اثنين هو خمسة ، وأن تكف عن تعكير صفو أفكاره تلك البلهاء .. وفى العاشرة



المتوحش ، اعتبره الباحث فى أدب
الأطفال أوريثيل أوفك: سما قاتلا .
وأضاف : « لقد حان الوقت لكى
يستفيق الرأى العام على خطورة
هذه « الصناعة » . ففى جميع الأقطار
تندرج أشباه هذه الكتب فى عداد
« القوائم السوداء » للمجلات
التربوية والأدبية . وهذا الأمر ينبغى
أن يتم عندنا أيضا . وربما حانت
الساعة التى ينبغى فيها تشريع
قانون يحظر إنتاج وتسويق هذا
« الغذاء الروحى » الخطير والفاسق .

« الأمايلد: الغنادير .. الجميلون ومفرها

«أملود» .

ولا تحوم أية مفاجأة فى الأفق المحيط
بنا . وفجأة يقفز ضدنا « مجهول »
يحمل مواداً متفجرة من جميع
الأصناف . فى عقله مكيدة أثمة وفى
قلبه كراهية حاقدة ، هذا دليل على
أن الحرب ضد العدو مستمرة ، لا تملك
حيالها شيئا . إنما ينبغى علينا أن
نجابهه بكل قوة ، من أجل القضاء
عليه مرة أخرى ولايهم بماذا :
بمسدس أو سكين أو بزوجين من
القفازات المستعملة فى الملاكمة .
الجميع مشترك فى اللعبة .
وصدقونى إن هذه اللعبة ليست من
قبيل الهزء والسخرية بل هى لعبة
من أجل الحياة أو الموت .»

مثل هذا الأدب العنصرى ،

شعر

منمنمة يُؤبدون لحظة السيراميك ونؤبدُ الزلزلة

محمد عفيفي مطر

١

سرابٌ دنا فاستعجاشت له الروحُ وانفتحت تحت جلدي خارطة الرمل
(كنتُ أرقعُها كلما بليتُ أو تأكلُها
الظما المتوحشُ أو ثقبْتُها ينابيعُ
حلمٍ تطيش به خطراتي هنا أو هناك)
فمن - بالجراح البليغة - أعطاك هذي الدلاءَ
ومن - بانقئاد شظاياك بالعطش الوحش -
أعطاك هذي الرشاءَ

لكي تَسْقَى ، وأعطاك فسحةً عمرٍ
وأغرى بك المومياة
لتطويك بين لفائف كتائبها المتوقِّد حتى تفوح
عظامك بالنَّد والمرَّ محترقاً بالحنوطِ
يبُلُّ وبنك مجد السرابِ !

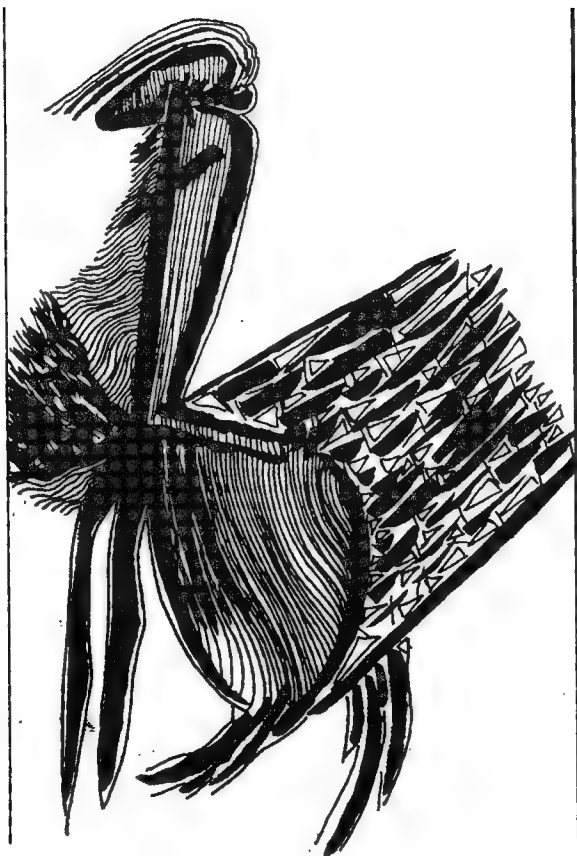
دنا فتدلت دلاؤك ، صاحبت بك المومياة : احتفن حَفَنَةً ..
(قلت : لا أنت منهزم فتفر ولا أنت ترجو فتقلم)
صاحبت بك : اشرب ..
فما كذت حتى وجدت السراب
قباباً يرفرف من تحتها حجرٌ من بياض فسيح ..

٢

لهم رمْلهم ولنا رَمْلنا ..
فَلَمَنَ طلل يتأبَّد معناه في مطلق من خرائب أشكاله
تحت مجد السراميك في زهو أشكاله :
قد أقمت الجدار الذي كاد ينقض .. من تحته
كنزُ طفلين ، حتى إذا بلغا الرشد قاما من اليعتم
وانتزعا الكنز ..
لكنه انقضَّ ثم هوى طللًا قاتلاً دُفِنَا تحته
وتناهبت الكنز أيدي القبائل ..
أقبل زحفهم عاصفًا من رماد على مرمر من سَراب
فهم همج وسراحتُه ، نافعِين أو مكرميُون رِيَّانِيُون
أو شركسٌ جَلِبُّ من محالِك طيبة أو دُوْنَمَة الزمن الوغدِ ،
هم حَمًا يتحلزون من شط قارون عجلهمو ذهب

ذو خوار يجلبل بالرمل والملح في ملكوت الخراب
 لهم رملهم ولنا رملنا .
 وجعافلهم منذ من " سوير سوير " في حابل نابلر من بلاشفة تفتوط
 أقلامهم
 في لحي الأعمية ،
 يستكسبون الدوائق من ظلمات الخليج ،
 يبيعون أو يشترون على شرف الشيخ التويلي
 ويشرون جتته فلدة فلدة ،
 ويقيمون فثلاق ذاكرة الوطن المستباح
 علي طبق كيرتزي بضوته الشمعدان
 السباعي فوق " الحنوكاه " ،
 هم رقصه عجب بين بوكبة الشرق أو باب " لاهوغلوياتهم " ،
 ودقوف " سعاد " ونوط الصليب المذمى وطقس
 الوضوء المباع على بئر زمزم ،
 تنويريون فحم قلوبهم وعقولهم ظلمة يلاون
 الأماسي من صخب الجنرال الحديدي والخشبي لعلهم
 يستعينون أمجادهم في اغتيال الكلام
 وقتل الهواجس والصمت ،
 راحوا يهشون بالسوط والذكريات على غنم
 ليس تفتو ولا ترثي ،
 ولهم رملهم ولنا رملنا .

لكن ظلل يتأبد معناه في مطلق من خرائب أشكاليه تحت مجد السراميك في
 زهو أشكاليه :



خضرة من شعير وصفرة كرم تدلت عناقيدُه
تستحيلان نعيم زجاج يفور دماً في التبيد
وتبر شعير مذاباً برغو الذهب . ١
لنت طلل ساورته الأوابد من لاهم الطير
والإنس والجن
ماسلمت من يد أو لسان يد أو لسان ،
وملكة الرب عرش لفرعون أو قيصر ،
ونداوة خوص الشعانين عنق الذهب .

٤

لهم رملهم ولنا رملنا ،
ورملهم من فتوق التواريخ سجادة من
رقاع السراميك تلقى صدراً بنهد وزهرة
أس بطير وزخرفة من حريق الخواص البهيمه
أو من بلهنية البلهاء على بوسترات الصبايا
البغايا وعهر الفواجر في فورة البحر من
خضرة لم يؤنس خرائنها الرب
أنسنتها الدركيون
أنسنتها الجنرال الحديد الخشب

٥

لنا رملنا:
حاصب من خيال الشعب



يرى ما يرى هَبُونَا .. فُتُفَا وَأَبْكِيَا فَرَحًا إِذَا يُلْمَلِمُ
 رُحُ الزَّلَازِلِ صَبِيحَتَهُ وَيُرَوِّقُ جَنَاحِيَهُ
 حَتَّى إِذَا هَمَّ بِالطَّيْرَانِ تَخَلَّعَتِ الْأَرْضُ بَيْنَ مَخَالِبِهِ
 وَتَكْشَفُ مِنْ تَحْتِ رَمْلِهِمْو رَمْلُنَا .
 خَالِدًا فِي الْمَكَانِ الْمَوْثُودِ ..
 قُومَا أَبْكِيَا وَطَنًا لَمْ نَكُنْ مِنْهُ أَوْ فِيهِ يَاصَاحِبِي ..
 فَنَحْنُ عَبِيدُ مَحَبَّتِهِ وَرِوَاةُ ، عَبِيدُ أَنْهِيَارَاتِهِ وَعَبِيدُ
 انْتِظَارِ زَلَاظِلِهِ ،
 وَلَنَا مِنْ دَفُوفِ الدَّرَاوِشِ مَرْغَى دَمِ رَائِقِي فِي
 كُؤُوسِ زَوَيْنَا بِهَا " قَبْلَ أَنْ يُطْلَقَ الْكُرْمُ " ، مَهْوَى شَبَاكِ ، وَصِيدُ هُوِ الْحَبِيبِ
 الْمُنْتَشَى بِصَهِيلِ
 الْبِرَاكِينِ فِي فَرْجِ الْكَرِّ وَالْآءِ ،
 نُطْلُقُ وَجَدَ الْخِيَالِ الْفَتَى نَلْمُ هَذَا الْمَخْطَامَ الرِّكَامَ ،
 قُومَا أَبْكِيَا يَا خَلِيلِي مِنْ
 فَرْجِ بَانْتِظَارِ الْفَرْخِ

١٩٩٩/٨/٢

قصة

الملعب الطبيعي

عبد جبير

(مهدها إلى أحمد البغدادي ومارسيل خليفة وصديقي إبراهيم عبد

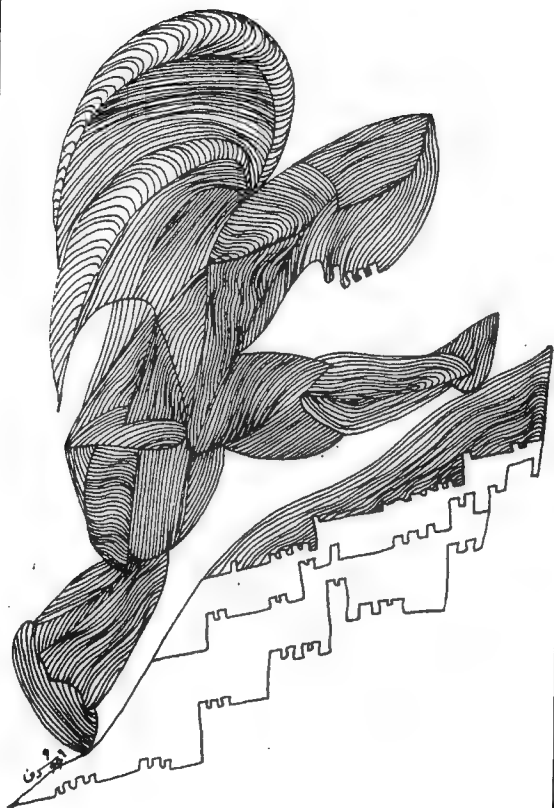
العاطي)

فى السادسة والرابع تماما كان إبراهيم عبد العاطي قد نزل من التاكسى أمام مقهى الحرية فى ميدان باب اللوق ، قادما من دار الهلال ، بعد أن قضى هناك سحابة نهاره يبحث وينقب فى الصحف والمجلات الصادرة طوال العام الماضى وحتى الأمس ، محاولا معرفة السر وراء تغيير جرى هذا الصباح فى شارع محمد فريد الذى لا يبتعد سوى أقدام قليلة عن المكان الذى نزل فيه من التاكسى ، قادما من دار الهلال التى لا تبتعد بدورها كثيرا من نفس المقهى التى دخلها الآن حيران ، لا يعرف أين يجلس ، أو ماذا يشرب ، أو إلى أى شئ يلتفت.

لكنه التفت دون قصد إلى المرأة العريضة المعلقة فى الركن القصوى من المقهى فوجد شخصا حزينا ، فى الستين من عمره ، خرج منذ شهرين إلى المعاش بعد أن قضى سبعة وأربعين عاما يعمل فى دار الهلال نفسها . فى المكتبة التى قضى فيها سحابة نهاره ، ينقب عن السر الذى دفع عمال المحافظة إلى القدوم مبكرا فى صباح اليوم نفسه.

رأهم حين خرج لشراء إفطاره وصحيفتيه ، مصحوبين بعربة البلدية ذات السلم العالى ، وظن لأول وهلة أنهم يقومون بتغيير لمبات المصابيح المطفأة منذ زمن ، لكنه وجدهم يغيرون لافتات الشارع من الأركان.

يرفعون تلك القديمة التى اعتاد أن يلمح عليها ، طوال عمره المديد الذى قضاه فى نفس هذا الشارع ، اسم محمد فريد ، ويضعون مكانها لافتات



جديدة تحمل اسم المذبة التلفزيونية الشهيرة صفاء أبو السعود.
أخذته الدهشة بالطبع لهذا التغيير المفاجئ ، فطلع إلى شقته ، وضع
الإفطار على طاولة الطعام فى الصالة وفتح أولا صحيفة الأهرام بأسرع ما
يستطيع باحثا عن خبر هذا التغيير. لم يجد . تناول الأخبار وقلب صفحاتها
بدقة. لا شئ.

قام إلى التلفزيون فوجدهم يبثون برنامج صباح الخير يا مصر وصفاء
حجازى تذيع الفقرة الإخبارية لكنها لم تشر للموضوع.
ذهب إلى الفراش وتمدد فاتحا الراديو فوجد صوت العرب بيت فقرة
غنائية استمع خلالها لأغنية عمرو دياب الأخيرة ، أعقبتها أغنية لحكيم ، ثم
ما إن بدأت لطيفة أغنيتهما حتى قطعتها المذبة ، التى لم يكن واضحا من هى ،
وقرأت الموجز دون أن تشير أيضا إلى شئ مما يشغل باله .
أطفأ الراديو وسحب الغطاء على جسده المتعب وغفى للحظات أيقظه
الجوع منها ، فقام إلى طاولة الطعام . حمل الخبز والجبن إلى المطبخ . وضع
الماء على النار وصنع كوبا من الشاى.

عاد إلى الصالة وجلس إلى مائدة الطعام وأكل قليلا من الجبن بالخبز.
عاد إلى تقليب الصحف مرة أخرى لم يجد شيئا.
فكر أنه كان عليه أن يذهب إلى دار الهلال ليسأل عما جرى بخصوص
صرف مستحقاته من نهاية الخدمة. حسنا . هناك ربما عرفت شيئا عن
الموضوع . لا . لا شئ.

سأل ثلاثة صحفيين فى المصور . ومحررة فى الكواكب . ورئيسة تحرير
حواء . لا . لا شئ . بل إن الجميع نظروا إليه باستغراب . لا كف عن السؤال .
وبما ظنوا أننى قد جننت.

صعد "إلى المكتبة وقضى سحابة نهاره يبحث وينقب . لا شئ . نزل
وركب التاكسى إلى حيث يجلس الآن فى ركن المقهى . يدخن الشيشة
ويرشف الشاى . ويتطلع بين لحظة وأخرى إلى وجهه الذى بدا له وجه رجل
أكبر مما كان يظن . ابتسم . فالناس سيظنون أن شيئا ما قد حدث لك . ونظر
. كان يبتسم بالفعل . أخذ يدخن بإخلاص أشد ، لكنه دون قصد ، وجد إبراهيم
عبد العاطى آخر يجلس إلى الجهة الأخرى من نفس الطاولة التى كان جالسا
إليها كان هو الآخر يدخن الشيشة ويرشف الشاى الأحمر . فى البداية لم

يجرؤ على تبادل الكلام معه ، لكنه حين وجده يبتسم . قال يبدو أن الرجل بشوش هذا الصباح . كيف الأحوال . عال .كيفك أنت ؟ . ماشى . عملت إيه اليوم ؟ . لا .لا .شئ مهم .

تناولت .. أعرف . جينا وخبزاه . آه . هذه عادتك . آه . على الرغم من أن عندك ضغط . يا سيدى . سيضر بصحتك . الله كريم . وأنت الآن وحيد لا أحد يخدمك . ثم قرأت الصحف . كلها . لا .الأهرام والأخبار فقط . ها . لا .لاشئ . وشربت شاي . آه . وسمعت نشرتي أخبار . واحدة فى التلفزيون . فى صباح الخير يا مصر . آه .والثانية فى الراديو . فى أى محطة . والله ما أنا فاكسر . لا . وسمعت أغنيتين ونصف . ونصف ؟ آه لأن مذيعة الراديو قطعت الثالثة لتذيع النشرة . إنهم يفعلون هذا كثيرا هذه الأيام . ونهبت إلى دار الهلال وسألت . آه . لا شئ . سألت من أى شئ؟ عن نفس الموضوع الذى حدثتك عنه من قبل . وآه . إيه الأخبار . لا . لم يقوموا بعمل الإجراءات بعد . آه . هذه الأمور تحتاج . أقصد تستغرق وقتا . آه .عندهم الكثير منه . لكن أنا وأنت ؟ على أى حال . ما رأيك فى أن نتمشى فى وسط البلد نيبص على النسوان ؟ . لا . أنا أريد أن أجلس هنا . صحيح نسيت أسألك ؟ عن أى شئ ؟ . أليست صفاء أبو السعود هذه مذيعة تلفزيونية ؟ آه وراقصة أيضا وغيره . ماذا تعنى بفيسره ؟ .فنانة شاملة يعنى . آه . وغنية جدا جدا . آه . طيب أتركك أنا الآن للمشيشة . مع السلامة . مع السلامة .

دفع الحساب لشخصين وخرج إلى الطريق .

لكنه بعد خطوات وجد نفسه متعبا جدا .

أكثر مما يجب .

أكثر مما يمكنه مع التمشية فى وسط البلد للبصبة على النسوان . فقفل عائدا إلى شارع محمد فريد الذى أصبح منذ الصباح شارع صفاء أبو السعود . إلى البيت . إلى السرير . حيث يصبح الفراش هو المكان الطبيعى فى مثل هذه الأحوال من التعب .

شعر

الغرفة ذات الشباك المغلق

سمير درويش

الغرفة ذات الشباك المغلق

ساحة صراع

لذلك امتلأ الجو

برائحة الخصاص

وارتفع الشريط الطولى الأوسط

من المرتبة، وعليه

استسلم جسد سهيل

للنعاس

* * *

كلما هبط النصف الأيمن من السرير

رفعت التلفاز لأعلى

أنا الذى أؤمنت البحث عن

البث الأوربي، لأعرف

متى ينتهى الألم الذى استوطن عظام رقبتي.

* * *

عندما يبكي سهيل..

تعبت يدائى فى قواريره

المرصوفة على شباك السرير

وعندما يضحك..

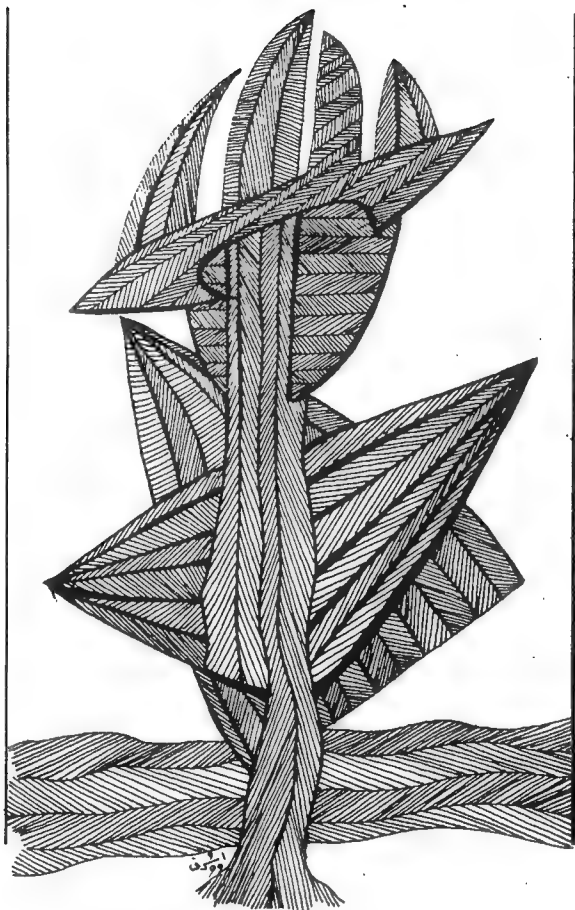
أتقافز حوله كيهلوان بين

حاجياته المتناثرة.

وعندما يستحم، تتبلى أذيتى

بالرذاذ المشبع برائحة الصابون

الذى يتطاير



حول الطبقي البلاستيكي.

x

x

بعد منتصف الليل
طاردتُ ذباباً بمبيدٍ فعالٍ
(الذباب يورقُ حتى الذين
ليست بهم حاجة للنوم)
وعندما اخترقَ أذانُ الفجرِ
جدارَ رأسي
كنتُ أجاهدُ لأضعَ جسمي
كلُّهُ ، تحتَ الغطاء
وعندما يأتِي الصُّباحُ يَأْبِثُها الغافيةُ
أَلصقُ فوقَ وجهي ملامحَ
جديرةٍ
باصطليارِ العصافيرِ .

x

x

يبكي سهيلُ لِيَاكُلْ
يبكي ليشربَ
ليناُمَ .
لِيلْعَبَ
يا هذا العمرَ الذي يجري
يجعلنا شركاءَ في شركاتٍ لانزومها
شركاءَ مغبونين
لاناكُلْ
لانشربْ ..
لاناُمَ
ولانلعبْ
لأننا لانقدُرُ على البكاءِ .

x

x

الدماءُ التي تنزِفُ في
موسمها الشهري
لأجدُ لدى رغبةٍ
لإيقافها .

x

x

أضيقُ سهيلَ بينَ ساعدِي
أقبلُ شفقتيه
وجنتيه
وكفيه المُنعمتين ،
فيضحك ضحكةً رائقةً ، يهتزُّ لها
جسده الصغيرُ
ويعلك خنصرى بين فكيه .
سهيل ..
الذى قاطع نورسيها
أيضاً .

x x
الاعطية معلقةً على السريرِ
ماتزالُ ،
ملابسها معلقةً على المشجبِ
البلاستيكي ، خلف البابِ
جوربها ذو الرائحة النفاذة
ملقى على سجادة الطرقة
بقايا الطعام على السريرِ
عيناهما مربوطتان في شاشة التلفاز
تتابعان مسلسلاً هابطاً
وأنا أندفعُ خارجاً
كلُّ صباح ، في التاسعة
إلا عشر دقائق .

x x
مثلي ..
ينظرُ سهيلُ للكاميرا بوعى
يفتحُ عينيه عن آخرهما
ويرفع حاجبيه .
ومثلها يبكي ..
دراً لحوادث الآخرين .

x x
تحدثُ بطلاقة مندوبى المبيعاتِ
دون انتظارٍ إجاباتٍ .



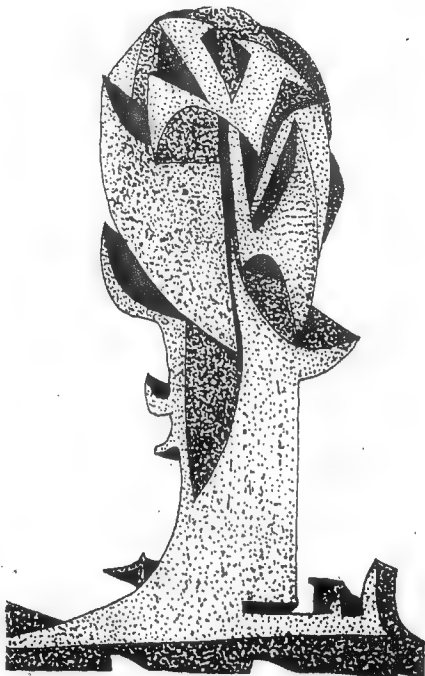
تتنقّل برشاقة
ويذات النبرة المستوية
بين الموضوعات
وعندما تحدث صديقاتها في الهاتف
تلمع عينيها ببريق
يناسب الدم الذي يحتبس
فجأة ، في وجنتيها .

x x

دعى سهيل يبكي
دعيه
لن يستطيع وحده
أن يصل التاريخ الصائب
بالجغرافيا المصلوبة.

أُمِّي أَضْيَى الشَّمْسِ / أَحْمَدُ خَانَ أَبُو بَكْرٍ / تَرْجَمَةٌ : أَحْمَدُ مَصْطَفَى

الديوان الصغير



لعله من قبيل التزايد الحديث عن فكرتى الحرب والم كبروتى اهتمام فى الأدب الروسى (السوفيتى) المعاصر ، وكلنا يذكر راشتى تولستوى وجوركى « الحرب والسلام » و « الأم » . وفى الوقت الذى انضوت فيه العديد من القوميات والتكوينات العرقية تحت مظلة الاتحاد السوفيتى السابق . حتى نهاية العقد الماضى ، كانت دول آسيا الوسطى الإسلامية داخلية فى عملية طويلة من التشكيل الثقافى ؛ يستند إلى رافد إسلامى (عربى وفارسى وتركى) ويستلهم تراثا روسيا عريقا وفى الوقت نفسه يحاول الانتظام فى ثقافة سوفيتية مشتركة .

ولعل الأكثر تأثرا بهذه المحاولة التكوينية الثقافية هم أدباء الستينيات والسبعينيات فى الاتحاد السوفيتى السابق . والكاتب الداغستانى أحمد خان أبو بكر يمثل هذه المرحلة . وهذه القصة التى نشرت فى أواسط الثمانينات تعد نموذجا على هذا التمثل الثقافى . بالإضافة إلى أنها مزجت بين فكرتى الأم والحرب فى عمل لا يفترد إلى دقة البناء .

وإذا كانت القصة تبدو مقسمة إلى « حكايات » من الماضى تحكيها أم لأطفالها ، فإن الحرب لن تنتهى من العالم وإن أخذت أشكالا جديدة وكذلك فالأم موجودة ما دامت هناك حياة . وهكذا تصلح هذه الحكايات الداغستانية للأطفال والكبار على السواء فى كل وقت ، وتلك سمة الأدب الجيد .

وإلى جانب القيمة الأدبية والفنية ، لا تخلو الحكايات من « التعليمية » التى اتسم بها الأدب السوفيتى فى ظل الحكم الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى (السابق) . وسيجد القارئ أن الخلاصات « التعليمية » فى حكايات الأم للفاضل أحمد أبو بكر ليست بعيدة عما سمعه الكبار منا . من حكايات فن صغرىهم تحدث على السلوك الفاضل والأخلاق الحميدة وتنتهى عن عكس ذلك .

أمى : أضيئ الشمس

..كيف حالك يا أمى العزيزة؟
كيف تسير الأمور فى قريتنا
الجبالية البعيدة يا أمى؟ هل تجدین
دفئاً كافياً فى المدفأة القديمة
الوحيدة؟ هل ما زال موقدنا
الحديدى القديم يدخن ، ما زال لسان
الروث الجصف يجعل عينيك
رائعتين؟ هل كان الخشب الذى أتى
به صديق والدى القديم كافياً حتى
آخر الشتاء ، فلا تجدین الثلج على
أوعية الماء فى الصباح ؟ هل ما زال
جيرارك وبناتهم الصغيرات ذوات
الخدود الوردية طيبين ودودين ؟ ألا
يساعدوك ؟ إنى أعرف أن الأمور
صعبة عليك أه أعرف هذا وأحسه فى
قلبى.

أعرف كيف تكتمين أنفسك
وأنت تصغين لصوت الريح ولوقع
الأقدام فى الخارج . لصوت كل باب
يفتح ، على أمل أن ترى ابنك أو
ابنتك.

لكن أطفالك مبعثرون ، طاروا
من العش الدافئ حيث كانوا سعداء
معاً . وتتمتمين مع كل همسة
وصوت باب باسم ابن وابنه على
شفاهك ، لكن ما من مجيب فما
الهمس إلا حفيف احتكاك ملابس

الجاراة بالجدران أثناء مرورها
وصوت الباب بسبب الريح فأولادك
بعيدون عن عائلاتهم واهتماماتهم ،
نعم ، فالحياة منسوجة من خيوط
واهية سلسة يا أمى العزيزة.

فى الصال سيذوب الثلج على
المخدرات البيضاء ، سينساب الماء
ويندفع إلى أسفل ، وتظهر نباتات
الشبيط اللينة التى تجمعينها
للطبخ من حول العيون ومن على
مشارف القرية . وتنفذ خطوط
شمس الربيع الدافئة إلى الكوخ .
وتحملين الأغطية والملابس
والسجاجيد إلى الشرفة لتهويتها
وتخليصها من رائحة الدخان والجلد
الخام الشتوية ، على أمل أن بعض
أحفادك أو أولادك سيأتى فى زيارة.

وفى يوم النيروز سوف تخبزين
الكعكات التقليدية بالجوز والعسل
تجهزينها إلى أن يدق الأطفال بابك
واحداً تلو الآخر قائلين:

-جاء الربيع وجئنا نخبرك.

-وبعد ذلك-يالطبع يا أمى
العزيزة- تعطينهم كعكاتك الحلوة
وتدسين حفنة من الجوز فى الحقيبة
الجميلة التى يحملها كل منهم
حينئذ يقول لك طفل ذكى:
-أخبار طيبة فى الطريق.

إذا أخطأت في الأغنية كما أخطأت
في الحياة ولكنني أذكرك روحها
جيداً:

«الحياة مثل صرتين
على كتفك كخرجين
ملئ أحدهما بزهور البهجة
الجميلة

والآخر بضباب الندم المعتم
على كتفك فاراضعهما
وامش بين الناس
وليرك الكل تعيش وتترعرع
وبيسر تحمل الصرتين اللتين
تحملهما

ولو سألك أيهم بعض الهدايا
وقال: الصرتان مملوءتان للجميع
شارك الناس الطيبين المتعة
والندم
كشكركة الخبز بين مسابري
السبيل».

أُمى العزيزة لو كنت بجوارك
أكنت أجزؤ أن أحكى كثيراً مما يجثم
على صدري مما يهزنى بعنف لولا
هذا الورق الأبيض؟.

لقد ربيتنا على الصرص ، لا
لنكون مسرفين حتى في التعبير عن
الأحاسيس ، أن نكون حريصين في
إعجابنا ، أن نحجب توفير الكلمات ،
فغالباً ما يمكن فهم الأمر دون ثرثرة.

ويجربى نازلاً على العتبات
الحجرية ، وسوف تأملين أن تتحقق
الأمنية الطيبة للبشير الربيعي
الصغير وتنتظرين.

أعرف جيداً أنه ما من أحد على
الطريق يمكنه أن ينتظر مثل الأم،
انتظارا بأمل مهما طال الوقت.

أُمى الفقيرة ، كم أنت غنية في
تجارب الحياة ، حلوها ومسرّها . لم
تحك لنا أبداً عن سعادة عرفتيتها
بمهما كانت مزاراة مصير الشخص
فهى في النهاية كفيفة أن تعطيه ،
بالتأكيد ، ذلك الإحساس الرائع.

كانت لك سعادة عظيمة ، كانت لك
عزيزتى وإلا ما كان مصيرك مرا
هكذا . لقد اعتدت أن تغنى أغنية
بجوار مهادنا أنكرها لأنك غنيتها
لاخى وأخواتى وكنت أنا الأكبر ،
وربما لهذا السبب كنت الأسوأ خطأ .
فبعد موت والدى كان الكل ينظرون
إلى بأمل وتوقع ، فانا الآن أستطيع
أن أجلس على يمين الموقد - رجل
العائلة - على فقر تجاربي في الحياة
ارتكبت أخطاء تكفى عمراً بأكمله.

والآن فقط وأنا على مشارف
الخمسين أصبحت مماني أغنيته
وأضحى لى ، قيم النجاح والأخفاقات
القدرية التى فهمتها أخيراً أعذرينى

حقاً لقد رببتنا معتدلين فى كل شئ،
ربما نحن الذين لم نفهم تعاليمك
جيداً.

ولكن شيئاً واحداً أصبح واضحاً
على مر السنين ، ساعدتنا تعاليمك
على تحصين أنفسنا من مساوئ
ونقائص زماننا.

كلما فكرت فيك تذكرت طفولتى
، لن يبدو العالم أروع مما كان وقتئذ
، بالرغم من بعد الحياة وقتها عن
الصفاء، ولكن للطفولة - كما
تعرفين - عيون عجيبة خاصة واضحة
صافية.

الطفولة حدوده خيالية ، ولا بد
للحدود الخيالية من نهاية سعيدة ،
دائماً هناك هلاء الدين ومصباحه.

حالا سأبلغ الخمسين يا أمى، لكن
أحياناً أحس بالهنين إلى الجلوس
بجوارك وأخذ قطعة قماش «أحك»
بها مصباحنا النحاسى القديم
تصورى جنى طيب يظهر فجأة
ويقول:

- ييا تأمر يا سيدى ؟ أنا أسمع
وأطيع.

ماذا أسأله ؟ يبدو أننا نحتاج
لكل شئ يا أماء : الخبز والملابس
لكنها كلها متشابهة ، هناك شئ واحد
سأطلبه : العودة إلى الطفولة.

هل هذا صعب جداً ؟ سأتى إليك
وتسترجعين بابتسامة وتنهيدة ،
تتحدثين عن تلك السنين فلديك
الموهبة أن تعيدى إليها الحياة ، أتى
إليك وأقول:

- أهلاً يا أمى.

- وتتحدثين بى ورأسك على
صدرى وأرى وقتها كم كبرت وكم
أصبحت أنت هزيلة نعم ، حينما كنا
أطفالاً ونستقيظ فى منتصف الليل
ونطلب منك:

- أماء ، فلتضيئ الشمس ، اجعلى
النهار يأتى.

- ها أنا ذا على مشارف القرية
التي تعلو مستوى سطح البحر
بألف وستمائة متر بالإضافة إلى
ثمانية وعشرين نتيجة لانخفاض
بحر قزوين كما يقولون ، أتيت إلى
بيت طفولتى بحيث عيون الماء
مألوفة، وإن كانت تبدو أقل ماء ،
إلى الممرات المجهولة الآن، كل
المنحدرات ، الأشجار والجداول .
المكان الذى خطوت فيه عتبة الكوخ
داخلاً العالم.

أعرف أنه بعد أن تأخذينى إلى
الحجرة الدافئة المريحة ، ستخرجين
إلى التزواق وتقفين هناك قسائلة
للجيران والأقارب وربما عابر سبيل

بالصدفة.

تحدثوا به ، لكن لو جاءكم الخير فلا تنسوا أبدا أن تحدثوا الناس به . ولا تتعجلوا يا أطفالى أن تصلوا فى الحال على مقابل ما قدمتم من خير . حتى لو لم تدركوا قيمة أن يعود عليكم جزاء ما فعلتم ، فإن أولادكم وأطفالهم سيحسون به ، هذا شئ أكيد .

كانت سنوات صعبة ، سنوات طفولتكم تلك . كانت سنوات حرب ، وكانت صعبة على الكل ، وكما كانت أصعب بالنسبة لى مع المرحوم أبىكم وأربعة أطفال صغار . ووجد الناس الطيبون الذين كانوا يعرفون والدكم وظيفة لى فى ملجأ أطفال ، كمرشدة عمل . كنت أعلم الأطفال تنظيف و« نقش » الصوف ، وفزله خيوطاً وصيغها وحياسة الجوارب الصوفية التى كنا نرسلها إلى الجبهة شهريا .

كم أوت تلك الملاجئ من أطفال ، كم ساندبتهم حتى وقفوا على أقدامهم ما زلت أقابل بعضهم وما زالوا ينادوننى ، أماء ، بالرغم من أن أكثرهم أصبحوا الآن أجدادا وجدات . لقد كانوا حكماء ، هؤلاء الناس الذين فكروا فى تلك الملاجئ فى القرى الكبيرة على طول البلاد ، فقد كانوا يفكرون فى مستقبل أفضل

- ابنى الأكبر جاء اليوم ليمضى معى بعض الوقت ، تعالوا شاهدوه ، سنكون مسرورين جدا ، لقد صنعت بعض الكعك بالتوايل .

فليأت الجيران والأقارب والأصدقاء ، هناك الكثير لنستعيد ذكرياته ، بالرغم من أن أفضل الأشياء أننى أحب أن أنصت إليك يا أماء ، عودى بى إلى طفولتى يا أمى . ها هو الليل لكن الضيوف لم تتفرق . أقران ولدك ما زالوا ينتظرون الذكريات ها هو الليل وأريد أن أصرخ :

- أماء ، أضيئى الشمس وتضيئيتها وأعود طفلا ثانية ...

المسافر الطيب

أطفالى الأعزاء ، ماذا أحكى لكم عن طفولتكم ؟ كانت نعومة سنوات الحياة كجدول جبلى يشذب حجارته . تلك السنوات التى كما لو كنا نراها من خلال شبيورة الصباح المبكر ، إننى أتعجب أحيانا كيف حدث هذا إلى ولكم . ولكننى يا أطفالى تعلمت من حياتى درسا واحدا : يجب على الإنسان أن يفعل الخير ، الخير فقط ، وللتذكروا ، لو فعلتم الطيب لا



كان يثير الشفقة بملايسه المرتقة
وأقدامه الحافية وظل محمد يقول:

- أمى ، أماه ..

كان هذا كل ما يستطيع أن ينشج
به.

- ماذا حدث ؟

- أمى ، عزيزتى ، سامحينى

- ماذا حدث ، هل أصابك أذى ؟

- لقد فقدت .

- هل فقدت ؟

لم أفهم لتوى .. وعندما فهمت
لمت نفسى لانتماثى الطفل على
بطاقات خبزنا ، كما كان لنا لثلاثة
أيام ضمته بين ذراعى وبكى معه .

- لا تغضبى منى يا أماه ، لم أكن
أقصد أن أشعل ذلك ، كنت أمل أن
يكون هناك تعويض ، سامحينى يا
أماه .

- تناولت قبيعة أبيكم الفرو
الطويلة من على الحائط وأخذتها إلى
جار لنا فأعطانى مكيالا من دقيق
الذرة مقابلها ، وبخزت أربع فطائر ،
واحدة لكل منكم ، لكنكم رأيتم أننى
لم أصنع لنفسى شيئا فأعطانى كل
واحد منكم نصف ما معه ، فأكلت
إحدى القطع واحتفظت بالباقى
لليوم التالى ، وذهبنا إلى الفراش .
لم يأت النوم ، كان القمر ساطعا من

وكم من خطابات تسلمناها من
الجبهة تشكرنا على تلك الهدايا
كسنت كل بنت تضع فى طرف
الجورب خطابا تقول فيه من هى
وتسأل عما إذا كان أحد قد شاهد
أباها على الجبهة . وتصوروا إحدى
البنات من « ديجاليك » كان اسمها
« كيزيايك » جاءها خطاب بالفعل من
أبيها ، كان أحد الرجال قد أعطاه
الجورب والخطاب . ولكم أن تتخيلوا
البهجة التى كانت فى ذلك ، لقد
رفعنا العلم ، وعقدنا اجتماعا على
شرف الحادث العظيم وأراد مديرنا
الأعرج « شيخشا » أن يتحدث لكنه
اختنق بالبكاء فى منتصف الكلام .

بعد إعطائكم الفطور فى الصباح
كنت أذهب إلى العمل وأنتم إلى
المدرسة عدا الصغيرة « بيكى » وكنت
أظل قلقة طوال الوقت أفكر فيما
أقدمه لكم للعشاء . كنت أخلط شيئا
من البطاطس والشبيط ويقلقنى
كيف سأملأ معداتكم الجائعة فى
المساء .

وحدثت ذات مرة مصيبة حقيقية
عندما أرسلت « محمد » الصغير
ببطاقات الفيز وعاد يبكى وينشج
ويفرك عينيه بكلتا يديه ويرتعش
بالرغم من أنه كان يوما حارا ، لقد

النافذة مكونا رقعة بيضاء كاللبن .
وفجأة حجب شيء كثيف الضوء
، وكان هناك نقر خفيف على النافذة
. قفزت فرأيت وجها رهيب المنظر
، كان كث اللحية لكنها لم تكن اللحية
هي المرعبة ، بل العينان ..

تستقران في تجويفين عميقين ،
بانستين متهورتين .

كنت مشلولة من الرعب ، انفرج
الشباك محدثا صوتا ، حينئذ
أيقظتك أنت الأكبر ، ورأيت أنت
أيضا اليد العظيمة الطويلة لرجل
عجوز تتمطى في الفراغ .

- افتح الباب يا أماء دمي
ضيفنا يدخل .

أشعلت المصباح وفتحت الباب
ودخل رجل في معطف شاحب اللون
يتكئ على عصا:

- لا مؤاخذه ، سأذهب فوراً
ولتسامحيني لازعاجك ، ولكن لا
تدعيني أموت من التضبور جوعاً ،
سأذهب ، فقط أعطني من فضلك
شيئاً له رائحة الخبز .

- إيه ، ولكن عزيزي ، أيها
العجوز الطيب ، نحن أنفسنا ..

فقاطعتني أنت:

- أماء ، أمى أعطه نصفين من
الانصاف الثلاثة التي تركتها

للفطور ، من فضلك يا أمى .

- لا تدعيني أموت ، ستجازين
على عطفك .

- أمى أعطه نصيبنا .

كان صوتك ينزف ، كنت تريد
مساعدة العجوز بشدة لدرجة أنني
استسلمت ، وأجلسته على ملاءة
بجانب المدفأة وأعطيته نصفين من

فطير الذرة وطبق حساء عدس .
توقعت من الرجل المتضور أن يبادر
بالتهام الطعام ، لكن لا ، تشمبه أولاً
، وأخذ نفساً عميقاً . كان من الواضح
أنه يضبط نفسه حتى لا يسمح لها
بالهجوم على الأكل في جشع ،
وارتطمت الملعقة الخشبية بالطبق .

ويبدون تعجل أو تلهف أكل الطعام ،
مسح فمه وشاربه بمنديل ، وهز
لحيته واستلقى على الأريكة كما لو
كان يشعر بالإغماء . وضعت ملاءة
تحت رأسه وراح في نوم هائى ولكن
أنا وأنت يا بنى لم نستطع النوم
لوقت طويل . مكثنا ننظر إلى ذلك
الغريب الذي يبدو الآن كساحر حكيم
. نعم ، كانت أياماً صعبة حتى أن
الساحر ما كان ليجد ما يأكله . وقلت
أنت:

- أعتقد أنه عجوز طيب جداً .

- من يستطيع الحكم؟ .

- ربما أستطيع أن أصنع له شيئاً
من بظلولنا أتبيك.

بدأت إخراج ما فى الجيوب :
بعض الأحجار الملونة ، نبله خشبية ،
عظام رسغ ، قطعة نقود قديمة كبيرة
وأشياء أخرى عديدة . وبدأت أحل
رقعة بجانب الجيب . وتصوروا ،
خلفها وجدت بطاقات الخبز التى ظن
محمد أنه فقدوها . وكانت الفرحة
ساعتها لا توصف ! أمسكت بالولد
النائم . عانقته وقبلت خدوده التى
ملحتها الدموع . وأخذ الولد
« يبريش » ويفرك عينيه الناعستين
فى ارتباك وحيرة.

- وجدناها ، وجدناها.

وامتلأت الحجرة بصيحاتنا
البهيجة وبدأنا نرقص .. وبالطبع
كان محمد الصغير أكثرنا سعادة .

- أمى ، أماه هل تحبيننى.

- بالطبع نعم ، بالطبع يا حبيبى
أذهب إلى المحل وأحضر الخبز.

وأخذ محمد البطاقات وجرى
بالشورت غير مهتم بأن يلبس ،
وتبعته أنت.

وانتظرت فى البيت مع البنات
ذلك الرغيف الدافئ البنى « المفقع »
الوجه . كانوا يصنعون خبزاً جميلاً

- ماذا لو كان ساحراً حقاً.

وقفزت وأخذت مصباحنا
النحاسى القديم من على الرف .
ونمت به حتى الصباح . وغفوت أنا
قرب الفجر وعندما استيقظت كان
زائرنا قد رحل . وعلى الملاء كانت
قصاصة ورق مطوية وجرئت أنت
وفتحتها:

- ماذا هناك يا بنى ؟

أعتقدت أنه كتب شيئاً عن نفسه
أو ربما كلمة شكر . قلت والدهشة فى
صوتك وعلى وجهك:

- أبيات من الشعر.

- عم تتحدث ؟

- إنها شعر سليم ، عن الخبز .

- عجوز غريب تصور: تتقدم

الحياة بالناس ثم يكتبون الشعر.

- أتعرفين يا أماه . إنها أبيات
جيدة . سأأخذها إلى الصحيفة
المحلية.

- لن يفنيك الشعر من الجوع .

ماذا يمكن أن أفعل ؟ ستذهب إلى
المدرسة جائعاً . وملابسك كلها ممزقة
. تنهدت وتناولت بظلولن ولدى
الأصفر « محمد » المرتق.

- هل يستحق الفسيل أم ألقى

به ؟

- وماذا سيلبس ؟

فى تلك الأيام . أما أيامنا هذه فليس لدينا مثل ذلك الخبز أو ربما لم نعد نلاحظ ذلك.

أتذكر عندما كانوا يخيزون فى طرف القرية كنا نشم الرائحة فى الطرف الآخر ، كان خبزاً رائعاً ولم يكن الأطفال فقط ينظرون إلى الأربعة بعيون نهمة ، بل نحن الكبار كذلك ، وبينما كنت أنتظر الأولاد ليأتوا بالخبز ، جهزت ابنتى الكبرى «فاطمة» للمدرسة.

فجأة سمعنا وقع حوافر وجريت إلى الخارج.

كان رجلاً بكامل ملابسه ، ذاعينين زرقاوين ، وأنف صقر ، يركب فرساً ، سيفه مشهور من حزامه ، وتحته منبت مسدس.

- هل سائلة أكا أبو بكر تسكن هنا؟

- نعم نحن هنا .

فقال الراكب:

- تعالى إلى هنا لو سمحت

وبسرعة ترجل ومن جناح السرج أخذ حقيبة مزدوجة ومن نصفها أخرج زقا .

- هذه جينة لبن الغنم

- لمن هذه؟

- لأمواخذه ، ربما تكون قد

أخطأت

- لا مواخذه ، ربما زوجة أكا أبو بكر؟

- نعم ، وهؤلاء أولاده ، الاثنان الآخران ذهباً لإحضار الخبز.

كنت مضطربة لدرجة أنني تحدثت بدون وعى ، ثم أخذ حقيبة وأعطانى إياها:

- وفى هذه بعض دقيق الذرة والسجق المجفف.

- وهذا ، هل هذا لنا؟

- نعم، لكم . أتمنى لكم صحة طيبة. وطوى الحقيبة المزدوجة وامتنى حصانه بخفة وكان الحصان كاليابى ينتظر صاحبه.

- أزال الله عنك متاعبك أيها الرسول الطيب ، لكن قل لى أرجوك من أين أتى كل هذا؟

- إنه دين ، أرسله أبى لكم . لقد أنقذ زوجك والدى من مشنقة رجال دينيكين وتلك الأشياء لا تنسى.

- ولكن ألا يعرف أن زوجى قد مات؟

- نعم يعرف، ويعرف أن الأمور صعبة بالنسبة لك.

- أشكرك .

- بل أنا أشكرك.

وقفز رسول الخير خارج الحوش

بفعلوا لك مقابل تلك الأبيات التي تركها الغريب على وسادته . واشترينا بها قماش «بفتته» وصنعنا سروايل جديدة لمحمد . ومرت سنوات عديدة منذ ذلك الحين يا أطفالى ، ولكن لا يمكن أن أنسى ذلك الغريب ، والأشياء الطيبة التي بدأت تتوافد على بيتنا بعد زيارته . لم أره بعد ذلك أبدا . حقا ، أعتقد رأيت صورته مرة فى إحدى الجرائد الكبيرة فقط بدون لهية ، كأحد المرشحين للسوفييت . لست متأكدة إن كان هو بالضبط ، لكن العينين كانتا شبيهتين تماما : عينين طيبتين ودودتين .

شهرزاد من شيشيلى

لدى خشب يكفى الشتاء يا أطفالى ، وحتى ما يفيض ، أرسلت لى شهرزاد حمولة جرار . من شهرزاد ؟ الكل يعرفها هذه الأيام . إنها شخصية مهمة ، رئيسة المزرعة الحكومية فى السهل . الغابات كثيرة هناك ، رغم أنهم فى الواقع يحاولون كثيرا منها إلى مزارع نباتية- إنه لمن المؤسف أن نفقد الأشجار مع كل هذا شهرزاد من شيشيلى . الكل يعرفها الآن ، لكن قبل ذلك .

كالريح على حصانه الأبيض ، ووقفنا نحقد فى تلك الثروة غير المنتظرة فى سعادة غامرة ، وبعد ذلك أتيت أنت وأخوك ، كنت تحمل رغيفا مستديرا كجزء من الشمس جعلنى أذكر أغنية:

« الشمس طلعت على التلال ، ذهبية كالرغيف المدور » .

وكان «محمد» الصغير يحمل قطعة التعويض .

- لم أكلها فى الطريق يا أمى ، أتيت بها إلى البيت لتكونى سعيدة وأنت تريتنى أكلها .

- أشكرك يا بنى ، والآن كلها وأنا سعيدة . لكن تعالوا إلى البيت ، تعالوا انظروا .

هكذا كنتم يا أطفالى ، كيف أشرح كل هذا ؟ ربما تكون خرافات لكن ماذا لو أن كل هذا حدث لأننى لم أنكر الغبز على الغريب فى الليل ؟ .

نعم يا أطفالى ، فالخير جذوره وفروعه تصل إلى الشمس ولا تقع على الأرض أبدا .

هل تذكرون أيضا كيف نشرت تلك الأبيات التى بدون توقيع فى الجريدة ليقرأها كل الناس ؟ لقد كانت كلمات جيدة . وطلبوا منك أن تذهب إلى مكتب الجريدة حيث

كبرت صغيرة كانت جميلة
كعروسة اللعب ، أقصد عرائس
اللعب التى كانت قبل الحرب ، كانت
أجمل كثيرا من تلك التى ترونها
الآن.

أذكر حينما جئت لأعيش معك يا
بنى الشتاء الماضى ، نظرت فى
محلات اللعب وتعجبت، كانت هناك
عرائس كثيرة ، لكن كان لها تلك
الوجوه المنطفئة العابسة ، يمكنك أن
تقول القبيحة . كنت أود أن أتوقف
فى المزرعة الحكومية أثناء عودتى
بعروسة لحفيدة شهرزاد . نعم أتذكر
كما لو كان بالأمس ، كيف جاءوا
بشهرزاد إلى ملجأ الأطفال وهى
تصرخ . ولم يكن قد مضى وقت
طويل منذ أن تسلمت أمها ما يفيد
موت زوجها على الجبهة حتى ماتت
من الأسى كما يقولون- سمعت أنهما
كانا مخلصين لبعضهما جدا- كانت
أمها خرساء ، لكنها أحببت ، وفجأة
بدأت تتكلم- أشياء غريبة تحدث فى
هذه الحياة . ولكن الحرب كومضة
خاطفة داهمت هذا الزوج المحب
وتركت ابنتها الصغيرة يتيممة
. كانت صامئة ، كنوع من الانغلاق ، لا
تختلط بأحد ، لا تصاد أحدًا حتى
يكاد المرء يظن أنها هى التى داهمها

البكم.

كسأنت تجلس طوال الوقت على
سريرها لا ترفع عينيها ، صامئة .
وتنام منكشمة متكوررة كالقطة
الصغيرة . وكان على أن أعطيها
بملاءة . كنت أجلسها بجوارى أثناء
العمل ، أود أن أخرجها من أفكارها
العزيزية . كنت أمل أن تهتم بالعمل
وتشارك فيه . لكن لا ، كانت تنكمش
كما لو كانت خائفة ، كانت دائما
متلغطة كما لو كان الأطفال الذين
يحيطونها بالعطف يريدون إيذاءها .
و ذات يوم اختفت . نعم ، لم تكن
فى أى مكان قريب ، بحثنا فى كل
مكان ، كل المباني ، وسألنا فى القرية
التي جاءت منها شهرزاد ، لحسن
الحظ لم تكن بعيدة . استفسرت من
جيرانها وأقربائها ، نظرت فى
الكوخ المهجور ، لا شئ ولم يعرف
أحد أى شئ منها ، مرت بخاطرى
أفكار مرعبة . وبعد أن فقدت كل أمل
توجهت إلى البيت ، الطريق يمر بين
المقابر وكان القمر ساطعا . وفجأة
سمعت صوت بكاء . نظرت وإذا
بشهرزاد جاثمة بجوار قبر حديث
كانت الطفلة تنشج بمرارة:
. - أمى العزيزة ، أماء تعالى إلى .
لماذا ذهبت ؟ لن أسئ إليك ثانية

أبدا ، فقط عودى عودى..

- هل كنت تعرفين أمى ؟

- نعم كنت أعرفها جيدا

وكذبت على أمل أن أطمئنها.

- أليس كذلك حقا ، إنها كانت

أحسن أم فى العالم؟

- نعم يا حبيبتى ، أحسن أم.

- أنا كنت مسيئة إليها ، وهى

ذهبت وتركتنى ؟

وكانت « تفرك » عينيها براحتيها

الصغيرتين.

- كلا يا صغيرتى ، لم تكونى أنت

المسيئة إليها.

- من إذن ؟

- الحرب ، تلك الحرب الملعونة

ثلاثاً.

- لكن الحرب لم تكن هنا.

كلا يا عزيزتى ، ولكنها تصل إلى

أماكن بعيدة لتؤذى الناس.

- وأمى ألن تعود ثانية أبدا ،

أبدا ؟

- لا تصرخى يا عزيزتى ، سيعود

والدك إلى المنزل قريبا.

كنت أحاول تهدئتها ، كم كانت

صغيرة على أن تتحمل كل هذا الأسى

والحزن.

- كلا بابا لن يعود كذلك ، تسلمت

أمى خطاب يقول إنه مات على

الجبهة.

- ولكنهم أحيانا يخطئون ، وأنا

متأكدة من أنه سيعود.

كنت أريد إقناعها بذلك.

- وأنت تعرفين أن الجبهة برد.

هل تريدن لبابا الدفء وأن يعود

إلى البيت بسرعة ؟

- بالطبع نعم ، إنه أبى.

- تعالى معى الآن يا صغيرتى ،

تعالى يا صغيرتى فقريبا سيحل

البرد والظلام سأعلمك حياكة

الجوارب وسيمكنك إرسالها إلى

والدك.

- وقفازات لتدفئ يديه.

- هذا صحيح ، وقفازات أيضا.

وعدلت شالها وألبستها المعطف

وأخذت يدها وعدنا إلى البيت . هكذا

أصبحت أنا وشهرزاد صديقتين بعد

ذلك كانت تسعد كثيرا حين مجئى.

- لقد مكثت أنتظرك ، وأنتظرك

، يا خالتي الطيبة العزيزة.

هكذا كانت تنادينى ،حتى الآن

عندما أذهب إلى المزرعة الحكومية

تصيح:

- خالتي الطيبة جاءت.

وكان أن أصبحت شهرزاد

شخصية حساسة جدا ، وتعلمت

بسرعة . حاكت بعض الجوارب

السميكة الملونة والقفازات ، كانت دافئة جدا ، وأرسلتها فى طرد إلى الجبهة ، وبدأت تتوقع خطابا .

- لا خطاب من بابا اليوم أيضا .

- سيأتى يا عزيزتى ، سيأتى! .

وحاكت شهرزاد عددا كبيرا من الجوارب والقفازات اللجبة ، أملا فى خطاب من أبيها . ولكن لم يأت شئ فقدت معنوياتها وفقدت شهيتها ووزنها وكنت تراها تذوب تدريجيا . وكانت لديك يا ولدى فكرة . هل تذكر؟ .

- نعم أذكر ، كتبت لها خطابا من أبيها .

هكذا تسلمت خطابها ذات يوم . لم تكن تعرف القراءة بعد . كانت ما زالت فى الفصل الأول وهكذا قرأته لها إحدى البنات الكبار . ودارت شهرزاد بالخطاب ليراه الكل .

- أبى كتب لى ، انظروا! .

- مبروك يا شهرزاد .

وكانت تنحنى انحناء مجوز وتقول:

- شكرا .

أذكر إننى استعنت بك مرتين يا ولدى . وبعدها لم نكن فى حاجة إلى الكتابة بالمرة ، المعجزة حدثت . كنا نجلس تحت السقيفة فى حديقة الملجأ

. البنات يغلزن الصوف وأنا أصبغ الخيط . وإذا بجندى مجهود يحمل حقيبة يدخل . وقف فى منتصف الحديقة وتلفت حوله وعيون مائتى طفلة تنظر إليه متوقعة .

- بابا! .

كانت صرخة مدوية تردد صداها من الحوائط . وفى الوقت المناسب أمسكت شهرزاد حيث كان قد أغمى عليها .

- بابا! .

- صاح الأطفال الآخرون كما لو كانوا يتذكرون شيئا عزيزا نصف منسى . كان قلبى يخفق ، على وشك الانفجار . وأنسكبت دموعى وتخدرت خدودى . تقدمت إلى الجندى ، حاملة الطفلة فى يدي ، وانفجرت فى البكاء . فالتقى الحقيبة وأخذ الطفلة فى ذراعيه .

لقد كان أباهما حقا .

الشيطان أعمى

نعم يا أطفالى كانت الحياة صعبة فى تلك الأيام بالنسبة للناس فى كوباتش . لم يبذروا أو يحصدوا فى مواسم الحصاد أبدا . لم يقوموا بتربية الماشية مثل الناس فى القرى المجاورة . كان عملهم التقليدى

لقرون هو استخراج الذهب . لكن فى ذلك الوقت العصبى تحولوا إلى الأرض وبدأوا يزرعون البطاطس فى حقولهم المسيجة . كانت بطاطس جيدة تلك التى كنا نزرعها ، كانت بيضاء لذيذة . كانت كل عائلة قد أعطيت قطعة من الأرض بالقرب من القرية . وكانت تلك القطع على جانب الجبل تشبه الرقع فى ملابس الأطفال ، وكقاعدة كنت أنت يا ولدى الذى يذهب ليرعى حقل البطاطس الذى يخصنا ليلا . كان كوخك أفضل الأكواخ . تذكر ؟ إلى أن جاء يوم مزقه دب وحشى .

لست أدرى يا أطفالى إن كنتم تذكرون ما أود الحديث عنه .

لم تكن فى البيت يا ولدى ، كنت قد أرسلتك مع الأطفال الآخرين إلى مزلقان « ما مد - كالا » حيث اعتادت قطارات الجيش أن تمر . كان يمكنك أن تبادل الثمار المجففة والجوز بأكياس صغيرة من السكر . فقد أتيت بأحد عشر منها وبقيت لمدة طويلة . حسنا ، قررت أن أفضل شئ - حيث أنك غير موجود - أن أبعث « محمد » ليرعى حقل البطاطس وليأخذ ابن الجيران بصحبته ، هو طلب أن يذهب لم يكن قد ذهب إلى

هناك أبدا . وجمعوا بعض الخشب ليصنعوا نارا ويشوون البطاطس . يقولون : « إن الشر ولد أعمى » فهمت حينئذ . ماذا تعنى تلك الحكمة .

فى الصباح ذهبت إلى الحقل لاستخراج بعض البطاطس ، كانت لا تزال صغيرة لكننى كنت أريد عمل بعض الشورى . وعندما رانى « محمد » بدا مضطربا كما لو كان لم يتوقع رؤيتى ، وبدأ يتشبهت بى . لكن نظرت له كان فيها إحساس بالذنب .

- أماء ، أمى الفريزة إننى أحبك كثيرا ، كثيرا ، كثيرا ،

كان يتفادى مقابلة عيني .

- إننى مسرورة لذلك يا مزيلى ، ولكنك تبدو خجلان على نحو ما .

فأصابته الدهشة .

- هل ترين ذلك ؟

- بوضوح جدا .

- أمى ، لن توبخينى ؟

- هل أتيت شيئا مرة أخرى .

سألته ونظرت إلى ابن الجيران الذى كان يقف بجانبه ، عيناه فى الأرض رافعا بنظرونه بيديه .

- قولى إنك لن تعنفينى .

- على ماذا ؟

- قل ، لماذا لا تخبئها أنت؟.

ووكز ابن الجيران بكوعه.

- سناقول إذن. أمس سرقتنا نصف

شكارة بطاطس.

ونظر الصبي إلى الأرض.

- سرقتم ! كيف؟.

- أماء، لم يكن هناك أحد.

- حسناً ، وماذا أيضاً؟.

- لم يرانا أحد.

- وهل تحسبون أن هذا يجعل ما

فعلتم صحيحاً ، أتدرون؟ أمدركون
أنتم لما فعلتم؟.

- أماء، هو الذى أراد ذلك.

- لا ليس كذلك أنت نفسك قلت :

(هيا نأخذ قليلاً) لا أحد يراقب هذا
الحقل.

قال الصبي ذلك فى صوت يشبه

صوت الحصان ، ربما من البطاطس
نصف النينة.

- لا لم أفعل.

- وتورد وجه «محمّد».

- لحسن حظك أن أباك ليس هنا

،كان سيعطيك ما تستحق . سرقة!.

نعم لم يكن أبوك ليسكت على أى

شكل من أشكال عدم الأمانة

وبالنسبة للسرقة كان يقول عادة:

(فلتكن أيديكم بمعيدة عن أشياء

الأخرين .. حاولوا أن تحصلوا على

حظكم ، إذا لم تستطيعوا فاقنعوا بما

معكم . كلوا مما حصلتم عليه بعملكم .

أسوأ شئ أن تنظر إلى ما ليس لك).

وقال الصبي الآخر:

- لا تضربيه ، لم تكن غلطته ،أنا
فعلتها.

- ألا تخجل من نفسك.

-أنا خجلان جداً يا خالة مانابا.

-هل هناك ما هو أبشع من

السرقة ؟ يا مزيى ماذا سيقول

الناس . سيقولون إن الأطفال بلاأب
أصبحوا فاسدين .. ياللعار!.

حملت الشكارة وقلت:

-والآن ، تعالوا أرونى من أين

أتيتم بها . أى رقعة بطاطس

خربتموها ؟ ما زالت البطاطس

صغيرة ،كان يمكن أن تنمو أكثر.

تقدمانى فى الطريق وتبعتهما .

طوال الوقت كنت أفكر ، إنه لكى

يأتيا بكل هذه البطاس الصغيرة لابد

وأن يكونا قد حفوا أرضاً كثيرة

ياللعار ! لو أن أصحابها رأونا فلن

ننجو من الفضيحة . ولو كانوا

سيئى الخلق فستنتشر القصة فى

المنطقة كلها .ماذا يمكن أن أفعل !

كيف أعذر نفسى ؟ وشعرت بضعف

ركبتى ، تسلق الأطفال المتحدر

وتبعتهم إلى حقل مسيج ووقفا

صامتين مطاطي الرأس.

- هذا هو الحقل.

نعم، فالحقل مقلوب ، لا يبدو أن
نبتة واحدة قد تتركت سليمة ، كما
لو أن قطيعا من الخنازير البرية كان
يسرعى طول الليل . واضح أن
للصوص الصغار كانوا في عجلة
فكبار وصغار البطاطس متناثرة
هنا وهناك .

ولكن أين أصحاب الحقل ؟ تلفت ..
أه يا عزيزي ، من من الأصحاب يمكن
أن يكون هناك . ببساطة انهرت
وجلست إلى الأرض .. لكنني شعرت
بالراحة قليلا ، علي الأقل لن
يصيبني العار .

نظرت إلى « محمد » الواقف
هناك في بنطلونه القصير وقميصه
الباهت المتسخ بانسا جدا ، يدعو
للشفقة . جلست هناك . لست أدرى
هل أصرخ باللعنة ؟ أم بالضحك ؟
وفي النهاية ضحكت من خلال
الدموع وحملق الطفلان في مرتبكين
، لا يد أنهما ظنا أنني قد فقدت
صوابي .

- أيها التعيسان الصغيران
التيافهان ، هذا حقلنا نحن .

- أماء سامحيني من فضلك لن

أفعلها ثانية أبدا ، أبدا .

- انتحِب « محمد » وأخذ ابن

الجيران ينشج .

- وسامحني أنا أيضا ، حسبت

حقلكم بجوار حقلنا .

- حسنا أسامحكما ، والآن فلنجمع

ما تركتم من بطاطس ، لا يمكن أن

نتركها تفسد . أعتقد أنكما كنتما في

عجلة ليلة أمس .

- كنا خائفين .

- بالطبع ! ، يا عزيزي لقد أفسدتم

الحقل كله .

- لا ليس كله ، انظري هناك صف

سليم تماما ، وآخر ، وآخر ، ومن

الأفضل جمع البطاطس في النهار .

فقال « محمد » :

- نعم أفضل جدا فنحن نرى

أفضل ، وأنت تعرف لماذا .

- لماذا ؟

- نحن لا نسرقها ، نحن نجمع

بطاطسنا .

وهكذا جمعنا كل البطاطس ،

كانت تملأ شيكارتين تقريبا ، وكنت

أعد بالعشرة ، نعم يا أطفالى ليس

عبثا قولهم :

الشیطان ولد أعمى .

المهر الأبيض

كان الاسم الشائع لواندى»

سوليفيكنت» العميق الذى تقع عليه قرية كوباتشى هو وادى الطواحين ،كان هناك نهر يجرى فى الوادى- طبعاً تعرفون ذلك . هذه الأيام لا أحد يتسلى إلى هناك ليس فقط لأنه لم تعد هناك طواحين فقيرة الفخار المشهورة سوليفيكنت قد ذهبت أيضاً وكذلك قرية «أموزجى» التى كانت تطل على سوليفيكنت من تبة عالية وكانت الأخيرة قرية صناع المعادن الذين ما زالوا يحتفظون بسر «صليب دمشق» الذى فقده العرب منذ زمن بعيد الآن انتقل الناس الذين كانوا يسكنون تلك القرى إلى السهول بالقرب من طريق الحياة الجديدة.

يقولون إن الناس قديماً فى القريتين كانت بينهما اتفاقية غير مكتوبة على ورقة بل محفورة على حجرين مسطحين بالرغم من أن أحدا لا يعرف مكان الحجرين الآن وطبقاً لتلك الاتفاقية المكتوبة بالخط العربى فإن صناع الفخار فى سوليفيكنت وعدوا بإمداد مواطنى أموزجى بكل ما يحتاجون من أوان بالجان وفى المقابل يطلق لهم أهل أموزجى بنديقية أو شعلة نار لتحذرهم إذا أصابهم وابل السيل

،وكان سكان أموزجى من موقعهم فوق صخرة شامخة يطلون بشكل جيد على وادى شيرين الذى يعلو وادى سوليفيكنت كثيراً وكانوا يستطيعون رؤية الخطر فى الوقت المناسب ويحذرون جماعات سوليفيكنت ليجتمعوا أطفالهم ويتسلقوا المنحدر ومرة أخرى يحمل النهر القرية معه بعناد ومرة أخرى يعود الناس بعناد يعيدون بناءها لا أحد يعرف أى عناد سيتغلب ولكن أنا كنت مسؤمنة أن عناد الناس سينتصر لأنه فى الثلاثين سنة الأخيرة أصبح النهر هملجدا حتى أن نيو له لم تعد تصلهم.

لكن ليس هذا ما أريد الحديث عنه.

فى هذا الوقت كانت هناك سبع طواحين فى الوادى وكانت جماعات كوباتشى تحمل حبوبها إلى هناك لتطحنها على ظهور الخيل أو الصمير أو على ظهورهم . لا أكدر الآن على أى نحو كيف حصلنا على شيكارة من شعير الماهر . سكان الجبال لا يزرعون شعير الماهر وحبوب الماهر أكبر مرتين من حبوب القمح ولها مذاق الجوز فيمكنك أن تغلبها على لوح الشواء وتقهقها للأطفال

بدلا من الخبز.

حسن وذات يوم قسمنا تلك الشيكارة أنا وأنت يا بنى ورفعنا النصفين على ظهورنا ونزلنا إلى الوادى لطحنها . نعم بالطبع لا تملك إلا أن تتذكر ذلك كنت نحيفا وقتذاك جلدأ على عظم بينما الآن لا أحب أن أقولها لا تبقى هكذا- ماذا تدعى؟

-جيمباز يا أمى أقوم ببعض التمارين من وقت إلى آخر .
- تخرج للتنزه فى سيارة بدلا من المشى.

- لقد أقلعت عن طريقة المشى لكن استمرى فى الحديث يا أمى نحب أن نسمعك.

- نعم يا أطفالى الوقت يجرى وكلنا يسرع إلى مكان ما أملين فى شئ ما يريدون شيئا ما لكن ماذا ؟ لا أحد يعرف لكنك لا تاكل هذه الفطائر بالشبيط تلك بالبصل.. نعم ماذا كنت أقول؟

- حسنا طحنا شيكارة الشعير وبدأنا طريق العودة من السهل ما اسهل النزول إلى الوادى لكن التسلق ثانية موضوع آخر كنا قد صرفنا بعيدا وإذا بك تصيح:
- انظرى يا أماه شبه كتلة من

الضباب.

وحدقت من خلال فروع السنط حيث كنت تشير . لم يكن ضبابا بالمره كان مهرا أبيض واقفا بجوار العين .. سهل فجأة وطوح رأسه ووثب قليلا على قوائمه الظلفية ثم سهل ثانية كما لو كان ينادى شخصا ما، يبحث عن شخص ما .

ذهبا إليه لم تقترب جدا حتى لا نخيفه كان مهرا جميلا ذا ذيل طويل رقيق وخفيف ومعرفة مهبدة حول رأسه فجأة نظر إلينا نظرة حصيفة بعينين حزينتين كما لو كان يسأل «هل انتم أناس طيبون أم أشرار» . حينئذ قلت أنت ما أدهشنى كثيرا:

- لا تخف نحن أناس طيبون .

فسألتك

- إلى من تتحدث؟

- إليه، المهر يا أمى ، يطلب منى أن أذهب إليه.

- اذهب إذن ، إذا كان هذا ما يطلبه . هو بالتأكيد تخلف عن القطيع.

توقعت أن يهرب المهر ويحاول الاختفاء لكن لم يحدث شئ من هذا ، وإذا بك تربت على رقبته . ويريح رأسه على كتفك وأخذت قطعة من

الغيز من جيبيك ، بللتها من العين
وبدأت فى إطعام المهر . كانت عيناه
تشعان رغبة فى الاستطلاع ، ليس
خوفاً ، ومكثنا هناك حتى بدأ الغسق
يحل وببساطة لم أتمكن من إغرائك
بالذهاب .

- اتركه يا عزيزى فصاحبه
سيأتى إليه .

- لو كان له صاحب ما مكث هنا
طويلا . لا يمكننا أن نترك المهر وحده
، الذئاب أكلت بقرة أمس ، ألم
تسمعى ،

- لكن أظن أنه يأتى معنا؟ .

وقف المهر الأبيض ينظر إلينا
بحزن كالمروم ، نعم ، لم يكن الأطفال
من البشر هم فقط من تركتهم الحرب
مهجورين يائسين .

كنت تريد أن تلقى بحبل على
رقبته لكن المهر لم يسمح بذلك
وجفل ووثب مقلعاً بحوافره
وحاولت أن تكلمه ، تفريه ، لكنه لم
يدعك تقترب منه ثانية بدأت الدنيا
تظلم فى الوائى ، كسان علينا أن
نسرع إلى البيت وهكذا حملنا
كيسينا وبدأنا نتسلق المنحدر ثم
صحت فرحانا .

- أماء انظري إنه يتبعنا .

نعم كان المهر الأبيض يتبعنا

يسير وراءنا لكن إذا توقفنا كان
يتوقف أيضاً بعيداً بمسافة تكفى
كما لو كان الأمر : أنتم فى طريقكم
وأنا فى طريقى ، لا تظنوا أننى
معكم . وهكذا ذهبنا إلى القرية ثم
إلى بوابتنا وتركناها مفتوحة ،
ووقف المهر بالبوابه فترة ولما لم
يجد ما يثير الشك دخل الحوش ، ثم
أغلقت البوابه ، ووقف المهر فى
منتصف الحوش يتلفت وبدأ كما لو
كان يقرر :

ليس هنا مكان سئ ويبدو أن
لديكم بعض التبن .

وهز رأسه وهو ينظر إلى عيदान
القش الصغيرة تحت الغطاء ثم حملق
فيك وفهمرت أنت ذلك لو أن هناك
بعض الشوفان الساخن .

- أماء هيا نصنع له بعض
العصيدة؟ .

- هل سيأكلها .

- انه يريد لها أستطيع أن أرى
ذلك فى عينيه .

- ماذا تفعل إنه ليس كلبا .

- انه يريد لها : أستطيع أن أرى
ذلك فى عينيه .

- بما سندعوه .

- ديرخ . سندعوه ديرخ* .

- ونسيت أنت وكل الأطفال

أطفالنا وأطفال الجيران نسيتم كل شيء عن لعبكم وأعمالكم الخفيفة والتفقتم حول المهر .. كنتم تأتون له بشيء كل يوم .. حزمة حشائش .. قطعة خبز .. ورأيت أحدهم يقدم له قطعة لحم فإذا بك تصرخ فيه .
كنت قاسيا حتى أن الصبي صرخ بمرارة .

وذات صباح ، بينما كنت أحضر الماء من البئر أخبرتنى النساء أن قطيعا بأكمله من الخيل قد عدم رميا بالرصاص ليس بعميدا عن هنا . البعض يقول إنه بسبب مرض معين لكن البعض الآخر يقولون إن الأعداء فقط هم من فعلوا هذا وعندما عدت إلى البيت أخبرتك فقلت:

- لا أعرف لكن لن أدعهم يقتلون ديزغ سيكون عليهم أن يقتلوني أولا . ووضعت حبالا على الحصان وذهبت معه إلى الغابة يتبعك سرب من الأطفال وفي المساء عاد الأطفال لكن المهر وأنت لم تكونا معهم ومرت ثلاثة أيام ولم نعثرك على أثر كنت قد احتدمت غضبا وجلست نشج حينئذ جاءنى ابنى الصغير وضغط نفسه إلى وهمس:

- أمه ، لا تصيحى ، أعرف أين هو .

- تعرف ! ولماذا لم تخبرنى ؟ .
- لقد أقسمت ألا أقول حتى لو «سففت» القراب .
- هل هو بخير ؟ .
- لا تقلقى يا أمى انه يدرّب نفسه على أن يكون شجاعا .
- فلترحمنا السماء أية شجاعة هذه وماذا كان يأكل طوال تلك الأيام الثلاثة ؟ .

- حملنا إليه شيئا ما .
- وتخفون شيئا كذا عن أمكم .
وجدتك فى مزرعة قديمة خربة نائما بجوار المهر . لم أوقظك ، لكن فى اليوم التالى أحضرت لك غداء ساخنا . واختبأت لمدة شهرين بين الأطلال . ولغسرت سمادتنا لم يستفسر أحد عن المهر أو يهتم به أدنى اهتمام .

وبدا البرد يحل وعدتم سويا إلى البيت وكنا قد أتينا بكمية كبيرة من القش للشتاء . وبقي ديزغ معنا . وفى مدة سنة كان جاهزا لان يقبل السرج . ووضعنا طقم سرج والدكم عليه وأصبح حصانا قويا جذابا . ركبة كل الأطفال ، كان واحدا من المتع الصغيرة فى سنوات الحرب المظلمة تلك . وكان يؤدى لنا خدمات طيبة .

كان يأخذ الحبوب إلى الطاحونة لطحنها ، ويحمل الخشب من الغابة . كُتبت أخذه في الصباح إلى قطع ماشية القرية ليرعى معهم ، وفي المساء كان يعود بمفرده وذات يوم لم يعد ديرخ .

سمعنا أنه في ذلك الوقت كان هناك معسكر غجر خلف جبل «قايدش» فأسرعنا إلى هناك ولم نجد الغجر ولا الحصان . أصابتنا الكآبة شهرين ثم فقدنا الأمل وبدأنا ننسأه بالتدريج .

بعد ذلك وفي ليلة شتاء قارسه سمعنا صهيلا متعبا عند البوابة كان محبوبنا ديرخ ولم أسمع مثل صيحات فرحكم حينئذ أبدا يا أطفالى .

- ديرخ أنه ديرخنا .

- ضبابنا الأبيض عاد .

- تعال يا عزيزى .

وكانت معرفته بيضاء من الصقيع واندفعتم كلكم تتعلقون به وتقلبونه وكان من الصعب القول أيكم أشد فرحا أنتم أم الحصان وهز ديرخ نفسه في محاولة ليلقى الحمل عن ظهره وصهل مرة أخرى كما لو كان هناك شئ يريد أن يخبرنا به وأخذنا خرج فوجدناه مليئا بالكتب

: «مراجع، كتب تمارين وتموذج كرة أرضية وبمجرد أن فعلنا ذلك صهل ديرخ ثانية وخرج من الحوش خبط حافرية ونظر خلفه يدعونا لأن نتبعه ربما الرجل الذى جاء معه متجمد فى مكان ما .

- فلتبقوا هنا يا أطفالى هناك رجل فى حالة سيئة .

أيقظت الجيران وتبعنا ديرخ وبسرعة فى الغابة خلف وادى بودوز نوى، وجدنا رجلا نائما تلك النومة الثلجية المميّنة أخذناه إلى البيت وأفسأناه ، صنعنا له شاي ساخنا وأنقذناه . كان مدرس لغة روسية . تتذكرون أطفالى سيرجى اليكيفيتش خوفا ليوف حسنا حتى ديرخ أنقذ حياة إنسان .

كيف جاء ديرخ معه ؟ ظل ذلك غامضا . لقد رأى ديرخ لأول مرة فى المدينة حينما أعطوه وظيفة مدرس فى قريتنا .

وكان على المهر - الأبيض أن يأتى به .

الظفر المسحور

بالطبع تعرفون أنه فى قريتنا ، قرية الحرفيين العظام ، لا يعتبر مولد الابن هو اليوم الذى يأتى فيه

إلى العالم ، ولكنه اليوم الذى يجلس فيه بجوار أبيه على طاولة العمل ويسك ظفر النقش ويضع أول خط من تصميمه ويحدث ذلك فى سن السابعة.

بلغه محمد « السابعة ، لكن ما من أب يأخذه إلى طاولة العمل . لذا طلبت من مزجار الأعرج - قريب من بعيد تدعونه جدى - أن يأخذه ويعلمه كصبي . كان زملاؤه فى المدرسة فى الفصل الأول قد بدأوا يتعلمون ، البعض مع الأقارب والبعض مع المعارف.

وقال محمد وأنا أجهزه للذهاب إلى المعلم:

- سوف أولد اليوم

- سوف نرى أيها الفتى كيف ستولد. دامبتبه وأخذته إلى الجد مزجار . الأسطى مزجار يتكلم قليلا ويبدو قاسيا لكنه فى الواقع طيب جدا.

ورشته فى البيت فى ركن من « الشرفة » الزجاجية وأدواته : قواطع ، وشواكيش وكماشات مفلطحة ، وفرن كبير ، وسندان ومثقاب بيتى . اتسعت عينا محمد على المشهد ، ورفع الجد مزجار نظارته إلى جبهته ليرى محمد ثم دفع بكرسى حمام

صغير ووضع عليه وسادة ليعليه وأجلس الصبى وقال:

- لا تلمس أى شئ.

- ألا يجب ذلك؟

- ليس بعد ، لاحظ كيف أعمل.

- هل سيكون هذا وقت طويل؟

- أول شئ أخبرك به: اسأل أسئلة قليلة ، حاول التفكير فى كل شئ وحدك. الكلام للثرثارين فقط فهو يأخذ مكان العمل.

- لكن كيف أعمل إذا كان على ألا المس شيئا.

قام مزجار وأعمل الكير وازدادت النار فى الفرن وأخذ زوجا من الملاحظ الطويلة وألقى به فى النار.

- ماذا سنفعل؟

- قصر لسانك وإلا سيعطلنى من العمل.

قفز محمد

- كلا ، كلا ، أماء خذينى لا أريد أن أولد.

وجرى وتعلق بى ، نظر إلى مزجار.

- أما زلت هنا ، هيا اذهبي ، نحن الرجال نسوى الأشياء بأنفسنا.

- وصاح محمد:

- لا أريد البقاء هنا ، خذينى معك يا أماء.

- كلا فلن تصيح رجلا بأى شكل.

- ساكون . أنا رجل.

- الرجل لا يتشبث بذيل أمه ،
يجب أن تتعلم كيف تقف على
قدميك ، اجلس يا ولد اجلس إننى
كنت أمزح.

- مزاح طيب ذلك الذى يجعل
الولد يفزع هكذا . كنت على وشك أن
أخذ الولد إلى البيت ثانية ، لكن
عندما دفع مزجار الملاقيط خارج
القرن هدا محمد وجلس إلى جواره
ثانية.

يحتوى كل كوخ على تذكارات
العائلة من المشغولات القديمة قد
تكون مرجلا ساسانيا ، بندقية أو
فخاراً لكن ما يدعى
«شيفلاخيوتن» * كقيمة خاصة
يقال إنها تصنع فى مكان ما فى
الشرق وأن أهل كوباتشى الذين
سافروا إلى هناك قايضوا على تعلم
طريقة صنعها - حسنا بين هذه
الأشياء النادرة يمكنك أن ترى غالباً
على الحائط صينية من المعدن الأصفر
أو الأحمر منقوشاً عليها تصميمات
كوباتشى بدرجات متفاوتة من
المهارة ، على شكل ميداليات مخرمة ،
أطواق زهور . وهذه تسمى شاجيرا
خيوتن ، تلك التى تعلم عليها الأولاد

النقش على المعدن يرسم المعلم على
صينية نحاس خطوطاً سهلة فى
البداية ثم معقدة بعد ذلك ويقول
للصبي .

- ها هنا يافتى ، وحظ موفق.

من السهل عليه ، أن يقول حظ
موفق بينما هو يحفر تصميمه على
الفضة الناعمة وأصابع الطفل تجاهد
مع النحاس - ذلك المعدن الجامد الذى
يقاوم الأيدي البالفة ، ناهيك عن
أيديهم.

ومن مزجار ظفر النقش ، وذلك
يتطلب مهارة ، فليس كل حرفى
يستطيع القيام بها بدقة ، ثم أخذ
صينية النحاس وخط أول خط كما
لو كان يجرب حدة الظفر ، وأوضح
لمحمد كيف يمسك بالظفر والصينية:
- والآن يا فتى استمر وحفلا
موفقاً.

- وبعد ذلك سأولده؟

سأل محمد لكنه لم ينتظر
إجابة العجوز المتجهم فقد عاد
للملاقط ثانية . وأخذ الصينية
والتقط الظفر وأخرج طرف لسانه
للمساعدة وبدأ أول خط له . لكن
لضعف القوة أو المهارة فإن الظفر
القاطع انزلق من على المعدن
وانغرس بألم فى يده . بالضبط فى

صغير ، يحفر تصميمًا معقدًا جميلًا ،
والظفر يتحرك فى يده بسهولة
ونعومة- والأهم- بدون مجهود كبير
، بينما هو يحفر شكلًا عميقًا
، البرادة الفضية لا تتطاير فى كل
الاتجاهات بل تسقط برقعة على
مريقتيه الزرقاء ، والطبق يسطع
ويشع كما لو كانت ألف نجمة زاهية
مضاءة عليه ، وظن محمد أنه لن
يستطيع أبدًا أن يعمل هكذا ولا فى
مليون سنة . وفجأة خمن السبب .
- أعرف الآن لم هى سهلة وأنت
تعملها .

- لم إذا ؟
- لأن معك ظفرًا مسحورًا .
- هذه ليست مسحورة ، هل
تعرف من يستخدم ظفر نقش
سحري ؟
- من ؟
- الحرفى العظيم .
- ألسنت أنت عظيمًا يا جدى ؟
- لم يكتمل نموى بعد .
- ياللعجب ، أنت كبيرًا جدًا ولم
يكتمل نموك .

تعرفون أنهم يقلون فى قرينتنا
إن الحرفى الممتاز يملك ظفرًا سحريًا
ولا بد أن محمد قد سمع ذلك ولم
يصدق شرح الرجل العجوز ، ثم

الحم بين الإبهام والسبابة
، وبصعوبة حبس الدموع ونظر إلى
أول قطرة دم حمراء كالياقوت
ينزفها فى العمل ولح مزجار الصبى
المضطرب من طرف عينه ثم تحدث
برقة .

- أعرف أنها مؤلة كلنا بدأنا هكذا
، هكذا دخلنا الحياة .. الصمقى فقط
من يبحثون عن عمل سهل .
- لكن يا جدى هذا ليس عدلا ،
الأعمال السهلة للحمقى والصعبة
للعقلاء ! .

- نعم يا بنى هناك أشياء كثيرة
ليست عدلا فى هذا العالم .
- هل لى أن أشاهدك قليلا أولا ؟
- شاهد ، فلترى ما أفعل ، رغم
أنك لو تعلمت شيئا من المشاهدة
لكان الكلب جزارا درجة أولى ! .
- ما هو الجزار يا جدى ؟
- الجسزار الذى يذبح الفئم
ويسلخها يوم السوق بينما الكلب
يشاهده .
وفهم الصبى القصد والتقط ظفر
النقش .

- من الأفضل أن أجرب ثانية .
فشل آخر ، وآخر ، وآخر . ومضى
محمد مكان جرح الظفر ونظر إلى
عمل مزجار . كان يعمل على طبق

وضع مزجار ظفر النقش جانبا
وذهب إلى مكان ما.

كان محمد خائفا من أن يلمس أى
شئ فقد حذره الجد بشدة من أن
يفعل ذلك ، ولكن كيف يقاوم لمس
ظفر نقش الجد ؟ والتقطه محمد
وفحصه بشغف ، ما زالت دافئة من
يد العجوز ، لا يبدو مميذا فقط
قاطع عادي .. لا خشبية ، ساق صلب
وطرف من النيكل النحاسى ،
وقارنه بظفره ، كان قاطعه أجمل ،
أصفر ولامع . وكان محمد على وشك
أن يعيد ظفر مزجار إلى مكانه حين
خيل إليه انه سمع صوتا رقيقا .

- أنا لست ظفر نقش عادي ، أنا
مسحور . الجد لم يخبرك .
- من يتحدث ؟

وتلفت محمد مندهشا ، ثم
استقرت عيناه على ظفر نقش
العجوز .

- هل تتحدث إلى أيها الظفر ؟
هل أنت مسحور حقا ؟

- إذا كنت أتحدث إليك فلا بد
أننى كذلك .

وفكر محمد: هذا بالضبط ما
أريد ، وبسرعة دس القاطع المسحور
فى حقيبة المدرسة منفعملا
بالاكتشاف ووضع ظفره على طاولة

الجد . وفكر أن ينسل خفية ، ولكنه
اصطدم بمزجار على الباب .

- إلى أين أنت متدفع هكذا ؟
- لقد نسيت على أن أذهب إلى
المدرسة .

- إذا كان كذلك ماشى ، تعالى
غدا .

- سأتى يا جدى بالطبع سأتى .
وهكذا جرى الوجد الصغير وكان
يفكر طوال الطريق إلى المدرسة
كيف سيرى الجميع قاطعه المسحور ،
بالذات تلك البنات المنمشة التى
تجلس بعده سيندهش الجميع قائلين
« ياه » وستشهق البنات من الدهشة
. وانتظر على أحر من الجمر درس
العملى . أخيرا دق الجرس وجلس
محمد إلى درجه ونظر نظرة كبرياء
إلى جارته فلا وقت عنده ليهتم
بالبينات . وبدأ المدرس يوزع
الأطباق المعدنية فى حجم صفحة
كتاب التمارين ، مثبتة على لوحة لها
يد . وسأل المدرس :

- هل بدأت الذهاب إلى الحرفى ؟
- نعم يا أستاذ .
- مع من أنت ؟
فأجاب محمد بنبرة فخر .
- الأسطى مزجار .
- إنك محظوظ فهو معلم عظيم

ها هو طبقك التنظيف ، الشكل واضح عليه.

- شكرا يا أستاذ.

- والآن يا أطفالى لا تتعجلوا فبر فصبر حرفى كوياتشى معروف . من يجرح يده يأتى إلى فقد أحضرت يودا هنا على الطاولة : ربما تفضل بعض البنات تدريب أيديهن على حرفة أبائهن بدلا من شغل الابرة فمرحبا بهن .. ورسم المدرس بعض المنحنيات على السبورة وبدأ يدور على الأراج يشاهد عمل الأطفال.

نعم، نعم، حسنا يا فتى، تسير حسنا ، لا تسرع.

هكذا قال لولد بجانب محمد وجاء إلى محمد ونظر إلى ظفر النقش ثم وضعه مكانه دونما كلمة.

وتحير محمد كيف لا يظن شخص يعرف الكثير مثل المدرس أن هذا ليس ظفرا عاديا لكنه مسحور؟ والتقط الظفر بأنفعال متوقعا أن يدهش الجميع ويضغط عليه ليصنع أول خط ، لكن المعدن كان جامدا أكثر من طبق الجذ واستعصى الظفر أكثر من الآخر نى الطنزف النحاسى ،وتحت ضغط يده انزلق ،واستقبل جرحا آخر، كاد يصرخ بأعلى صوته لكنه حاول كتمان ذلك. كان خجلا من

أن يظهر ضعفه أمام تلك البنت المنمشة التى كانت تتحين الفرصة لتسخر منه. وتناول حجرا ليسن القاطع ، بصق عليه ،و.. جاءه صوت.

- ماذا تفعل؟.

- أسننها بالطبع؟.

وغرس كوعه فى جنب من بجواره.

- علام تضريرنى ؟ إذا كنت لا تستطيع لا تحاول.

- ليس هذا من شأنك.

- آه . آه لقد حطمت السن العاد.

كان القاطع يتحدث إليه ولكن محمد ظنها البنت تتفكه عليه فحك القاطع بشدة على الحجر وتمتم:

- لست مسحورا بالمرة ، إنك قاطع أحقق.

وفهمت البنت أن التمتعة لها فاشتكت:

- أستاذ .. إنه يتوعد.

وزاد إحساس محمد بالجرح فخطف حقيبة المدرسة وجرى خارج الحجرة بسرعة حتى أن المدرس لم يكذ يلتفت . وعلى هذا أخذ درجة سيئة . ووصل البيت فى أسوأ حال .وفى الصباح ذهب إلى مزجار وكان العجوز يجلس كالعادة إلى طاولة العمل.

شكلت زهرة ، كما لو كانت لا تعمل
 فى فضة بل شمع .
 - لكن هذا ظفرى يا جدى .
 - نعم ظفرك .
 - أخشى أن تكون قد أفسدت
 ظفرك .. أنا أسف .
 وأخرجه محمد من حقيبة
 المدرسة .
 - لم تفسده بل حطمته
 - سيستغرق إصلاحه وقتاً ، والوقت
 ثمين جداً يا فتى ، ثمين جداً .
 - ظننت أنه مسحور .
 - السحر لا يوجد فى الظفر يا
 فتى لكن فى عقل ويد من يستخدمه
 .حتى تجعل الظفر مسحوراً يجب أن
 تحفر أشكالا على كثير من أطباق
 المعدن ، كثيراً جداً ، وأهم شئ الجهد
 والصبر ، الصبر والجهد .
 وشعر محمد بالذنب ، لقد ضيع
 وقت معلمه الثمين ب حماقته .
 وألقت طبقه وبدأ يعمل . وفجأة
 وجد الظفر يطاوعه ، وصنع أول خط
 .حقاً إن طوله لا يبلغ سنتيمتر لكنه
 ناعم ، ودق قلبه من الفرح فهذا إذن
 السر :
 أن تمسك القاطع بزاوية صحيحة
 بدلا من أن تضغطه بقوة . ثم توالى
 تويجات الشكل . أقواساً صغيرة

- صباح الخير يا جدى .
 - آه ، ، أنت لكن ما الأمر ؟ .
 - لقد أهنت نفسي .
 - كيف ؟ أين .
 - هربت من الدرس .
 - نعم ، ليس هذا بالشئ المهم .
 ربما تهرب من الدرس ، لكن لا يمكنك
 أن تهرب من نفسك . تحكى القصة
 أن الدب خاضع الغابة ، لكن الغاية لم
 تعرف . حسنا يا فتى ، إنك مكتئب
 حقاً ، تعال أرنى يدك اليسرى ، هم ،
 متورمة بعض الشئ . أطبقها ،
 أطبقها يا فتى هذا يحدث للكل .
 - كلا ، كلا ، لم لا يحدث لك ؟ .
 أخذ العجوز الصبى قريبا منه
 وأجلسه على ركبته .
 - جدى ليس هناك قاطع مسحور
 ، أليس كذلك ؟ .
 - لا يوجد ، خذ هذه .
 وأخذ العجوز ظفر النقش او
 الطرف النحاسى التى بدلاها محمد
 فى اليوم السابق .
 - اجلس بجانبى هنا وشاهد .
 وبدأ الجد مزجار يوضح ما يمكن
 أن يفعله هذا الظفر .
 وكان محمد مسرورا فقاطعه
 الذى قطع يده أكثر من قطع المعدن
 يعمل الآن خطوطاً فضية دقيقة

شمالا ويمينا وأصبحت زهرة وقبل
أن يصيح محمد فرحا : « لقد تمت » .

نظر إليها الجد من فوق نظارته
وأخذ منه الطبق .

- نعم لقد بدأت تتعلمها .

- إذن ، هل ولدت الآن يا جدى ؟ .

- نعم يا فتى لقد ولدت . يمكنك

أن تقول لامك أن تصنع الكعك
المضفر ، لأننى سأتى مع الأسطوانات

الآخرين لنحى عيد ميلادك .

- هل أخبرها بذلك ؟ .

- نعم أخبرها .

- هل ستكون مسرورة ؟ .

- فرحة الأم عندما يولد لها ابن .

وضغط محمد يد العجوز وأسرع

إلى البيت ليخبرنى .. بأنه قد ولد
الآن .

أفروديت العاجية

لم يكن أحد ينحت أشياء جميلة

من العاج مثل أبيكم . ولم يكن له

مثيل فى صناعة « الكاليس » تلك

الفصوص المعدنية للخواتم والحلقان ،

زينة أساور الرجال والنساء ،

مقابض الخناجر وأجزاء اللجام

ومسرج الحصان . وبعد موت والدكم

أخذ الأقارب والجيران يقولون :

أقرضينى لمدة يوم ، أسبوع ..

« وهكذا اختفت كل « الكاليس » لأن

أحدا لم يعد شيئا والقليل الباقى

فقدناه عندما انهار كوخنا القديم

المبنى بالبن . وأنواته ! لم يبق شئ

الآن لأريكم إياه وأقول : أبوكم صنع

هذا .

لكن هناك شيئان حرصت عليهما

طويلا . كان أبوكم يفكر فيهما كثيرا

ولم أشاهده أبدا يريهما لأحد . كان

يحتفظ بهما فى شكمية مغلقة

ويحتفظ بالمفتاح معه ، وقد أتت

الأيام السوداء ، كسرت القفل كاللص

شعرت لذلك بالأسف كالعلم الجامد

فى حلقى ماذا لو عاد أبوكم ؟ .

يقولون : إن الرجال يعودون

أحيانا بعد أن تحصل زوجاتهم على

أوراق تثبت أنهم قتلوا كان أبوكم

ينوى عرض هذه الأشياء فى معرض

الفنون فى ليننجراد ، كان له قريب

يعمل هناك ، كانت الحرب أوقفته

وهكذا ذهب وأخذ المفتاح معه . كانتا

قطعتين محكمتى الصنع ، صنعهما

فى ذروة قوة شبابيه . كانت إحدهما

باقية من أزهار التيوليب من العاج

على قاعدة من التراكوز ، كان

التركواز كالمرج الأخضر تنمو عليه

أزهار التيوليب الثلاث ولدقتها

الفنية كانت تبدو طبيعية تماما .

والتبوليب كما تعرفون زهرة جوزيه تؤكل وهى تنمو بفزاردة على المنحدرات الشرقية لجبل قايدش . ونحن لا نتهادى بالزهور ، فقط نقدمها لضيقونا . وفى عيد الزهور عندما يتم اختيار أجمل بنت كملكة جمال ، تتركب على حصان أبيض وسط دائرة من المعجبين تتبعها جوقة من أفضل الفرسان ، ويلقى الجميع بالزهور من المرج الألبى تحت أقدام حصانها .

والعمل الثانى من شكمجية أبيكم كان امرأة عاجية عارية تماما مطرزة بالذهب . كانت أفروبيت إلهة الحب والجمال من زبد البحر . كان أبوكم قد أرائها أثناء شهر العسل . وعندما رأيت جسدها العارى أخفيت وجهى جانباً وصحت:

- أوه ، أوه ، إنك عديم الحياء .

- لم يا زوجتى ، لم الجلبة ؟ فقط انظرى ، إننى لا أكاد أصدق أن يدي صنعتها .

- لا أود النظر ، خذها بعيداً .

لكن عندما كسرت القفل ألقيت عليها نظرة جيدة ، أفروبيت ، نصف مستلقية وظهروها إلى وسادة ، منفرجة الأرجل تسحب خيطاً من الذهب . أية عبقرية أى صبر وجهد

بذلها حتى صنع يدها بتلك الدقة ؟ كنت أحس بشرايينها حتى إننى تخليت الدم يسرى فيها نابضاً .

لقد بعث كل شئ بالفعل إلا هذين التمثالين . لكن كيف أعرضهما للبيع بينما المؤمنون - لقرون طويلة - محرم عليهم تمثيل الكائنات الحية أو حتى الاحتفاظ بتلك التماثيل فى بيوتهم ؟ كنت أخشى ألا يقدر أحد قيمتهما ، أو يدفع فيه شيئاً لم يكن أحد يفكر فى الفن فى تلك الأيام ، بل فى الخبز . لكن ماذا أفعل ؟ إذا كان لم يبق غيرهما فى البيت ؟ حتى قبعة زوجى قايضت عليها بمكيال من الدقيق . غادرت البيت بالشكمجية ، لم أحدد بعد إلى من أذهب . وفى الشارع كدت أضدم بالعم إبراهيم الذى يعتبر أعظم أسطى فى حرفى القرية . وفكرت فى أن هذه ضربة حظ .

- كيف الحال معك يا منابا ؟ كيف حال الأطفال ؟ .

- الأمور صعبة يا جدى إبراهيم ، صعبة جداً .

- تعالى معى إلى البيت ، أمس أحضر لى صديق بعض الدقيق ، سأعطيك بعضاً منه للأطفال .

- أشكرك يا جاران الطيب ، كم

أنت كريم ، إننى لأشعر بالخزى كلما فكرت فيما تفعله من أجلنا.

- تعالى الآن على الفور.

-حقا إننى لأشعر بالخزى.

- إنى أفهم ، أنت خائفة أن تتقدم زوجتى ، لا تهتمى ستتقدم ثم تسكت.

- كنت أريد أن أعرض عليك شيئا . إذا كان لديك وقت.

- ذهبنا إلى بيته ولم تكن زوجته هناك ، وترددت قليلا قبل أن أفتح الشمكية.

كنت أخشى أن يقول من يريد أشياء مثل هذه ؟.

-حسنا أرىنى ما أتيت به.

فتحت الشمكية قليلا وأنا مترددة:

- لم يبق شئ بالببيت سوى هذين.

نظر إبراهيم إلى التماثيل وتغير وجهه.

- أسفة -أرى أنه كان على ألا أعرضهما عليك.

- اهدأ ، اهدأ ، بولا كلمة من فضلك.

قال هذا وانحنى عليهما كما لو كان يخشى أن يطيرا ، ويحرص رفعهما من الشمكية ووضعهما

على الطاولة قريبا من الضوء ويدأ يفحصهما عن قرب من جميع الزوايا ،ومسح النظارة ، لكنه رأى أنها لا تناسبه .وجد غيرها ولم تناسبه أيضا ، وأثار هرجا حتى وجد عدسة مكبرة كبيرة .كان من الواضح أنهما أعجياه .حتى أن طائرا خارج النافذة أثار اضطرابه ولم يدعمه يركز فقطب جبينه وهش الطائر بعيدا ، وجلس على كرسى ،محنى الظهر ونظر إلى الشكل متفكرا ثانية ، وانحنى ولمس أصابع أفروديت.

-نعم.. يالأسف مؤسف جدا.

- لم ألا تعجبك ؟.

- يالأسف.

وكرر القول .. إنه حتى لم يسمعنى.

- هذه الحرب الملعونة تقتل هذا الحرفى، هذا الفنان!!.

- لم يعرضهما زوجى على أحد.

- نعم ، والآن أراهما أنا أخيرا ،

لماذا لم يأخذهما إلى باريس؟.

- أين ، أين ؟ إننى لا أعرف شيئا عن هذه الباريس.

-فى عام ١٩٣٧ كان هناك معرض عالمى فى باريس بكان يجب أن يذهب إلى هناك مع أعماله .كان سيحقق تفوقا ، كما لو كان كل أهل

ما تعدم عافيتك أبداً.
 وكان الرجل عند كلمته ، كان كل
 شئ لديه يتقاسمه معنا فى تلك
 الأيام . لكن موته المفاجئ أنهى سر
 أفسروديت بالمرّة وكذلك زهرات
 التيوليب العاجية على التركواز .
 ومرت عشرات السنين بعد ذلك
 الوقت . وتغيرت الدنيا وأصبحتم يا
 أولادى بدوركم أجدادا . لكن أفسروديت
 العاجية عادت ، وكان حفيد إبراهيم
 هو الذى أحضرها . نعم ليس كلها ،
 فقط تمثال نصفى ، لكن حتى ذلك
 كان جميلاً .
 - نعم يا أمى كان الكل معجباً
 بها .
 - وأتيت أنت بها لأنك ساعدته ،
 أليس كذلك ؟
 - نعم ساعدته يا أمى .
 - كيف ؟ إذن لم يكن ذلك سرّاً .
 - ليس سرّاً . إنه عالم وعميد
 معهد ، وحاول بعض الناس الاقتراء
 عليه فكتبت إلى صحيفة وكشفت
 لعبتهم . هذا كل ما فى الأمر .
 - لا ليس كل ما فى الأمر .
 فحفيدتى تزوجت من نسل إبراهيم
 ، وبين هدايا الزفاف رأيت باقة من
 التوليب على التركواز . مثل هذه
 الأشياء تحدث عادة .

فى الغابة

يعتبر الخريف وقت الوفرة

كوباتشى تلقوا جائزة كبيرة . إنهما
 جـمـيـسـلـان يا منابا أشكرك لأنك
 مرضتهما على .

- ليس لدى الأطفال ما يأكلونه ،
 أعطنى مقابلهما بعض الدقيق ،
 يسندنا حتى نحصل على بطاقتنا
 القادمة .

- ماذا ، هل تريدان بيعهما ؟

ونظر إلى بأسى .

- ألا تعرفين يا امرأة أنهما من
 الأشياء التى لا تقدر بثمن كلا . كلا
 إنهما .. لا تفكرى فى ذلك .

وأخذنى إلى الصخرة الأخرى
 وأعطانى نصف شيكارة دقيق .

- خذى ، واحرصى على هذه الأشياء
 . إنها تذكّار عظيم لرجل عظيم . ولو
 أننى والحق يقال ، كنت أعتبره
 متبجحاً ، ربما غفر لى خطئى .

- لكن ليس لدينا شئ آخر
 والكوخ يتهدم . كلا .. لن أخذ الدقيق
 إلا إذا .

- إلا إذا ماذا ؟

- من فضلك يا جدى إبراهيم ،
 احتفظ بهما هنا .

- تلتئمىننى عليهما حرصاً ؟ وهو
 كذلك ، يصيها هنا حتى تتحسن
 الأحوال . وحتى ذلك الحين سأساعدك
 أنت والأطفال قدر استطاعتى .

- إننى ممتنة ، ممتنة جداً ، إلهى

حسنا ، فى يوم جميل مشمش قررت الذهاب إلى الغابة وبحثت معى أنت ومحمد وأولاد أختى أحمد وحاج أحمد وجهزنا أنفسنا بالحقائب ولم نذهب إلى غسابة بودوزيرنوى القريبة ولكن إلى أخرى كنا نسميها وادى الذئاب الثالث ، كنا نظن أنه كلما بعدنا كانت هناك ثمار كثيرة ، لذا ذهبنا إلى أبعد غابة ، لكننا نزلنا فى جزء كثير المستنقعات من الغابة حيث ينذر وجود أشجار الثمار .

كنا فى منتصف الغابة تقريباً ، نبعد مسافة كبيرة عن الممر عندما رأينا شجرة ، كان من الصعب أن نعرف من مسافة ما إذا كانت الثمار ناضجة أم لا .. لمعرفة ذلك يجب اختبارها بإزالة جزء من القشرة ، لو كان قلبها أبيض جافاً قليلاً فهي جيدة ، أما إذا كان قشرها بنياً أو غامقاً فهي ناضجة جداً يمكن أكلها فوراً لكنها لا تصلح للتخليل . لو أن هناك حبة كمثرى واحدة «ناضجة» تفسد الباقي ، وهناك شئ آخر فـأشجار الكمثرى البرية لا تعطى ثماراً مماثلة كل سنة بل تتنوع فهناك محصول جيد كل ثلاث سنوات.

مشينا وقتاً طويلاً وحققنا على أكتافنا ، لكن لم نحصل إلا على القليل . وهممت الغابة كخليفة نحل لقد جاء الناس مبكرين ولم يضيعوا

الكريمة على جبالنا . فالغابات على منحدرات كوباتشى مليئة بالثمار الربانية مليئة بفرحة الماضى وبهجة المستقبل .والآن لا أدرى يا أطفالى إذا كنتم تعرفون القصة التى سأحكىها كان أخى «إنجى باخمود» يحب أن يحكيها وهو حى . كان يكبرنا ، وكنا نحن- سبع بنات -نتطلع إليه وكان الكل يحترمه كان طويلاً ، قوى البنية ذا شارب جميل ، كان سوء حظه الوحيد عينه ، ظل ضعيف البصر طوال حياته . بالنسبة لى كان باخمود مكان أبى بعد موته .كان رجلاً طبيباً أدام الله طيب ذكراه .

وفى ذلك الخريف كان مقيماً فى القرية هو وأسرته . بعد ذلك انتقل إلى المدينة ، إلى يونيكاك حيث يعيش ابنه وبناته مع أسرهم الآن . كان ابنه فيكاماما بشوش الوجه وفى نفس طبخة أبيه ، التفاحة لا تسقط بعيداً عن الشجرة كما يقولون .

اعتادت جماعات كوباتشى أن تجمع الثمار الربانية .كنت ترى فى الصباح أسرابهم متجهة إلى الغابة .كانت الكمثرى البرية طيبة خاصة ،كانت حامضة لكن ما زالت حلوة ، يمكن أكلها على الفور ، أما إذا كانت جيدة فتخلل للشواء والماء الذى «تنزه» نشربه كعصير الليمون

وقتا- كان باستطاعتنا سماع أصواتهم ، صياحهم وضحكاتهم. لكن لم يمكننا أن نجد ما يشبعنا أكلًا. والكمثرى البسرية لها نكهة أفضل بكثير من تلك المشهورة من بساتين «كايتاج» ربما لأن رحيقها ينبع من أرضها الأصلية.

سلمنا بحظنا التعيس وكنا نفكر في حمل شكاثرنا إلى البيت عندما قابلنا أخى إنجى باخمود وزوجته وابنه فيكاماما ، وكان يشكو أيضا من أنه أضاع النهار دون الحصول على شيء قال باخمود وهو يلتفت بمعنا النظر:

- سسيكون هناك، فى غابتنا بودونوى ، الكثير من هنا.
- الناس هنا أكثر من الكمثرى -
إنى مجهد هيه .انتظروا قليلا ، ما هذا الأصفر ، انظروا؟. هناك -ليست كمثرى ، أليس كذلك؟ نظرى ضعيف ، قد تكون مجرد ورق أصفر.

- نعم ، فيما وراء بعض الأحرار ،حوالى عشرين خطوة عبر الفضاء مغطى بالحشائش العظنة ، تقف شجرة مكتظة بالثمار الصفراء التى لم تمس بعد.

وصاح أحمد ،

-إنها كمثرى يا خالى.

وقلت أنت

- نعم يمكننا أن أرى ثماراً صفراء أيضا.

وصفق حاج أحمد بيديه.

-آه ،أنظر كم هى كثيرة.
وأشار فيكاماما.

- لا أظن أن أحدا لم يرها.

وصاح محمد أصف كم.

- هذا حظنا السعيد.

وخطا إنجى خطوة ، بحث عن نظارته فى جيوبه ثم لبسها وحدق إلى الأمام منحنيأ كما لو كان يصوب على هدف وبعد ما اقتنع خلع نظارته ثانية ووضعها فى جيبه وفرك يديه ونظر إلى ابنه وأولاد أخوته واحدا تلو الآخر ثم توجه إلى الأكبر ، أحمد.

- حسنا يا فتى ، أنت أشجعهم ، اذهب وجرب إن كانت ناضجة أم لا.

- مسح أحمد المجموعة بعينيه ونظر واضعا يده لتظل عينيه ، ثم بصق فى يديه وخطا خطوة محسوبة والتفت إليك الأكبر بعده.

- بما أننى الأكبر ، أمرك أن تذهب وترى -تحرك.

ثم قسمت أنت بنفس الخطوات وتلفت وتراجعت خطوة أو اثنتين إلى الخلف كما لو كنت تستعد للجري ، ثم ذهبت إلى الحاج أحمد وربت على كتفه.

-والآن يا حاج أحمد فلتذهب وتلق نظرة وتأت لتخبرنا.

فهمهم

- لماذا أنا؟

ثم نظر إلى فيكاماما.

- أنظر، إذا أمر الوالد، فعلى الابن أن يكون جاهزا ليلقى بنفسه في النار. هيا أسرع ونظر فيكاماما إلى أولاد خالاته وقد وقفوا جنباً إلى جنب بلا علامة تنم عن الاستهتار ونظر إلى أبيه عديم القلب ثم التفت إلى محمد، « الأصغر ».

- والآن يا محمد إنه دورك، تقدم لنا بالخبر.

وصاح فيكاماما مشيراً إلى الشجرة التي تملت أغصانها بالثمار، وقد أتى بكل هذا من نفسه بلا تخطيط.

نظر باخمود وزوجته إلى الأطفال نظرات احتقار بينما استنتجت أنا أنهم يباروننا، وفجأة جاءني محمد يعرج.

- أمي لقد دخلت شوكة في رجلي من فضلك أخرجيها. ونفذ صبر إنجي باخمود وقفز وبعق:

- جمع ظريف أنتم، كلكم أكسل من بعض، لافسادة منكم انتظروا هنا، سأذهب بنفسى.

وتقدم إلى الدغل الذي تقف فيه شجرة الكمثرى بثمارها الصفراء

المغرية. وكانت خطواته سريعة الفاضية نكاد نقول: لم أتلق منكم أية مساعدة. وبالتأكيد لن أطلب منكم في المستقبل، بخطأ بسرعة ونزل مباشرة في المستنقع غارقاً حتى وسطه. في البداية ضحكتم أيها الأطفال ونحن النساء أيضاً، وبسرعة خامرنا شعور بالخطر فالكان خطر، كان يمكن أن يفرق. كان يجاهد في الماء كالبلدة المجروعة محاولاً الخروج، لكنه كان يزيد الأمر سوءاً لم يستطع التحرك لا للأمام ولا للخلف وبدأ عليه الإجهاد.

- ما الذي يوقفكم هكذا كالدمى المسمرة؟ ساعدونى.

لحسن الحظ كان معنا فأس صغير، وبسرعة قطعنا شجرة وألقينا إليه بطرفها فأمسكها بكلتا يديه وأخذ الأطفال يشدون، شدة وأخرى كان قد أصبح في أمان.

فجأة تفرق الأطفال، لكن غضب باخمود كان قد هدأ، كان الماء يشر منه.

- أين هم؟

كانت الإجابة الوحيدة هي وقع الأقدام المتقهقرة.

- الأوغاد الصغار.

وجلس باخمود وخلع حذاءه وأفرغ

منه الماء بينما أنا وزوجته نقف صامتتين ، لم نتغلب بعد على شعورنا بالخطر . قال باخمود وهو يضحك الآن .

- الأوغاد : كسان من الممكن أن أغرق ، العفاريات الصغار ، يلعبون حيلة كهذه على رجل عجوز .

- لكنهم لم يعرفوا يا أخى أن المكان بركه عميقة .

- إنهم يعرفون جيدا الأطفال (أحرف) من أبائهم . احتالوا على .

ولم لم أتأكد أنا بنفسى ؟ كان يجب أن أحس أن الشجرة تنوء بالشمار لم يسها أحد لأبد وراءها سبب ما .

تنهدت أنا وزوجته ، لو كان له أن يلوم نفسه فليكنم فضيبه . لم يستطيع إخفاء تدمره طويلا خاصة من الأطفال .

وجففنا ملابسنا فى الشمس الحارة حتى المساء ، ثم عدنا إلى البيت بشكائنا خاوية .

كان باخمود يتذكر هذا اليوم دائما بابتسامة .

- العفاريات الصغار بلطافة احتالوا على .

مرت سنوات عديدة منذ ذلك الحين ، مات أخى منذ زمن بعيد . وأصبح أولاده وأولاد أخوته أجدادا .

فى الشريف الماضى كنت مع أحفادى فى نفس الوادئ ، وادئ الذئاب الثالث ، لم تكن نجتمع الكمثرى بالطبع ، فقط أخذناهم ليشاهدوا مكاننا جميلا . كان معى تيمور وداود وقربان وحفيدتى ماريئة ، وتخليلوا يا أطفالى ، فى نفس المكان قابلنا حاج أحمد مع ولديه حاجور مبار ورمضان ولم يتذكر أحد منا وقتما وقع باخمود فى المستنقع ، لم نفكر فى ذلك لمدة طويلة .

وفجأة رأى حاج أحمد فى الدغل شجرة تنوء بما تحمل من ثمار .

- اليسست هذه كمثرى ؟ أو هى أوراق صفراء فقط ؟ والآن من له عينان حادتا النظر ؟

وأشار داود .
- لأنها تشبه الكمثرى ، وهناك الكثير منها .

إذا كانت ناهجة فإنها تكفى الجميع ، وقال حاج أحمد متلهفا إلى تيمور :

والآن يا بنى اذهب وألق نظرة .
- اذهب وألق نظرة ؟ .

تردد تيمور ، تلفت ووضع يده على كتف قربان .

- اذهب يا قربان ولتر ماذا هناك .

ظل قربان عينيه بيده وتطلع ومال على حاج أحمد وأعطى أوامر بطريقة عسكرية :

- تقدم بلا تلكؤ.

- بلا تلكؤ.

ردد حاج أحمد ودفن رمضان بقعة خفيفة.

- اذهب إلى هناك ، خذ قطعة من الكمثرى واختبر نضجها.

وخطا رمضان إلى الخلف عدة خطوات كما لو كان يستعد للجرى ثم التفت إلى ماريئة.

- والان يا ماريئة ، أنت أكثرنا شجاعة

- وأنا ؟ أوه ، إننى شجاعة بقدر كاف ، وهو كذلك.

وبصقت فى يديها وتوجهت نحو داود.

- تعال يا داود ألا ترى شيئا أصفر يلعب فى تلك الشجرة ؟ فلتذهب وتر ما هو .
- وهو كذلك.

قال داود وبدأ يعرج- أصابته شوكة فى رجليه .. ونظر حاج أحمد إليهم هازأ رأسه وتمتم شيئا عن الأوغاد.

وخطا بثبات متقدما ونزل فى البركة أمام الكل. ثم كان مضحكا تذكر أيام الماضى ، لم أتمالك نفسى وانفجرت ضاحكا وتفرق الأولاد ضاحكين . وبصعوبة خرج حاج أحمد بلا مساعدة واستلقى على الحشائش مقهقها من الضحك لأنه هو أيضا قد تذكر.

- على كل- احتال على هؤلاء

الشياطين الصغار ، نفس الطريقة ، نفس المكان كيف أنسى ؟ نعم الأولاد (أحرف) من الآباء!.

الأنف الكبير والبطيخة

والآن يا أطفالى أود أن أخبركم عن أكثر أولاد اخوتى استقلالية ، لا شك أنكم خمنتهم من أقصد. مراد ، مع أنه كان فى الخامسة وقتئذ ، لم يكن قد جلس بعد إلى طاولة العمل بجوار أبيه ، لسببين ، أولهما هو أنه كان صغيرا ، وثانيهما أن أباه كان بعيدا على الجبهة . لذا كان الأطفال الكبار يفيظونه :- إلى أين تسير ؟ إنك لم تولد بعد. وكان يسمع غالبا من أحد أولاد أخوتى الآخرين ، ذلك الولد ذو الأنف الكبير حتى أن الأطفال كانوا يدعونه «أبو منقار» وكان ضخما كالثور.

وذاذ يومنا مراد مرتبكا تماما وسأل بجدية.

- لا أفهم لماذا يقولون إننى لم أولد بعد ؟ إننى هنا ، ذراعى ورجلى ، وأذنائى وأنفى وفمى ، أرى وأسمع وأتكلم إننى هنا ، إننى حى ، فكيف لم أولد بعد ؟

وكانت جدته تقيم معنا فى ذلك الوقت.

- ولا يهكم يا حبيبى ، من الممكن أن تكون حيا ، ولكن أن تولد فهذا أمر لا يقدره الكل.

- لست أفهم يا نينة.

- سوف تفهم يا حبيبى ، فلتكبر قليلا وسوف تفهم.

وجاء يوم من تلك الأيام التى ندموها فى الجبال أنها تجعلك تود الطيران حينما تسمع أول أمطار الربيع الدافئة الأرض بقوة قوس قزح ، وتنمو الحشائش الصغيرة وبادات الربيع ، ويتشبع الهواء بروائح الربيع ودفء الشمس.

كنت أنا والجدة عيلة قد ذهبنا إلى زراعة البطاطس وأخذنا مراد معنا، كان الحقل ، قطعة صغيرة من الأرض ، محروثا ومخططا ، وكان مراد على الرغم من صغر سنه طفلا جادا مستقلا ، حتى الطيور على أشجارها كنت تقبول فى غنائها «جون- فا- شيشقى» وكان مراد يحمل جاروفين ولم يشك البتة من التعب.

كان شيئا طيبا أن تراه وعمره خمس سنوات يببى جدية البالغين والحرص الموسم بروح الاستفسار الطبيعى فى ذلك العمر- لماذا السحب معلقة فى السماء ولا تسقط على الأرض؟.

لماذا تبدو كقمر الجبال ؟ لماذا تبدو السماء زرقاء بلون المياه فى بحيراتنا الجبلية ، لماذا يهز هائل الدورى ذيله طوال الوقت ؟ لماذا يحاول ذلك التيس الصغير النطح فجأة بدون مبرر على الإطلاق؟.

كانت لدى مراد أسئلة لا تنتهى . وكنت أجيب عنها أنا وجدته فى صبر . لم يتعب أبدا من الأسئلة ولكننا بالتأكيد تعبنا من الإجابة، ولقد أدرك لم تعبنا لكن ماذا يفعل إذا كانت «لماذا» لا تفتأ تبرح لسانه ؟ قالت له جدته:

- لا يجب أن تسأل عن كل شئ يا عزيزى.
- لماذا؟.

- يجب أن تفكر فى الأشياء بنفسك يجب أن تقف على قدميك كشخص مستقل.
- مستقل تماما- تماما؟.

- نعم تماما لكن حاليا ساعدنا فى زراعة البطاطس ، شاهد ما نفعل وافعل مثلنا ، سوف يصبح كل هذا فى إمكانك يوما ما.

وأشارت العملية اهتمام مراد شاهدنا وحاول بصعوبة أن يستمر مخرجاً لسانه للمساعدة ، وحفرت يده حفرة عميقة لطيفة ، ووضع فيها حبة بطاطس صغيرة ، وبدأت يده تعملان فى الأرض الرطبة قليلا.
- نيينه : ألا يساكن السدود البطاطس؟.

- كلا يا بنى إنه يساعد التربة على التنفس ، ثم فى فترة قصيرة تظهر البادات.
- لماذا هى بادرات.

- فى البداية بادرات ، ثم عيدان وأوراق ، ثم أزهار وبعد ذلك تبدو

الأرض إلى حبات عديدة كبيرة . كان يذهب غالباً والخطوط خضراء ، ثم بدأت الأزهار تظهر ، بعضها أبيض والآخر يميل إلى الاحمرار . وذات يوم حفر التربة بحرص بجوار إحدى النباتات ورأى حبات بيضاء صغيرة تشبه بيض الطيور وبسرعة غطاها بالتربة . ونبتت الأزهار وأصبحت الأوراق والعيذان بنية وذهبنا إلى الحقل مرة ثانية .

- والآن يا حبيبى ، يمكنك أن تنظر فى الحفرة الصغيرة حيث وضعت حبة البطاطس وترى ماذا هناك .

- هل يمكننى يا نينة الآن ؟ .

- نعم الآن ، هنا أحفر .

- سأحفر بيدي لأرى جيداً .

وبدأ يزيح التربة الناعمة بيديه - بحرص لا يفصل حبة واحدة من العمود ، وحالا رأى واحدة كبيرة ، ثم أخرى حتى رفع ثمانى حبات بطاطس من نبات واحد .

- إنها بطاطس مسحورة .

صاح مراد وهو يرى جدته اكتشافة العجيب .

- ليست البطاطس المسحورة ، إنها التربة . إن التربة هى أكثر شئ سحرى فى هذا العالم .

إنها تعطى الحياة لكل شئ وكل جسم . والحمد لله أعطتنا هذا العام محصولاً طيباً .

نعم فقد جمعنا عشر شكاثر من

البطاطس فى التكوين تحت الأرض ، ومن حبة واحدة صغيرة تخرج خمس أو ست حبات بعضها كبير جداً .

- هل ستنمو غداً ؟ .

- كلا يا حبيبى ، لا ينمو شئ فى عجالة هكذا ، علينا أن ننتظر ثلاثة أو أربعة أشهر .

-مدة طويلة هكذا ؟ .

-نعم يا حبيبى عليك أن تنتظر - بصبر ، تنقيها من الحشائش وتعزقها . الصبر ، الصبر ثم تجازيك بعد ذلك .

ومر الوقت ، وذات يوم تفاخر مراد على « أبى منقار » هل يعرف كيف أنه جعل حبة بطاطس صغيرة تتحول إلى أربع أو خمس حبات كبيرات ؟ وسخر منه « أبو منقار » . -معجزة وجدها طفلاً ! .

- لماذا أنت هكذا دائماً ؟ .

-ماذا تعنى بهكذا ؟ .

- تقول أشياء (مقرفة) أأست

مبسوطاً من أى شئ ؟ .

- طفلاً أحمق . ما الذى يجعلك مبسوطاً وبطنك تفرقع ؟ .

- ولم تفرقع ؟ .

- لأننى جوعان .

كان مراد طفلاً جادا ، لم يكن فقط يبحث عن إجابة لاستفهاماته ، كان يحاول صنع الأشياء بنفسه ، ولم يكن ليصبر حتى يرى كيف تتحول حبة بطاطس صغيرة مزروعة فى

قطعة أرضنا الصغيرة . وظل مراد لمدة طويلة يتعجب من المعجزة . وقال لأبي منقار مرة .
- إنك لم تحلم أبداً بمثل هذا .
- بطاطس - ها ها حاول أن تزرع بطيخة .

هكذا سخر منه «أبو منقار» نعم كان الوقت خريفاً وكان هناك بطيخ في السوق بجاءوا به من الوادي ووقعت كلمات «أبي منقار» على أرض خصبة ، بكل الأطفال مغرمون بالبطيخ ، لكن مراد كان يعبده . كان يعشق القشر ، يأكله بنهم حتى الجلد الخشن لدرجة أن البذور كانت تلتصق بخديه . وفي نهاية عشاء كان فيه بطيخ توجه مراد إلى جدته قائلاً:

- نينه ، أعطيني روبل ، وسأرده عندما أكبر .

- من أجل ماذا تريده ؟

- ألا تصدقين أنني ساكبر وأرده لك ؟ لن أنسى .

- حسناً إذا كنت متأكداً من أنك لن تنسى .

ونظرت الجدة بحنان إلى الولد وهي تعطيه روبلاً وبعض (الفكة) . وخرج مراد إلى حديقة المطبخ وحفر حفرة عميقة وجرى إلى السوق . وعلى الفور رأى بائعاً يقف إلى جوار تل من البطيخ ، ورفع النقود .
- من فضلك هل تختار لي أفضل بطيخة ؟

- أفضل واحدة على الإطلاق ؟
أكثرها نضجاً وحلاوة من فضلك .
- وهو كذلك أيها الصبي . سأجد لك بطيخة نبتت على شجرة وليس على الأرض . ها هي تنظر إليك .
والتقط بطيخة مخططة خضراء غامقة وقربها من أذنه وضغطها .
- نعم إنها تشخشخ . خذها بحذر ، إذ نقرتها بظفرك فستنفجر من نضجها .
- أوه ، أشكرك ، شكراً .

وأسرع مراد إلى البيت حاملاً البطيخة بكلتا يديه . ولم يلحظ أن «أبا منقار» كان يراقبه وعندما جاء مراد إلى الحديقة وجد أن عليه أن يزيد من سعة الحفرة لتسع البطيخة . وبعد أن فعل ذلك وضع البطيخة بحرص في القاع وغطاها بالتربة وابتعد راضياً ، أملاً أنه بعد ثلاثة أو أربع شهر سيستطيع أن يستخرج عشر بطيخات ، بعدد أصابعه .

كيف له أن يعرف أن البطيخ لا ينمو في الجبال ؟ وتعجب كيف أن الكبار لم يفكروا في زرامته . وهكذا ذهب إلى البيت مسروراً من نفسه . لكن «أبا منقار» وقد كان يراقبه من فوق السور ، فرك يديه مستعداً . وبمجرد أن حل الظلام انسل إلى الحديقة وحفر على البطيخة وبحث عن مكان هادئ ، وكانت البطيخة ناضجة جداً لدرجة أنها تشققت بمجرد أن لمستها السكين . وأكل «أبو

منقار « وشد قبعته إلى أسفل كما لو كان يود الاختفاء، وبعدها ترك مراد وحده وإن كان يتحرش للشجار، كما لو كان يود أن يستمر الأمر هكذا . لكن لم يكن لدى مراد استجابة .

- لا أريد شيئاً من شخص يرى الأشياء من خلال نظارة مشروخة . كان ينطقها كشخص راشد .

هكذا كان ينمو مراد . وهو الآن -كما تعرفون- كبير مهندسى الزراعة فى مزرعة حكومية كبيرة ويعمل « أبو منقار » تحت رئاسته - ماذا تظنون ؟ يزرع البطيخ .

الحلقان النحاسية

كلكم تعرفون الحكمة الكوباتشية « إذا لم يكن هناك ذهب فالنحاس يلمع » نعم فالحرفيون فى كوباتشى يمكنهم أن يجعلوا النحاس يلمع كالذهب إذا كان المعدن الثمين غير موجود .

وكل أم فى كوباتشى كنت أريد لأطفالى أن يتعلموا حرفة أبيهم . فالحرفة اليدوية لا تلقى على أكتافكم بعبء لكنها تجنبكم متاعب كثيرة . على البوابة فى مدخل قريتنا منقوشة تلك الكلمات « الفقير من لا يجد لديه عملاً ، لكن الغنى من يحمل اسمه لقب اسطى » هذه الحرب الملعونة غيرت كل شئ ، لم يبق إلا قليل من الحرفيين . هؤلاء العاجزون على نحو ما . كان هناك العديد من الأطفال الآخرين - وإن

منقار « حتى امتلأ وربت على معدته ، ارتاح قليلاً وشرع فى أكل القشر الطرى . وفى النهاية أتى عليها مشييراً إلى حظه لأن هناك أطفال حمقى فى هذا العالم ، وقيل أن يترك الحديقة وجد غصناً جافاً فغرسه مكان الحفرة وزينه ببقايا البطيخة .

تحيرت الجدة طوال الليل كيف تشرح لمراد غلطته ، كانت تتحرج من أن تخبره بصراحة : أنه لا يمكن زراعة البطيخ كالبطاطس ؟ لم تكن تريده أن يشعر بحمقه أو أن تصدمه . لكن بما أن هناك أشياء كثيرة تشغل بالها قررت ألا تقول شيئاً .

فى الصباح أخذ مراد (قلة) ماء كبيرة إلى الحديقة ووقف قريباً فى دهشة مباغتة . لقد نمت شجرة حيث زرع البطيخة ومعلق على فروعها قطع من القشر المنحوت . وبينما هو واقف هناك مذهش ومرتبك ، سمع صوت « أبى منقار » وضحكته الحيوانى :

- سحر ، هاها كيف تراها ؟ شجرة سحرية ، هاها .

لم يستطع مراد الكلام لبرهة من الكمد ، لكن بعد ذلك قال فى ثان كما لو كان يزن كل كلمة :

- أفهم كل شئ من البطيخ ، لكن هل لك أن تخبرنى ماذا زرعت ليكون لك هذا الأنف ؟ واحمر « أبو

كانوا ليسوا أفضل بأى حال- إنهم دائماً مشغولون بالشاكوش والقاطع ، مجرد ساعة ، كنت أنصحهم فالتجدا ساعة واحدة تجلسو فيها إلى طاولة العمل. عندما كنت لا تسمع الشاكوش فى أى كوخ فى كوباتشى فإن الكوخ يبدو ميتاً . لكن ما أجملها موسيقى إذا سمعت المطرقة ترتطم بالمعدن والشواكيش تدق فى بهجة وزئير الفرن.

أجمل أغنية كما لو كان الرجال قد عادوا من الجبهة وبدأت الحياة الآمنة نائية ، كانت قلوب الأمهات مليئة بالأمل ، ويقطع الصوت المعتاد ذهاب إلى العين . ولسان الأطفال يكبرون.

فى قرى سيراچين فى تلك السنوات وقبلها أيضاً كان الطلب زائداً على ما يدعونه الخلقان المدورة- خرزة ذهب كبيرة على فلفة ذهبية رقيقة- لكن من أين للأطفال أن يحصلوا على ذهب أو فضة ؟ لقد تبرع الناس بكل أدواتهم المنزلية لمساعدة الجيش .حتى النيكل النحاسى أيضاً راح ولم يبق سوى بعض النحاس . وهكذا أخذت طبقاً نحاسياً من على الصائط حتى لا يجلسوا هكذا خاملين . لقد فعلت أم باجاتير هذا أيضاً ، كانت عائلتهم فقيرة ونحن أيضاً كنا فقراء-كان

من الصعب أن تجد أفقر منا فى القرية كلها.

وفى مقابل الخلقان المدورة كان يمكن شراء «الشرش» من بنات سيراچين ، بالتفاح والفحم من بنات كايلاج.

ووجد الصبية قوالب للخلقان المدورة : يصنعون تصفى كرة من النحاس ، يلحمونها ببعضها ثم يلحمون نصف كرة صغيرة بهما وينتهون من ذلك بعمل خفاف سلك لها . وكان طرق النحاس لترفعيه عملاً صعباً مملاً ، الدق على الحواف لترفعيها وتهذيبها ، نعم كان عملاً صعباً يترك الأصابع سوداء . لكن كم كان الأطفال سعداء عندما نجحوا! بالطبع كان هناك إلى جانب أهات الامجاب أهات ألم عندما يؤذى أحدهم إصبعه أو يعض يده بالكماشة أو يحرق يده بالمعدن الساخن . لكن مهما كان الثمن هناك عشرون زوجاً من الخلقان المدورة ، ليست كاملة تماماً تحتاج إلى شئ من الشذب هنا وهناك.

صحيح أنها نحاسية وليست ذهبية ولكن من صنع أطفالنا . -والآن ماذا تقولين؟

رائع كما ترون إذا أردتم أن تفعلوها بجدية فيمكنكم ذلك.

- ألسنا حرفيين أم لا؟

- حرفيون ، حرفيون حقيقيون.

تنمو البنات حتى سن الزواج

هناك شئ واحد طيب ولم يكتشفوه
فى حينه هو أنهم لو عرضوا الحلقان
هكذا على بنات سيراتجين لماثوا
عليهما من الضحك.

قال باجاتير لون أن يرفع رأسه
وهو يمشى بحزن خبزا لا طعم له:

- إن حفظنا لسيئ يا صديقى.

- ما هذا التخبيط؟

- ماذا سنفعل الآن ؟ لا يمكن أن
نرجع أصفر اليديين ، وإذا عرضنا
هذه الأشياء سنكون حمقى.

- وماذا إذا؟

كان باجاتير ذكيا وبالطبع كان
قد رتب خطة.

- هل أحضرت أدواتك معك؟

- بالتأكيد .

- تعال هيا بنا.

- إلى أين ؟

- إلى أورارى.

- ماذا سنفعل هناك؟

- لست أدري بعد ، لكن أظن
سنجد شيئا نفعله . هيا.

ونحو المساء والقطعان عائدة إلى
القرية وصل الأولاد معها وبالطبع
كانوا قد حددوا من على بعد بنظرة
فاحصة للأسطح ، أى الأبواب
سيطرقون طالبين مأوى ليلياً
بوسبب ما اختاروا كوخاً عليه
سيماء الفقر.

أخذتهما العجوز الشاحبة التى
تعيش فيه إلى الدخل وقدمت لهما
اللبن الطازج مباشرة.

فى زمن السلم أو الحرب ، لكنهن
يتمنون أسرع فى جبالنا وكانت
ملايسهن فى مناسبات الأعياد مليئة
بالزينات ، الحلقان ، الضواتم ،
الأساور ، والقلادات ومقود من
العملة ، الأحزمة ، وحلية الشعر .
أحياناً يكون وزن كل ذلك كبيراً.

حسننا ، وهكذا شرع ابنى
وباجاتير فى التوجه إلى قرى
سيراجين سيرا على الأقدام
بحلقانهم أملين أن يقايسوا عليها
بشئ يأكلونه : شرش ، دهن ، عسل
أو لحم مقود ، لكن علاوة على كل هذا
ليروا كيف يقيم عملهم . وزودناهم
ببعض الكعكات من أجل الرحلة
وقطع قليلة من جبن لبن الماعز
وصمبناهم إلى الممر.

وفى القمة ، قريبا جدا من
أورارى ، توقفوا للراحة وليأكلوا
وأخرجوا قطع الجبن المفلطحة ومعها
الحلقان ، لكن هل كانت هذه حلقانهم
؟ ذهب لمعانها الأصفر ، تبدو كابية
خضراء كما لو كانت مدهونة باللون
كم من الجهد بذله فيها الصبية قد
ذهب كدخان فى الهواء ؟ وقف
الطعام فى حلقوقهم . وتجنب كل
منهم النظر إلى الآخر خوفا من
الانفجار فى الصباح.

أنى لهم أن يعرفوا أن النحاس لا
يوضع بجوار الجبن ، خاصة إذا كانت
الجبنة طرية ومملحة هذا ما جعل
النحاس يصبح أخضر اللون . كان



- أه يا طفلى العزيزين ، كم أنا مسرورة ، لم أتلق أخبارا من الأصدقاء القدامى منذ فترة طويلة .
- تعالوا ، تعالوا .

أخذ الطفلان راحتهما ، وبعد عشاء قصير أخبراها بكل شيء إلا أنهما لم يخبراها أنهما أفسدا الحلقات فى الطريق .

- إننا حرفيان إذا كان لديك شيء يحتاج إلى طرق أو توضيحا يمكننا عمل ذلك بسهولة .

قال لها باجاتير ذلك فقالت العجوز .

- هذا طيب ، حسن جدا .
وأحضرت بعض الحلى من دولاب ذى أدراج .

- بعض هذه يحتاج توضيح فلتلقوا نظرة .

وفى الصباح الباكر جلسا إلى العمل يوضهان السلاسل والأساور والحلى والأشياء القديمة كافة بينما فى نفس الوقت كانت العجوز تدور على الجيران تخبرهم بأمر الحرفيين الصغيرين : «إنهما أبناء أصدقاء قدامى يقيمان عندى ، تعالوا وانظروا كم يملأ النور البيت ولتأتوا معكم بكل ما يحتاج إلى توضيح الحرب على وشك الانتهاء .
ويعود الفتيان بحان الوقت لتزيين البنات» .

وبدأ الناس يتوافدون من كل القرية . وكان الولدان سعيدين

يتلقيان أجرهما حبوبا أو بيضا أو جينا وأحيانا عشاء طيباً .

وغاب الولدان من البيت مدة طويلة وبدأت أنا وأم باجاتير يعترينا القلق وجاء يوم السوق ، وبدأنا نسأل النساء من طريق سيرا جين عما إذا كانوا يعرفون شيئا عن ولدينا . صاحت واحدة :

- هذان الاثنان ، الحرفيان فى قرينتنا ؟ .

- نعم هما الاثنان ، أنهما صانعان ماهران كذلك .

وهكذا ارتحلت أنا وأم باجاتير ووجدناهما فى أوراي رى فى كوخ العجوز ، غارقين فى العمل تماما ، ورأينا البنات فى الحى التى تبدو جديدة وكانوا قد جمعوا الكثير من هذا وذاك حتى أننا أربعتنا لم ندر كيف سنحمله . ثم وجدت لنا العجوز حنارا وضعنا عليه الحمولة وبدأنا طريق العودة إلى البيت -والحلقات الفاسدة؟ لم يلقوا بها ، نظفها الأولاد وجعلوها تبرق كالفضة .

لكنهم لم ينسوا أبدا أن حلقات النحاس يجب ألا توضع بجوار جبنة لبن الماعز .

وجاء اليوم

لم يأت يوم مثل هذا فى منطقتنا ذات الاف الجبال والأودية .

كانت السماء تبدو خالية من السحب وتشع لونا أزرق صافيا ..

ومنذ الصباح الباكر . كان الكل صغيرا وكبيراً يتوجه نحو مبنى السوفيت الريفي بعلمه الأحمر يرفرف في زهو ودقات الطبول المنتظمة.

ذلك يوم يستحق الحياة من أجله ، فالكل كرجل واحد في متعتهم وفرحة النصر العظيمة.

وهواء الربيع يبدو مشبعاً بالإحساس بالنصر . وكان الرجال العجائز الذين رأوا الكثير وحاربوا في الحرب الأهلية يمسحون دموعاً عفوية ويعانقون بعضهم البعض ، كما لو كانوا يلتقون بعد غياب طويل . لكن الكلمات كانت قليلة ولا تقوى على حمل التعبيرات التي أراد الناس أن يحسوها في ذلك اليوم . وفي منتصف اليوم لم يكن هناك بيت في القرية لم يرتفع علم على سطحه . وحتى هؤلاء الذين ليسوا لديهم رايات حمراء بحثوا في خزانهم عن أغطية الرؤوس القطنية أو الصريرية الحمراء ليربطوها ويرفعوها فوق الأسطح . وبدأت الميكروفونات تملأ الهواء بالموسيقى بكل قوتها.

كأنت متسعة أن ترى الأطفال مشرقى الوجوه كما لو كانت سحابة قد زالت عن وجوههم.

أطفال سنوات الحرب الذين لم يعرفوا الطفولة الآمنة ولا ألعاب

الطفولة ، الذين كانوا يفكرون فقط في مساعدة الجبهة ، الأطفال الذين كان أبائهم يحاربون أو قتلوا بالفعل ، الأطفال الجوعى الناحلون .

الآن يمكنهم أن يقفروا بأبائهم المنتصرين على عدو قاس مآكر ، لقد كانوا أطفال الأبطال.

من أجل هؤلاء الأبطال قام السوق الريفي بإحياء حفل عشاء ذبح من أجله عجلين سمينين وقام الأسطى فرجار العجوز الذي فقد أربعة أبناء في الحرب بشراء واحد آخر ليكفي الثلاثة لعمل « الحساء ».

لو أنك جمعت كل الإجازات في يوم واحد لن يكون أبداً مثل ذلك اليوم.

لم يتذمر الناس من شيء حتى ما قيل عن يوم ممطر بالمرّة ، حتى العجوز عميلة أحضرت سوارها الثمين لتشتري خروفياً وتصنع « الجبّتل » وكانت تقول هذا يوم زفاف ، العروس هي الأرض وعروسها السماء ؟ واليوم يحتفل بهما العالم . أنكر يا أطفالاً كيف جلسنا جميعاً في المرح الأخضر وأحضر لنا الحساء .

كان نوعاً من الأعياد كتلك التي يطلب الناس منك فيها أن تأكل غير ناظرين لأكلك . حتى المراهق الذين أمجرتهم الحرب جاءوا إلى الميدان لتناول « حساء » النصر . وكان عيد المشاركة هذا أفضل من أي علاج لهم.

كان هناك سباق الخيل .. مصارعة ؟ وألعاب كرة . كانت هذه المسابقات لأطفال المدارس .. هل تذكر يا بنى كيف هزمت باجاتير فى المصارعة ؟ - بالتأكيد يا أمى ؟ كيف أنسى ؟ - وماذا قال لك ؟ - قال بطنى مملوء . كنت جوعانا وكانت الشورية جيدة لدرجة أننى أتخمت نفسى . أنظر فلن فعل هكذا .. سوف أطوح نفسى على أن نتقاسم الخمسين روبل . وكنت أفكر فى مثل ذلك أيضا . فلم أكن قد أكلت أقل من باجاتير .. ولو انسحبت من المصارعة لفسرت النقود . وهكذا تصارعتما .. وعندما نظرت إليكما سررت فى رعدة .. كنتما نحيفين تشع عيونكما ضعفا وبطنوكم مدلاة كما لو كنتما مصابين بالكساح وينطلونكما مرتقين ولو عرفت قبلها لأصلحتكما حتى لا يبدوان مهينين . وفعلتم ما اتفقت عليه .. ووقع باجاتير حتى لمست أكتافه الأرض .. وصفر الحكم . وأعطاك النقود .. فقسمتها كما

اتفقتم . وبعد ذلك غنى الكورال بقوة بصوت عال حتى أن جدران المنازل والمنحدرات والجبال بدأت تشارك فى الغناء : « المجد للأبطال .. الموت للعدو » .

ولم ينفخ الناس حتى وقت متأخر من الليل كانوا مبسوطين متحررين مع بعضهم البعض حتى أنهم ما رغبوا فى الرحيل . كانوا كعصبة كما لم يكونوا من قبل . وعندما حل الليل كانت القرية تلمع فى ضوء البطاريات . كان الوقت متأخرا عندما عدنا للبيت وحل النوم هادئا مطمئنا كما لم يكن يوماً منذ بداية الحرب لكننى لم أستطع النوم . كنت نشيطة إلى حد كبير . أحس بتيار من الطاقة يجتاح جسمى كله . وفى الصباح ألبست الأطفال قمصانا وينطلونات نظيفة وضعت لهم أربطة حمراء من منديل أبيهم الأحمر وودعتهم إلى المدرسة - وعندما أصبحت بمفردى ألقىت بنفسى على الوسادة ذاهبة فى النوم . أفكر . جاء النصر أخيراً لقد نجا الأطفال .

جرّ شَكَل

من له أذنان فليسمع : مارسيل

الفرح صعب وعزيز في هذا الوطن . ومع هذا نسأل طوال الوقت عن كم الشجن الذي يدفق من أغانينا وطقوسنا وإبداعنا والمرادفات اللغوية الكثيرة عندنا لكلمة حزن .

ذات يوم طلب مني رئيسي المباشر الكتابة عن رواية سلمان رشدي بعد صدور الفتوى الإيرانية بحقه .

لم أكن قد اقتنيتها أو قرأتها بعد فكان منطقي الوحيد للاعتذار أنه من المستحيل على أخلاقياً أن أكتب تقريراً أو إدانة لما ليس بحوزتي ولم أقرأه . وقد لا أكتب حتى لو أغضبني ما قرأت بهو ما حدث عندما قرأت «آيات شيطانية» باللغة التي كتبت بها بعد ذلك لكن الفارق - كما أمل - واضح .

أرجع عن هذا المبدأ اليوم بازاء القضية المثارة والمفتعلة عمداً حول غناء الفنان اللبناني مارسيل خليفة لما رأى فيه شخص أحد القضاة تحقيراً ومساساً بالمشاعر الدينية بالنظر إلى تاريخ مارسيل الفني في الدفاع أو الاقتطاف ولثقة في أنه لا يمكن أن يوجد ما يسيء عمداً أو عرضاً في أدائه الفني بالاستناد إلى أن الانسان الملتمزم يندر أن يتحول بين عشية وضحاها إلى عميل مرتزق ومتعصب . وأشد فقط على الآتي :

أولاً: جمهور المستمعين الذين أحبوا أغنيات مارسيل المحظورة بشكل غير رسمي في الشارع المسيحي إبان الحرب الأهلية اللبنانية والتي (أي الأغنيات) كان يمكن أن تتسبب في إهدار دمه على يد ميليشيات متطرفة وعملية بحاجة إلى تفسير مصطلح " قرار ظني " .

هل يعني المصطلح عدم يقينية القاضي إزاء حيثيات حكمه أو أسباب ما يشعر " أنه مستحق للاتهام ؟ أليس بعض " الظن إثم " ؟ . ما الذي يحدث هنا ؟

ثانياً: القرارات المهينة والمتعسفة والشاذلة لتاريخ من الوقوف بما يملكه الفنان - بفنه وحده - بجانب العروبة وضد احتلال الوطن أو انتهاكاته المستمرة وما يتعرض له الجنوب اللبناني تحتاج إلى مواجهة شجاعة من الأنظمة والمؤسسات التي تصدرها تستفتي فيها الجمهور - هذا المجموع الذي ينظرون إليه ككتلة دائماً - في أمر من يريدون إعدامه فنياً أو فكرياً



واجتماعياً أو حتى تصفيته جسدياً (تناقض كبير ومضحك لحد الاستحالة)
لكنى لأرى عنه بدلاً من يقومون بالمهمة الشاقة التى هى " حمايتنا " .
إن الفنان أكثر من المفكر فى هذا الوطن الأسمى بالأساس قادر - فى كل
عصر - على الوصول إلى نخاع نخاعنا وإلى ماقد لاندركه أو نحب أن نعرفه
عن أنفسنا . لكن من الطبيعى تماماً أن تستحيل المطالبة " بمبايعات " من هذا
النوع الى فانتازيا مصادرة مادامت أكثر الأنظمة العربية تتمر على تجاهل
حقيقة أن الأسمى الآن يعرف ماذا ينقصه ويتكلم فى السياسة فى ظل حصار
الوصاية الأبدية لن يصدق أى نظام بمؤسساته أن الشعوب قد بلغت سن
الرشد.

ثالثاً: الفن الجميل يمكن أن ترقص على أنغام أغانيه بوجودك أو جسدك
لكن الصحف العربية المستنكرة لما يحدث لمارسيل لم تغدنا بورود حالات
إغماء إلى المستشفيات نتيجة لهز البطن أو أى نوع من الرقص المحموم على
أنغام " أنا يوسف يابى " التى لو أنصف القاضى المتجنى أو ضيق الأنف الذى
أصدر حكمه لشمل الشاعر محمود درويش بقرار ظنى مماثل فان قال قائل إن
تلحين نصوص دينية إسلامية غير جائز شرعاً لما استطعنا سوى ذكر
حقيقتين:

الأولى هى أن دين مارسيل وشخصه لا يبيحان السخرية المتهمة بها ولا يمكن
محاكمة أى كائن حتى يتهمة ازدراء مفترضة الا بالاستناد الى الدافع والدافع
فى هذه الحالة يدحض التهمة ويكفى المسألة كلها إذن ونفس متفتحة مستنيرة
ومحبة لما هو حقيقى وإنسانى .

والثانية لأنه ليست هناك جريمة فمن غير المعقول تكذيب كل المستاءين
من صدور القرار واتهامهم بالتبذل الدينى أو الكفر ومن غير الجائز أن يضطر
المرء الى القول بأن عقيدة مارسيل لا ترى فى الغناء الدينى " مصيبة " أو
تجديفاً أو ملاءنة من أى نوع . الغناء الكورالى والفردى الكنسى على أنغام آلة
الأورج ولدى دخول الكنائس والخروج منها يشمل الكنائس البروتستانتية
والإنجليكانية والشدو العذب باللهجات العامية لتقريب شعب الكنيسة من
التعاليم قائم حتى فى الكنيسة الأرثوذكسية.

ولأن الكائن البشرى ليس بعيداً فى المسيحية -حسبما أفهم - عن الكائن
الالهى يمكن أن تشاهد النساء يقمن بارضاع أطفالهن صناعياً أثناء أداء
الصلاة ويمكن للأطفال أن يركضوا أثناء الشعائر ولخادم الكنيسة أن يستخدم
صليبه الخشبي ليحك به جزءاً من فخذه . بينما جماعات البيوريتان الدينية
المتعصبة التى ظهرت فى الولايات المتحدة وبريطانيا هى وحدها التى كانت
تحرّم الغناء داخل الكنيسة ويلتزم اتباعها بارتداء الملابس السوداء ويصرون
على حتمية إلتقشف فى تصميم معمار كنائسهم وديكورها الداخلى.

لن أنسى أن واحدة من أجمل أغنيات البوب فى بريطانيا السبعينيات
والتي غنتها أشهر مطربة وقتها الفنانة بتيولا كلارك ومن بعدها المطربة
سيندى بلاك ثم غيرهما كانت أغنية دينية (ليست من الإنجيل) بعنوان "
يسوع المسيح نجم النجوم " وتؤدى شدة الانفعال والطرب فيها الى اهتزاز

المطربة على الشاشة بفستانها السواريه الراقي فيما يكشفه شأن معلمتي التي كانت تصلى والجزء الأكبر من فخذاها الأبيض مكشوف فى السجود على الوسادة الإسفنج المغلفة بالجلد الأحمر تحت ركبتيهما فى فترة موضة الميكرو جيب...

وهكذا تعلمت أن الله لا ينظر إلى صورنا وأجسادنا بل إلى قلوبنا كما يريد المهيمنون على شئون العباد والعبادة فى ديار الإسلام أن نصدق وهم يفعلون كل ماينافى تصديقهم لهذا . وليست حمى التركيز على سكوك الشيطان فى جسد المرأة وكونه - أى جسدها - هماً مستمراً يدعو إلى القلق والتفكير فى ردمه هو وصوتها معاً سوى نموذج لعقلية أو لنمط فى التفكير قائم على الإصرار على وظيفة الإنابة ودور يماثل ذلك الذى قام به قاضى مارسيل الذى يتصور أنه يحمى شيئاً غاب عن عيوننا وأسماعنا كونه يتعرض للإهانة عندما أصدر قرار إهانة مارسيل وإهانة الدين الإسلامى نفسه وفق هكذا تفاسير للحماية.

ماذا نفعل بكل القصص المقدسة إن لم نغنها ؟

ماذا نفعل باليشر المقدسين إن لم نصورهم ؟

أيقونات المسيح وصوره فى أناجيل الأطفال المرسومة فى أوروبا تظهره بشعر بنى وعيون بنية بينما فى مارآيته فى الفن القبطى والكاتدرائية المرقسية بالعباسية شعره أصفر وعيونه زرقاء . أم النور العذراء تختلف ألوانها بين البلاد وفى بعض البلدان الإفريقية تماثيلها سوداء ولم نسمع أبداً من احتجاجات كنسية.

من يفتنى فى موضوع عدم تصوير بشرية الصحابة سينمائياً وأنا قد رأيت الوجه الرجولى لعلى بن أبى طالب داخل برزاز جميل عند صديقة إيرانية وحوله الشمع والورود فى غرفتها ثم فى قاعة تطل على الحديقة حيث كان البهاشيون والشيعية والزراشت من الزملاء يحتفلون بالنيروز (يسمونه النوروز) ويشعلون نارهم أمام معشر الانجليز بإدارة الكلية التى أعطت الإذن بالاحتفال برأس السنة الايرانية متحيزة فقط من احتمال نشوب حريق ؟

كيف نستطيع أن نجزم أن الوجه فى البرواز يختلف عن وجه القائل " لو كان الفقر رجلاً لقتلته " ؟

ومن يملك تعليقاً لنيلوفر الإيرانية التى أبدت استغرابها من تدلى تمثال صغير لراهب بوذى يرقص من سلسلة فى عنقى فسألتنى ان كنت مسلمة كما فهمت ولما سألتها عن صورة المعمم البارزة على قرص ذهبى فى سلسلة بعنقها صاحبت بدهشة لاأنساها: " محمد" .

غادة نبيل

نطاعة بالقوة وبالفعل!

يمتلئ الشارع المصرى (الآن) بظواهر سلبية ، ومظاهر سيئة ، لا أجد ما أسميها به إلا (النطاعة) ! .. والنطاعة ، إذا بحثت عن معنى لها فلعلة أن يكون مرادفا -مثلا (للبيحاجة) ! .. أما إذا أردنا أن نعثر على تعريف ما جامع مانع شامل للنطاعة والبيحاجة معا- ولو بطريقة اجتهدية- لقلنا إن (النطاعة) هى أخذك ما لاحق لك فيه و (بيحاجة) كمان ، وبطريقة هى أقرب إلى العنف والتهديد والانتذار والتوعد والابتزاز ! .. وبالتالي فالنطاعة هى شكل من أشكال الاغتصاب إذا أردت الحقيقة ، ولكنه اغتصاب (بالقوة) يوشك أن يكون- فى أى لحظة -اغتصابا (بالفعل) .. ولكنه يبقى (اغتصابا) على أى حال ، سواء استقر عند حد (القوة) أو تجاوزها إلى حد (الفعل) ! وحتى لا تتوه معنا ، عزيزى القارئ ، فى هذه التحاليل الفلسفية المثقفة السوفسطائية (العاجزة عن أى فعل) .. دعنا نهبط معك من سماء التجريد إلى أرض التجسيد ، أو من دنيا المثال والخيال ، إلى واقع الحال، الملئ بالاستعباط والاستهبال ، فى كل الأحوال.

فمثلا .. هذه الشخصية الطفيلية العجيبة، التى لا تعثر عليها إلا فى شوارع القاهرة (فقط) فى غالب الظن، ولا وجود لها- بالتاكيد- فى أى مكان من العالم المتقدم أو المتخلف سواء .. وهو هذا النطع الشحط الذى تنشق عنه الأرض فجأة كلما أوشكت أن تترك سيارتك فى شارع من شوارع ربنا (بتاعة الحكومة) حيث يشير إليك بإشارات لا معنى لها ولا ضرورة بالنسبة لك ولا تعنيك فى شئ عند وقوفك أو مغادرتك .. وكأنه يحاول أن يقنعك (بالعافية) أن لا قدرة لك على ركن السيارة أو الخروج بها من غير إشاراته العبقريّة وحركاته الملهبية ، التى يبقى الغرض الوحيد منها أن (يستنتعك) فى نصف جنيه على الأقل لأنك إذا تهورت وأعطيت ربع جنيه فقط، سينظر إليك شزرا ، ويوشك أن ينتقل بنظراته من حد (القوة) إلى حد (الفعل) السابق الإشارة إليهما ، لولا أنك تسارع بالاعتذار والتأسف متضرعا إلى حسن ادراكه للأمور .. بأنه ليس معك فكرة فعلا .. وإذ به يكاظم غيظه ، وصابرا عليك ،

يصرخ مفجماً لك، ومبطلا لحججك التعبانة البائسة : هات .. أفك لك يا أستاذ! ويسقط في يد الأستاذ .. ويشعر انه لو لم يخرج فوراً الورقة الكبيرة المطلوب فكها سيحدث ما لا يحمد عقباه بالانتقال المباشر السريع من حد القوة إلى حد الفعل .. وتعزى نفسك- وأنت تدفع له بالورقة صاغراً- بأنك تصرفت بحكمة وعقل حفاظاً على هيبتك وسيارتك وربما حياتك! .. وفي ثوانٍ يخرج من جيبه رزمة ضخمة من أوراق البنكنوت ، هائلاً من طرف خفى بتحديدك الذي اعتبرته جباراً له بإعطاء ورقة من فئة الخمسين جنيتها ، وإذ به في سرعة البرق ،حتى لا تغفل منه السيارة الأخرى الموشكة على الإقلاع ، يعطيك ٤٩ جنيتها ، منصرفاً عنك بلا لحظة تردد واحدة ، وبدون أن يرمش له جفن ، ودون أن يبدي حتى شيئاً من احترام مدعى ، وتأخذ بقبية فلوسك ، مقهوراً ، مغتاضاً ، يائساً ، بائساً ، لعنا اختيارك للوقوف في الشارع ، توفير لجنيته تدفعه في جراج محترم آمن ظليل ، على اعتبار أن مشوارك لن يستغرق إلا دقائق معدودات !. وتتابعه بنظرارك ، وهو يكرر المسألة مع ضحية أخرى ، وتتعجب لهؤلاء الأنطاع الذين ملأوا شوارع البلد ، وهم جميعاً في هيئة المصارعين مفتولى العضلات بكامل الصحة والقوة والشباب ، ويستخدمون قوتهم في إرهابه ، أنت وغيرك ، وفي عمل استنطاعي من الدرجة الأولى، غير منتج ، ولا معنى له بالمرّة ، فأنت لست بمعجز من أن تقف وتقلع في شوارع الحكومة لوحدك ! .. وتعجب كيف للحكومة ، ولوزارة الداخلية ، تطلق يد هؤلاء الأنطاع وأمثالهم ، في فرض (الفردة) الممنعة على الناس ، وتشعر أيضاً ، أنك تدفع ما تدفعه في معظم الأحيان! لا لقيامه بخدمة لك -حقيقية أو مدعاة- وإنما لدفع شره ، وشراء أذاه ، ودفع عنقه المستتر عن أن يتوجه إلى سيارتك في غيابك بالتهريب انتقاماً منك (لسبب لا تدريه) .. ويزداد عجبك حينما تلاحظ أن بعض هؤلاء الأنطاع الآن ، يضعون ترخيصاً نحاسياً يلصق في أشعة الشمس من البلدية أو المحافظة- الله أعلم- يعطى لعملهم (المتنطع أصلاً) صفة رسمية ! .. وذلك لأن هناك (متنطعاً) آخر- موظفاً هذه المرة- يجلس على مكتب أو خزينة حكومية ، يتقاضى من هذا الشخص الطفيلي صاحب العمل يجلس على مكتب أو خزينة حكومية ، يتقاضى من هذا الشخص الطفيلي صاحب العمل- أقصد اللاعمل- الطفيلي جزءاً من إيراده السافل الطفيلي ، تحت مسمى ضريبة طفيلية ، يتقاضاها النطع الموظف من النطع الشوارعى من قفا ضحايا النطاعة المواطنين المغلوبين على أمرهم ، دون أن يسأل نفسه هذا الموظف -كبير كان أو صغيراً- هل هذا يحق له ؟ .. هل هذا تصرف مشروع أملاً ؟ .. وبالمعجب العجيب من بلد تمنع الشرعية القانونية ، والشكل الرسمي ، والاعتبار الحكومي ، لما هو غير مشروع فعلاً ، لأنه لا يخرج -في جوهره- عن كونه نطاعة وبطلجة وبجاجة ، بالقوة وبالفعل معاً!

ماجد يوسف

لا جائع ولا أُمى

. قالت لى صديقتى المدرسة الشابة فى إحدى مدارس «امبابة» الابتدائية إنها تمعّج عن مساعدة الأطفال المكسّين فى الفصل على الاستيعاب لأن الكثيرين منهم يأتون إلى المدرسة دون إفطار ، وتبدو على وجوههم علامات سوء التغذية ، وينام بعضهم فى الفصل خاصة فى الشتاء عاجزين عن التركيز.

تذكرت ما كان «أمين فهم» رئيس جمعية الصعيد للتربية قد قاله فى حوار مع راديو لندن حول دور الجمعيات الأهلية .. قال :إن الفقر فى صعيد مصر أخطر مما يتصور أحد .. ونحن فى «جمعية الصعيد» نتعامل مع مائلات ترسل الأبناء بالدور إلى المدرسة إذ ليس لديهم سوى حذاء واحد ، ويتناول بعض الأطفال إفطارهم بالدور أيضا من يفطر اليوم لا يفطر فى الغد..

كنت قد نسيت ، وتذكرت وصديقتى تحكى أن امبابة قريبة جدا من العاصمة وذات مساء أخذت أقلب الصفحات الداخلية لجريدة فقرأت أن مناقشات المجلس المحلى لمحافظة القليوبية - وهى بدورها قريبة جدا من القاهرة- كشفت عن تدهور العملية التعليمية فى المحافظة وتعانى مدارسها فى القرى والمراكز العجز الصارخ فى مدرسى اللغة الانجليزية والعربية والرياضيات ، وزيادة الكثافة العددية للطلاب فى الفصول مما يؤثر على درجة استيعابهم ، إضافة إلى تكديس أجهزة الكمبيوتر فى مخازن المدارس دون فائدة كذلك عدم الانتهاء من ترميم بعض المدارس. وجاءتنى «صابحة» من حلوان تحمل شكوى تريد أن أنشرها فى الجريدة. ابنها طالبة فى إحدى

الثانويات الصناعية رفضت إدارة المدرسة أن تسمح له بالانتظام فى الدراسة لأنه لم يسدد مائتى جنيه مصروفات العام بل ورفضت الإدارة أن تقسط المبلغ على مدى العام.

أما أوجاع «حميدة» التى خرج ابنها «محمد» و«محمود» من المدرسة لأسباب مختلفة رغم الوساطات وأشكال الرجاء فلا تزال حية فى الذاكرة لأنها تزورنى بين الحين والآخر باحثة عن عمل لها وعن سكن آدمى لها وعن بضيض أمل.

هؤلاء الأبناء والبنات هم بعض من حملت طيلة عمرى بأن أكتب لهم عن وطن جديد حر. عن شعب سعيد تتفتح كل قدراته ويستطيع كل فرد فيه أن يسيطر على مصيره ويصل إلى أبعد ما يمكن أن تحمله إليه طاقاته وأحلامه، وها هم عاجزون عن القراءة وأنا أحلم نيابة عنهم فماذا أفعل الآن؟ ولئن أكتب؟ وما جدوى الكتابة؟

هل كان صلاح جاهين مثيرا للسخرية حين قال: أحلم بتماثيل رخام ع الترع وأوبرا» وهل كانت دعوة طه حسين «إلى تعليم مجانى فى كل المراحل مع مكافآت ووجبات لكل التلاميذ مجرد رؤية لفكر رومانسى؟ أخذت أنا أنتقد دعوته قائلة إنه يتصور أن المجتمع سوف يتغير إلى الأفضل لو وجد من ينفذ برنامجه للتعليم وذلك دون أن يضع برنامجا أشمل لإعادة توزيع الثروة فى البلاد..

والآن وقد تمت بالفعل عملية وحشية لإعادة توزيع الثروة حتى ازداد الأغنياء غنى والفقراء فقرا منذاً سوف يكون بوسعه أن يفرض على التحالف الطبقي الحاكم مضاعفة ميزانية التعليم مرات ومرات وإقرار مجانيته الفعلية وإلزاميته سوى حركة شعبية متنامية وديمقراطية تضم بين جناحيها كل هؤلاء فأكتب من أجلها وأحلم بعالم جديد تبنيه ليس فيه جائع ولا أمدى.

وحتى لو بقيت هذه الحركة جنيئا يكبر على مهل وينضج فى الألم العظيم خارجا من الحصار والعنف المادى والرمزى فإننى أمنحها قلبى .. وأقول مع محمود درويش دون أعرف من هم الذين قمعت بجر شكلهم: «هل يعرف البوليس أين ستحمل الأرض الصغيرة بالرياح المقبلة».

فريدة النقاش

خية .. بنت البلد

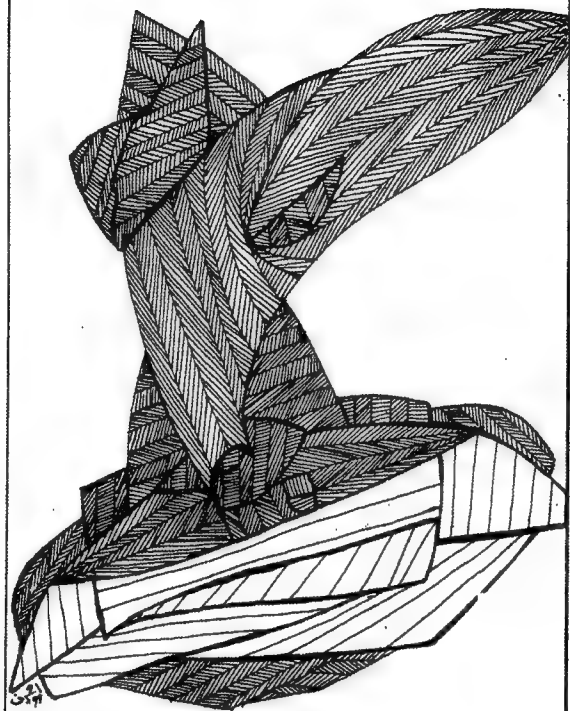


أجمل ما فيها أنها (بنت بلد).

بنت بلد « بكل ما كان يشير إليه هذا التعبير من معان وقيم اجتماعية وخصال شخصية. ففي الوعي الشعبى العام كان هذا التعبير دلالة موجزة على صفات وقيم الشهامة، والغيرية والجسارة والاعتداد بالنفس، وكلها صفات إلى جانب وعيها الفطرى، استندت عليها الفتاة الصغيرة (بدوية محمد كريم) منذ خرجت من مدينة الاسماعيلية ولم يتجاوز عمرها الرابعة عشرة، إلى عالم القاهرة الواسع بكل ما يموج به من بشر وصراعات وأحداث. ولولا هذه الصفات لما تمكنت من مواجهة تحدى وجودها الإنسانى كأنتى ناضجة مستقلة وفنانة مبدعة، ولربما انتهى أمرها سريعا إلى متسولة بائسة، لكنها استطاعت أن تحفظ لنفسها مكانتها وجدارتها وأن تجعل اسمها «خية كاريوكا» علما لأكثر من ستين عاماً.



ولدت «بدوية» أو خية- كما أصبحت تعرف فيما بعد- عام ١٩٢٠، لأب تاجر لكنه مزواج مسرف مات مفلسا، وكان على ابنته الصغيرة أن تتجرع الفقر وتسلط الأخوة الذكور. ومقاومة أخيها الأكبر لعلها أن تكون مثل جارتهم (سعاد محاسن) راقصة شرقية. وإزاء رفضه العنيف الذى وصل حد



حلاقة شعر رأسها ، فرت إلى القاهرة تبحث عن جارتها . ولصغر سنها عملت كمبارس لفترة بصالة « رتيبة وإنصاف » بضع سنوات إلى أن قدمتها جارتها إلى الفنانة الأشهر في زمانها : بديعة مصابني بحيث كانت كوكبة النجوم، ببشارة واكيم وفريد الأطرش ومحمد فوزي وعبد المطلب ومحمود الشريف وفتحية أحمد ورسما عيل ياسين ومحمود شكوكو .. وغيرهم.

لكن بديعة لم تتعامل معها كراقصة أو كمبارس ، وإنما كأبنة يتيمة تحتاج إلى رعايتها.

إلا أن (بنت البلد) المتمردة سرعان ما ترفض استمرار علاقة العطاء باتجاه واحد ومشاعر الإحسان والعطف التي تحاصر بها بديعة ، فتسعى إلى مدرب الفرقة ليدر بها سرأ بعيدا عن عين المعلمة . وتشتري لنفسها بدلة رقص لتفاجئها وهي ترقص منفردة .. رقصا آثار إعجاب الجمهور كما آثار غيرة راقصة الفرقة الأولى في ذلك الوقت (حورية محمد) . وربما آثار مشاعر التحدي لدى راعيتها الأكبر ، فرفضت علاقة الندية التي أرادت الفتاة الصغيرة أن تفرضها عليها . فحرمته عليها الرقص.

واللافت للانتباه هو تفسير «تحية كاريوكا» بعد سنوات طويلة لهذا الموقف وبعد أن حققت نجاحا مدويا ، فهي لا تحمل إلا مشاعر الامتنان لمعلمتها وتلتزم لها العذر فتقول بتواضع بنت البلد:

«كانت تريد أن تعلمني أن النجاح لا يأتي بسهولة وكانت تخاف على من الغرور واندفاع الشباب» .

وقد يكون تفسير بنت البلد أكثر صوابا منا ، إذ قررت بديعة مصابني أن تخصص «تحية» برقصة خاصة رأتها في فيلم «الوصول إلى ريو» فكلفت مدرب الفرقة (إيزاك نيكسون) أن يدرّب تحية عليها ويعلمها كيف ترقص مثلما رقصت (جنجر روجرز) في الفيلم على أنغام الرومبا . ونجحت تحية في أداء رقصه «الكاريوكا» حتى التصق بها اسمها وصارت تعرف منذ عام ١٩٣٩ باسم تحية كاريوكا.

رأت تحية في الرقص الشرقي فناً جميلاً أحبته وسعت إلى امتلاك أدواته وأسراره لإجادته ولتطويره كفن تعبيرى .

وكان ذلك تحدياً جديداً لها مع مجتمع يضع الراقصة في مرتبة الجوارى والمحظيات . ويتخذ موقفاً ملتبساً من هذا الفن، يشوبه الغموض والتناقض

ما بين الاحتياج إليه والاعجاب به سراً ، وإنكاره ورفضه علناً .
وهو موقف يشبه ما تعرضت له كل الفنون الشعبية المعهود طويلة .



قبل طه حسين لم يكن أحد من جماعة المتعلمين يكتثر بما يتداوله العامة من حكايات وأغانٍ وأقوال تجرى على ألسنتهم مجرى الحكمة والقانون . وكان الظن أن هؤلاء الاميين غارقون فى بحر من الجهالة والتخلف . واختلط عند هؤلاء المتعلمين مفهوم الثقافة بمفاهيم التحضر والمعرفة لأبجديات عربية ولاينية يرطنون ببعض كلماتها كطلائع لا يعرف غيرهم معانيها ، فاستأثروا لأنفسهم بلقب (المثقفون) . ثم كرست الملابس التاريخية التى صاحبت الاحتلال الأجنبى والتفوق المادى والتكنولوجيا الأوروبى تعميق الهوية التى قامت بين جماعة المثقفين وغيرهم من أبناء شعبهم الذين بقى كل ما يقولونه أو يفعلونه موصوماً بالتخلف .

وحده طه حسين الذى أدرك أن للشعب المصرى ثقافته (المختلفة) لا (المتخلفة) ، وحين كشف مما تحويه تلك الثقافة الشفاهية من فنون الأدب وسحر البيان وبلاغة التعبير ، ثم قاد تلاميذه إلى نفض الغبار عن تراث الحكايات والسير والأمثال والأغاني الشعبية ، وبفضل بصيرته نجحت سهير القلماوى وعبد الحميد يونس ورشدى صالح فى رد الاعتبار إلى الأدب الشعبى .

ثم تواصل العمل العلمى بجهود الأجيال التالية من الباحثين فى الكشف عن جوانب أخرى من كنوز الفن الشعبى شملت فنون الأداء التعبيرى وصور الثقافة المادية والعمارة الشعبية والعادات والتقاليد . وتدعمت هذه الدراسات بفضل مناخ المد الوطنى والقومى الذى رافق ثورة يوليو ١٩٥٢ ليصبح لتلك الدراسات علم يجمعها هو (الفلكلور) أو التراث الشعبى الذى أصبح محل عناية أكثر من جهة رسمية وعلمية .

غير أن هذه الجهود لم تغلح - حتى الآن - فى تغيير الموقف العام للمثقفين أو المتعلمين تغييراً شاملاً فى نظرهم إلى ثقافتنا الشعبية . فما زالت مشاعر الإنكار أو الاستعلاء قائمة بينهم تجاه بعض صور وعناصر الثقافة الشعبية .

أما (الرقص الشرقي) فنحاله أسوأ . إذ يلقي الإهمال والإنكار ليس فقط من المتعلمين بل أيضاً من باحثى علم الفلكلور أنفسهم . الذين لم يجدوا له حتى الآن مكاناً فى تصنيفاتهم العلمية للثقافة الشعبية . ويترفعون عن دراسته أو حتى الحديث عنه إذ هو مختلط عندهم بمفهوم (الفعل الفاضح) . ويرى بعض خبراء الرقص أنه مجرد حركات لاستثارة الفرائز بهز البطن والأرداف تخلو من أية دلالة تعبيرية ، وغير قابلة للتطور والارتقاء لتبلغ ما بلغه فن الباليه .

والملاحظ أن هذا المنطق يخلط بين المعايير العلمية أو الفنية والأحكام الأخلاقية فى رؤيته للرقص الشرقي . . والأحكام الأخلاقية قد تفسر الموقف العام من هذا الفن ، وهى كما نعلم أحكام نسبية ومتغيرة لكنها لا تصلح لبناء موقف نقدى صحيح من أى عمل فنى . وهى قد تفسر اعراض المؤسسات الرسمية من دراسته وإحجام الجانب الأعظم من الفتيات عن اتخاذ مهنة لهن بينما تقبل فتيات أخريات من روسيا وأوروبا على التدريب . عليه والعمل به عندنا . لكن المعايير الأخلاقية وحدها لا تفسر بقاء هذا اللون من الرقص حتى الآن . أما التقييم الفنى له فما زال بعيداً عن اهتمامات الجميع .

وقد لا يكون لهذا الفن مكان بين الفنون الشعبية أو الرسمية . لكن استمرار المشاهدين فى الاقبال عليه يدعو للسؤال عن معنى هذا الاستمرار الطويل . فهل له ضرورة اجتماعية أو وظيفة حيوية تدفع إلى استمراره فى حياتنا؟

هذا هو السؤال الغائب الذى لم يطرحه أحد - فى حدود علمى - حتى الآن . وإن كان أديبنا الكبير نجيب محفوظ قد اقترب منه فى ثلاثيته الكبيرة عند تعرضه للعلاقة بين السيد أحمد عبد الجواد ورفاقه مع زبيدة العالة وتلميذاتها ، فلم يكن الجنس محوراً لهذه العلاقة التى جمعت مجموعة من الرجال المتزوجين فى مسكن (العالة) التى لم يقدمها الأديب فى أى موقف يمكن وصفه بالمعهر . كانت هذه العلاقة كما بين لنا نجيب محفوظ تمثل « محطة لالتقاط الأنفاس » أو ثغره فى جدران نظام سياسى واجتماعى قائم على التسلط والقهر ، ويفضلها يمكن للأفراد احتمال الضغوط المفروضة عليهم يومياً والقيام بأدوارهم الاجتماعية .

ربما يكون المجتمع قد اخترع مهنة الراقصة الشرقية لينفث الأفراد عن ضغوطهم . ولتصبح الراقصة فى حياة كل منهم هى المرأة الأخرى التى تقدم إليه ما لا تقدمه الأم أو الزوجة . وأحيانا يقع الخلط بين دور كل من (الراقصة) و(العاهرة) بسبب النظرة الاجتماعية الغالبة للعري وملابس الراقصة التى تكشف عن أجزاء من جسمها . وربما أيضا لبعض الحركات والإشارات المبتذلة التى تقوم بها بعض الراقصات ، إلا أن أداء تحية كاريوكا وراقصات أخريات كان يخلو تماما من هذا الابتذال ، وأظن أن هذا هو الخط الفاصل . فالعري بحد ذاته ليس هو الفيصل . إنك تشاهد لوحة عارية لفنان مثل مايكل أنجلو وغيره من الفنانين فتشعر بسمو وجدانى وممتعة فنية خالصة بينما تشعر بالابتذال فى صورة فوتوغرافية أخرى .. الجسم العارى لا يثير فى المحقق أو الطبيب أو دارس الفن شعورا بالابتذال ولا يثير فى أحد منهم غرائزه الجنسية . بينما قد تبدو امرأة أو رجلا غاية فى الابتذال وكل منهما فى كامل ثيابه.

فقط .. الأداء وما يضيفه من معان هو الفيصل ، وكانت تحية كاريوكا فى أداؤها ورقصها فنانة بحق ، يتسق أداؤها الفنى مع الحالة الثقافية والتيارات الفنية المعاصرة لها.



قبل أن تكشف تحية كاريوكا عن ملامح جسمها ، كان محمود سعيد مفتونا فى لوحاته بما يشيعه الجسد الأنثوى من طاقة متدفقة بحب الحياة . وكان محمود مختار مشغولا بترويض الصخر . ليكتسب الاستدارة وانحناءات الخطوط والكتل فى جسم الفلاحة المصرية وحاملات الجرار والخماسين . وتجاسر بيرم التونسى فرأى فى فتنة الجسد دليل إعجاز الخالق ومدخلا للإيمان بقدراته فخطبه قائلا:

ولك قوالب فى الأجسام

غلب الرسام

يقلدك بحجر ورخام

يلقاك أشطر.

أما تحية كاريوكا فتقول : «أنا أعتبر أن المناخ الفكرى والثقافى الذى

تفتح عليه عقلى بفضل مساعدة سليمان نجيب واتصالى بطبقات متفاوتة من البشر هو الذى فجر روح الثورة فى أعماقى وجعل اهتماماتى تتجاوز الشكليات والقشور التى تبهر النساء إلى ما هو أهم وأعمق».

كان سليمان نجيب هو الذى قادها إلى عالم أرحب فيه الشاعر عزيز أباظة والكاتب محمد التابعى وأحمد حسنين وأسمهان ومحمد عبد الوهاب وغيرهم عندما كان يصحبها أسبوعيا إلى الأمسيات الثقافية والشعرية التى كانت تعقد بالنادى الأهلى . واستطاعت «بنت البلد» بذكاؤها أن تنضج وعيها الفطرى بأبعاد إنسانية ووطنية أعمق . انعكست على أدائها الفنى ، كما انعكست على مواقفها العامة.

وقد نرى ذلك فى بعض سمات أدائها الفنى القائم على الحركة الهادئة البطيئة فى حيز محدود المساحة ، تعيد بتحريك ذراعيها إعادة التشكيل فى تكوينات أو موتيفات متكررة شيئا يشبه الايقاع المتكرر للوحدات الزخرفية وتفعيلات بحور الشعر.

وما كانت (بنت البلد) تشعر بأن أنوثتها شئ منكر ، أو نقيصه ، بل كانت فرحة بهذه الأنوثة فتكشف بحركاتها عن شاعرية الجسم الجميل بحركات متدفقة هادئة تبعث على الفرح بالحياة وتشيع البهجة فيمن حولها ، وبهذه الحركات تدنو وتتباعد فى قربها يشعر المشاهد كأن ثمرة الحياة الناضجة قد دنت منه وحده لكنه سريعا ما ينتب إلى بعدها الشاهق عنه ، فيرتد إلى عالمه الداخلى . وتلك حالة تناسب المشاعر الرومانسية الشائعة فى زمنها ..
زمن بنت البلد.

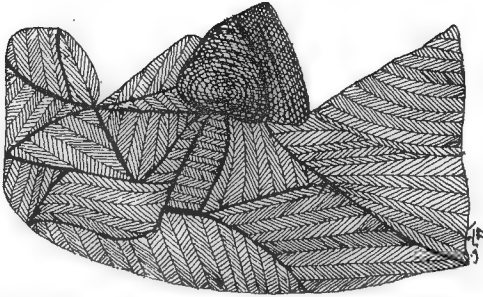
أحمد عزب العرب

لعبة الست

أحس الكثيرون منا بالاستغراب حينما وجدوا المفكر العالمى- الفلسطينى الأصل- ما بعد الحداثى، إدوارد سعيد يكتب عن تحية كاريوكا قبل عشر سنوات ، ثم يعود للكتابة عنها منذ أسابيع ، بعد أن انتقلت إلى رحاب السماء. وقد كنت واحداً من هؤلاء المستغربين ، منطلقاً من سؤال يقول: ما الذى يجمع بين الراقصة والمفكر ؟ ثم : أليس الفكر مختصاً بالفوص فى المسائل العويصة المعقّبة ، لا الفوص فى الرقص وقلة القيمة ؟.

لكن هذا الاستغراب راح يزول ، رويداً رويداً ، بعد قليل من التأمل ، خاصة حينما تذكرت أن رولان بارت كتب عن مادونا ، وأن يؤسف إدريس كتب عن الخطيب . وأدركت أن السؤال الصحيح فى مثل هذه الحالات ليس: لماذا كتب المفكر أو الأديب عن الراقصة أو المغنية أو اللاعب ؟ ، بل : ماذا كتب ؟ ، وبالقراءة المتعمقة لما كتبه هؤلاء عن هؤلاء ستعرف أن كثيراً من الظواهر أو الشخصيات أو الحالات التى نعتبرها- نحن أهل الثقافة المحترمة -خارجة عن نطاق عملنا الجاد ، إنما هى ظواهر وشخصيات وحالات تكتنز مجموعة هائلة من الدلالات على الحياة والمجتمع والتطور الثقافى والحضارى .وعلى رأس كل ذلك مثال: تحية كاريوكا.

الراقصة التى انتقلت بالرقص الشرقى من طور بديعة مصابنى (يمكن تسميته : الطور التقليدى) إلى طور جديد (يمكن تسميته : الطور الحديث) صارت علامة عليه ، كمدرسة مميزة حتى أن فيروز الصغيرة قالت فى فيلم « ذهب : » « طبل لى وشد الدرابوكا »وارقص لك فششرت كاريوكا» .وهى الفنانة التى ساعدت حركة المقاومة الشعبية فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات (وهى الفترة نفسها التى انتقل فيها الشعر من طوره التقليدى العمودى إلى طوره الحديث الحر- لاحظ المواكبة بين الرقص والشعر) حتى

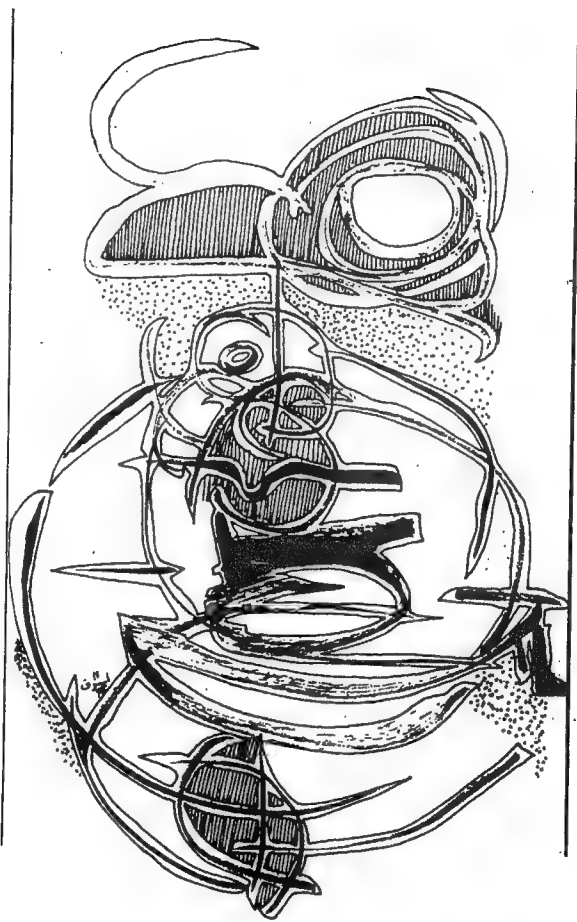


اهمها البعض بالشيوخيه (مثلما اتهم رواد الشعر الحر) . وهى السيدة التى عاشت حياة طويلة عريضة تنقلت فيها- بخفة الراقصة المبدعة- بين التمثيل والفقر والغنى والرقص والسينما والزيجات والنضال الوطنى والمسرح والتحجب الدينى فى مركب مصرى عجيب.

كاريوكا: الراقصة التى مثلت دور الراقصة فى عنفوان الصعود ،ومثلت دور الراقصة فى شيخوخة الغروب ،مقدمة قوسا باهراً بين «شباب امرأة» حيث الفتنة والإغواء ،وبين «خللى بالك من زوزو» حيث ارتضت أن يصفوها بأنها «شوال المورتا ديللا» وقد أنجزت قوسها الكبير بلا حرج أو مداراة ،وكان بإمكانها أن تتحصن بجملتها الخالدة فى «لعبة الست» : «ما أقدرش ، ما أقدرش».

هكذا تجسد تحية كاريوكا حالة فريدة من حالات تحول التمثيل إلى حقيقة ، وتحول الحقيقة إلى تمثيل ، فلا نعرف الخط الفاصل فى سيرتها بين الحياة والسيناريو . لكننا حين نتدبر حياتها الكثيفة وموتها وحيدة فقيرة ، لا نستطيع إلا أن نتذكر «الأم شجاعة» لبريخت ، ولا نستطيع إلا أن نتلقى شريط حياتها المتنوع باعتباره «لعبة الست» . وهنا لن يكون غريباً أن يكتب إدوارد سعيد- أستاذ العولة -عن كاريوكا «العالم» ، حيث ثمة شعرة تراجميدية رفيعة بين «العولة» و«العوالم» ، فى عصر يقدر الصورة والعرض ولغة الجسد.

حلمى سالم



مات سارق الفحم

عبد المنعم رمضان

تتدانى جزئياتها وتتلاحم ، وتستقر
عند مكان قرب البحر ، أبلغه ،
فأجدها قد أصبحت على هيئة شيخ
فى الثمانين ، له لمية طويلة وهشة ،
وعلى جبينه لمعة بيضاء تخالف لون
جسده من غير سوء ، لها نور يتلألأ.
" السلام عليكم " واستندت على
درايزين الشاطئ ، ووقفت أمامه ،
وقبل أن يرفع رأسه ، وينظر فى
وجهى ، سألتنى : من القاهرة أنت ؟

قلت : نعم

سألتنى : هل تعرف زقاق
القناديل ؟

أجبت : لا

سكت طويلا ، فتهيببت وتهيبات
للانصراف ، وأنا أوشك أن أفعل ،
فاجأنى :

كانا - زوجتى وابنى - واقفين
ينتظراننى ، ويتأملان ويخشيان
أيضاً أهل الله الجالسين على الأرض
بأسماهم المتسخة وعيونهم ذات
البريق الفامض ، ووراءهم أو أمامهم
جميعاً كان البحر ، واسكندرية كلها
تغتسل فيه ، والشمس تحاول
الهبوط أيضاً ، وكنت أفكر فى
القطار الذى سيقلنا فى الساعة
مساء إلى القاهرة ، وأنه يجب أن
أفادر ساحة المسجدين ، مسجد أبى
العباس المرسى ، ومسجد البوصيرى
، ولأعرف لماذا شممت رائحة بخور
ظننتها تهب من خلوة بعيدة جداً ،
خلوة سيدى الشيخ الأكبر ، ولأعرف
لماذا سعيت خلف الرائحة ، أستزيد
وأقترب وأرجو أن أرسو ، والرائحة

كنت سأنهض إلى زقاق القناديل ،
إلى أصحاب خلصاء هناك أبو
العباس الحريري الإمام ، وأخوه
محمد الخياط ، وعبد الله الموروري ،
ومحمد الهاشمي اليشكري ، ومحمد
بن أبي الفضل ، هل تعرف ، إنني
أفر من قبري ، منذ أيام وفد
مشيعون ورجال حكم ، ولحادون
حفرُوا وأدخلوا رجالاً عراقياً سمعتهم
يندبون ويبرثونه ، مات عبد الوهاب
البياتي ، قلت لنفسى بعد أن
ينصرف المشيعون واللحادون
سأتعرف عليه وأرحب به ، وأمينه
على التآلف والاعتقاد ، إن كل إنسان
هو ابن الأرض كلها ، ولا تهمنى
جنسيته ، ولكن هل تعرف أننى
قابلت فى بغداد الشيخ شهاب الدين
عمر السهروردي صاحب عوارف
المعارف ، نظرنا كل منا إلى الآخر
وقتاً طويلاً كنا صامتين جداً ،
وانفصلنا دون أن ينصرف الصمت ،
وبعد زمن أبغنى تلاميذه أنه قال
لهم : إن ابن عربى بحر الحقائق ،
وفى مكة كانت عين الشمس والبهاء ،
ست المملوكين ، وست الدنيا ،
النظام بنى مكن الدين أبى شجاع ،
والتي تجلت دائماً ساحرة الطرف ،
عراقية الطرف ، أبهجتنى النظام ،
وشعشت ، فأوجت بكتاب هو
قصائد غزلية موجهة إليها فى

الظاهر ، جعلت عنوانه " ترجمان
الأشواق " وخارج الموصل ،
وبالتحديد فى بستان على بن عبد
الله بن جامع ، تلقيت لثالث مرة ،
خرقة الخضر ، أشهد وأعترف أننى
تلقيتها من يدى ابن جامع الذى
تلقاها مباشرة من يدى الخضر نفسه ،
وحرصت فى أحوالى ومقاماتى أن
أضع العراق فى عيون أحبائى ، وأن
أضع أحبائى فى عيوني ، ونتوكل
على الله ، ولكن عندما وفد اللحدون
، وحفروا وأدخلوا رجالاً عراقياً يقال
له : عبد الوهاب البياتي ، قلت
فلأتذكر موتى ، كانت الليلة التى
قبضت فيها ، ليلة جمعة ، حولى
أهلى وأصحابى ، ودمشق النائمة
تتأرجح بين آخر الخريف وأول
الشتاء ، وابن الزكى لا ينفذ حياؤه
ولا يستنفذ كرمه ، وبعد أن زارنى
الملاك الضائع وانطلقنا معاً ، تركنا
خلفنا حجرتى وعصائى وجليابى
وجسمى ، لم يعترض سبيلى أحد ،
فقط قام ابن الزكى مع السيدين ابن
عبد الخالق وابن النحاس بواجبات
الضيافة ، وحملوني إلى خارج
دمشق حيث القرية القائمة على سفح
جبل قاسيون ، قرية الصالحية ،
همس أحدهم ، لقد زارها الأنبياء
جميعاً ، ونظفوها ، خصوصاً الخضر

غسلها بدموعه ، وبينما أتذكر موتى ،
إذا بالعراقى الوافد يستيقظ وينهض
ويخبط الأرض بقدميه وينشد كأنه
شاعر:

النهر للمنبع لا يعود

النهر فى غربته يكتسح السدود
قلت: لعل لوثة أصابت الرجل
وأذهلته ، لا بد أن خياله مازال
يلتصق بالتراب والغبار وصناديق
الوقت ، فلنتركه ، ولننشفل عن
عباراته البرانية ، وننتظر ، بعد
قليل سمعت فاصل شهيق ، وفاضل
زفير ويكأ ، وسمعت كلاماً من
النسيج نفسه ، كلاماً برانياً ، كان
كأنه يعرفنى ، ويختال على ،
ويتمادى ، سمعته يقول: أتيت
لأطردك فأتت أيضاً سارق نار ، لم
أفهم معنى قوله ، استمعت بجد
خالص إلى صراخه :

الفنان الثورى إذن هو تجسيد
لإرادة الكائنات المتناهية المكبوتة
المضطهدة ، وامتداد لها على مدى
التاريخ عبر لحظات التجدد إلى ذات
أكثر اكتمالاً ، هنا نصل إلى أن
الطبيعة بالرغم من تأكلها
وميكانكية قوانينها ، تتفوق على
الكائن المتناهى ، وأنها تستطيع أن
تسحقه وتعيده إلى هدرها تراباً ،
وعظاماً نخرة ، ولكن المتناهى هو
الذى يحول أحلام الفنانين

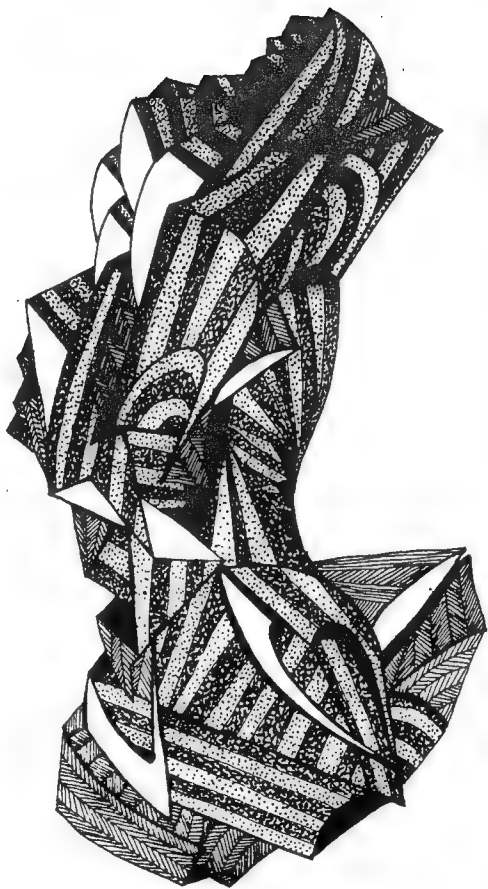
والثوريين والفلاسفة إلى واقع
وعمل ، وفى ذلك سر عظمته ، الفنان
الثورى ، الفنان الثورى.

انتهى كلام العراقى الجديد الوافد
، لم أستطع أن أحتمل المزيد من
رطائته ، فاستوحشت ، وخرجت
أبحث عن أصحابى وأستشيرهم ،
وأبحث عن أصحابه وأسألهم عنه ،
والحمد لله.

كان وجه ابن عربى فى هذه
الأيام ، قد أصبح وجه شيخ فى
الثمانين حقيقة ، عرفت اسمه من
روحه وحكاياته ، وأشفقت عليه ،
وقلت له : ستسمعى طويلاً يا أبت
انفعل وأمرنى : لاتقلها ثانية ، هل
تذكر ابنتى زينب هى فقط المسموح
لها أن تصبح : هذا أبى هذا أبى ،
وأن ترمى بنفسها فى أحضانى
وتضحك : يا أبت يا أبت ، لذا لاتقلها
ثانية والآن ، أين تفكر أن تذهب ،
هل نذهب إلى قلعة قايتباى؟

قلت له : نذهب إلى القاهرة
قال : بالقطار التوربىنى ،
الاسبانى

عيسى وقال: لن أجد محمد
الحصار فى انتظارى ولن أجد أبا
الحسن البجائى اسمع ، قابلى عند
أقدام الجبل قرب ضريح ومقام ابن
الفارض ، هيا ، قم ناولنى العصا ،



وقبل أن نفترق سأروى لك شيئاً
آخر عن بغداد ، رأيت فى واقعة وأنا
ببغداد سنة ثمان وستمائة ، أنه قد
فتحت أبواب السماء ، ونزلت
خزائن المكر الإلهى مثل المطر العام ،
وسمعت ملكاً يقول: ماذا نزل عليه
من المكر؟ فاستيقظت مرعوباً ،
ونظرت فى السلامة من ذلك ، فلم
أجد لها إلا فى العلم بالميزان المشروع ،
فمن أراد الله به خيراً وعصمة من
غوائل المكر ، فلا يضع ميزان الشرع
من يده وشهود حاله .

ابتسم الشيخ ، كان يضغط كفى
ويوصينى : حدثنى عن عبد الوهاب
أثناء سفرك ، لاتخف سأسمعك ، هل
هناك من سيسافر معك؟ أشرت
باصبعى إلى الجهة الأخرى حيث تقف
زوجتى وابنى ، نظر

وقال : من هذان ؟

قلت: سامية وأحمد ، العفو
زوجتى وابنى

قال: أبشر، وجه زوجتك يذكر
بوجه النظام ويذكر بوجه زينب
ابنتى ، هل يمكن أن تدلنى على
أسماء النساء فى زمنكم قلت : خالدة
سعيد ، مها بيرقدار ، فريال غزول
حنان الشيخ ، ليلى بعلكى ، هدى
بركات ، غادة السمان ، فيروز ، سعاد
حسنى ، ميرفت أمين ، درية شرف
الدين ، ألف الروبى ، نجاة الصغيرة

، فاطمة المرينيسى ، أناييس نين ،
سيمون بى بوفوار ، كيم نوافك ،
اليزابيث تايلور ، فرجينيا وولف ،
مى عصوب ، أسماء عبد الوهاب
البياتى .

قال: تمهل تمهل ، يكفينى ذلك ، هـ ،
فى القطار احك لزوجتك عن عبد
الوهاب البياتى ، وبهذا تتدع
الجمهور العام - ولا يظنونك معتوهاً
يكلم نفسه ، وثق أننى سأسمعك .

أعطانى ظهره ، كنت أخشى من
يقظته ، وأخشى من غفلتى ، وأفكر
كيف أغسل اللثة من رؤها وأدرانها
، وهل ستفسد ، وأين أتخلص من ماء
الفسل ، وأفكر هل استقر عبد
الوهاب البياتى بجوار الشيخ
ليجبره على الرحيل ، والبحث عن
منفى .

فى القطار ، جلست جنب النافذة
، وحشرت البياتى فى جماعات
فقيرة من قومه ، ليصبح صغيراً ،
وأحتمله ، وعلى حافة صحيفة لأهرام
المفردة أمامى بدأت أدون لأسئلة
اللازمة ، خيل لى أن الشيخ يريد
تقريراً ، ويجب أن أصوغه
بموضوعية وصدق ، يمكن إذن أن
أطلب من شبح عبد الوهاب البياتى
أن يجلس على المقعد المواجه لى بدلاً
من ذلك الشخص ، وأن أسأله :

- ١- عبد الوهاب من أنت ؟ وأين ولدت ومتى ؟
- ٢- ماذا تعمل ؟
- ٣- كيف تقرأ شعرك ؟
- ٤- لماذا أنت متجهم جداً ؟
- ٥- لماذا أنت نعام لهذه الدرجة ؟
- ٦- هل تحب الروايات ؟
- ٧- أظن أنك شاعر فرد ؟
- ٨- متى اخترت المنافى لتستفيد منها ؟
- ٩- هل تعرف القتلة الحقيقيين للسياب ؟
- ١٠- وهل استخدمك بعضهم ؟
- ١١- من هم إذا كان الأمر كذلك ؟
- ١٢- عندما تنصت من بعيد إلى وطنك ماذا تسمع ؟
- ١٣- صحيح أنك لاتسمع سوى صوت الحاكم ؟
- ١٤- هل تزور الأضرحة ؟
- ١٥- أرجوك أشح بوجهك عني وأنت تجيب ؟
- ١٦- هل تذكر مقدمة عبد الرحمن الشرقاوى المبتذلة لديوانك المجد للأطفال والزيتون ؟
- ١٧- ماذا فعلت بها فيما بعد ؟
- ١٨- لماذا توقفوا عن إخراجها في المناسبات ؟
- ١٩- سمعت أنك مصاب بعقدة النقص ؟
- ٢٠- هل ضايقتك ؟

٢١- قبل أن تنصرف اعطني كتيبى ، أرجوك وهدوئى حين تعب شبح عبد الوهاب وذهب ، قلت لنفسى : كان من الخطأ أن أستدعيه لأن الشيخ لا يحب هذه الطريقة ، ولا يحب خضوعى لمناطق الأدب والفن والسياسة إنه يريدنى أن أفتح قلبى ، وأن أهدر الكلام عن تعاستى أو سعادتى ، ومن الأفضل ألا أفكر ، تنحنمت ، ونظرت إلى زوجتى ، كانت مسترخية ، نبتها ، فانتبهت ، كنت أعلم أنها لن تقاطعنى قلت لها بعد أن طويت الصحيفة وأهملتها :

للعراق قامة تشبه قامات النخيل ، حيث جذع كل نخلة هو ظل لقتيل أو شهيد أو منتدب لموت ، وأغلب نخيل العراق كلما انسدل الليل بكى ، وفى الصباح تشرق الشمس ، وتغطس رأسها فى البحيرة ، وترفعها ، وترتدى المريلة ، وتمسك مكنستها ومنديلها وفوطتها ، وتكنس قبل أن تسمح فئات الدموع الثائثة ثم تخفتى ، يقولون إنها تبكى فى سريرها ، ويقولون إنها تغيب عن الوعى ، ويقولون إنها تتذكر ، ونخيل العراق يرتفع فيسمو ويشف ويعرف مفقديه ، يعرف علماً وفاطمة وزينب والحسن

والحسين وزيداً وجعفر الصادق
ومحمد الباقر والشريف الرضى
والرصاصى والزهاوى وعلى الوردى
ويعرف - قلتها على استحياء -
زيارات الشيخ الأكبر محبى الدين ،
ويعرف مستبدين ومخلصين وخونة
، ويعرف أصدقائى وخصومى ،
ويعرف سماء بابل وألواح آشور
وقلق دجلة ، ويعرف الفرات . أذكر
أن البعض الطيب من أصدقائى
ومنهم عباس بيضون ، يرون أنه
تجمعنى مع الشعر العراقى صلة
قراية حميمة لا يمكن إغفالها ، وأنه
فى السنوات الأخيرة انفتحت
فوهات القبور فى أنحاء الأرض كلها
لتستقبل أحلام العراقيين ، ثم
لتستقبل أجسادهم جسداً جسداً ، مما
جعل صلة القراية الجامعة تمتد
إلى قنطرة تصل فراغين ، قنطرة
تشب أخشابها فتنتقل تحتها الفئران
فى كل اتجاه ، أذكر أن بلدن الحيدرى
غافلنى ومر على القنطرة ، وهبط
ودخل قبره ، ولأننى أحببته نزفت
جزءاً من محبتي على الأوراق
ورشقتها فى الهواء ، وكذا غافلنى
الجواهرى رغم سنه المائه ، ومر
وهبط ، ودخل قبره وفعلت معه
الفعل نفسه ، وغافلنى هادى العلوى
الذى بعد ما أدخلوه ، انتحيت وبكيت
فى غرفة مغلقة ، ولم أفصح ، ومر

المنفيون والبدو والفلاحون ، والعمال
والطلبة والنسوة والأطفال ، مروا
وهبطوا ودخلوا ، وهاهو عبد الوهاب
البياتى يحمل جسده ، ويدخل ، كان
عبد الوهاب رفيق المائدة الأكثر
قدرة على الصمت والكلام ، كان هو
وحده الذى عرف كل مدينة كما لو
أنه عاش فيها طوال عمره ، والذى
عرف كل فرد كما لو أنه صاحبه الأول
، والذى عرف الشعر باعتباره سلسلة
من الأعمال غير السحرية ، ومع ذلك
فإن رحيله سيدوم ، وطيفه سيظل
على هيئته الرمادية يترجرج ، كأنه
يرشِب فى الطيران ، ليس جميلاً أن
يظهر الموت هكذا لعبد الوهاب ، فى
يديه قفازان ، وجسمه مرشوش
بالملح ومسترسل وأسنانه طويلة
وحادة وأجنحته قوية ، ولغته
واضحة تعتمد على النثر ، وعلى
حدود المعنى ، وتفخر بأنها سفينة
الطيران الوحيدة ، وقبل أن تزمجر
اللفة ، يصعد عبد الوهاب سفينته ،
وللمرة الأولى يمشى فى الأعلى ،
وللمرة الأولى يصبح المغامر الحائز
على حريته ، والذى يقفز من شرفة
ذهبية إلى أخرى دون أن يسقط فى
الفخ .

كأنت عينا زوجتى قد أصبحتا
مبلولتين ، تركتها تتحرر قليلاً ، ثم

أكملت: ذات مرة حلم عبد الوهاب
حلماً طويلاً، وصحا وهو يمسك طرف
خيوط أخره مكتوب عليه: الشاعر هو
سارق النار، ولم ينتبه عبد الوهاب
أنه سيرد في خشوع:
النهر للمنبع لا يعود
النهر للمنبع لا يعود
النهر للمنبع

وعندها استعار من أسلافه
ومعلميه خرقة الصوفية، وأحب
عائشة، أحبها كثيراً وليس الخرقة،
فاختفى تحتها، كانت الخرقة واسعة،
وبمدية حادة شققها، وقطع جزءاً
كبيراً يمتد بالصدفة من القلب إلى
الأطراف إلى أخره، وعندما لاءمته
كانت قد أصبحت خرقة فقط، وقرب
فجر كل يوم يستيقظ عبد الوهاب،
يلبس الخرقة فقط، ويجهز رحلته
إلى ينابيع الجحيم، عله يستطيع أن
يسرق النار، ولأسباب بعضها
مجهول وبعضها أرعن كان يذهب إما
مبكراً فيسرق بعض الفحم الرطب
والنئ، أو متأخراً فيسرق بعض
الفحم المحروق الخامد، يقولون بعض
الرماد، وفي حماة خجله وغضبه
صنع عبد الوهاب كومة من اللافتات
، إلى البير كامي، إلى ناظم حكمت،
إلى مالك حداد، جلال الدين الرومي
، إلى أرنتست همنجواي، إلى
شتراوس، عذاب الحلاج، محنة أبي

العلاء، قصائد حب إلى عشتار،
هبوط أورفيوس، هكذا قال
زراشت، إلى سلفاتور دالي بصورة
للسهروردي في شبابه، عذابات
فريد الدين العطار، تحولات
نيتوكريس في كتاب الموتى، إلى
خورخي بورخيس، إلى نجيب
محفوظ، إلى يلمازغونيه، إلى
أوكتايفرياث، إلى بشار كمال، إلى
صلاح جاهين، عيد الشمس أو
تحولات محيي الدين بن عربي، عن
وضاح اليمن، رسائل إلى الإمام
الشافعي، مراثية إلى اخناتون، إلى
رفائيل البرتي، قراءة في كتاب
الطواسين للحلاج، مراثي لوركا،
ديك الجن، روميات أبي فراس،
موت الاسكندر المقدوني، فالى
طرفة بن العبد، إلى غابرييل بيرى
، إلى ماوتسى تونج الشاعر، إلى
شارلى شابلن، إلى فيروز إلخ إلخ
وأخذ بعد أن ينتهى عمله النهاري
، يجلس وفوق رأسه قنديل ويلصق
كل لافتة بقصيدة ما، سأماول فيما
بعد أن أبحث عن مجرى يضم
القصيدة واللافتة، ولن أجد، وسوف
أكتشف بالمصادفة أنها محاولة
للانتساب إلى العائلة، عائلة سارقي
النار، كان حلم عبد الوهاب أكبر من
قدرته على الصراخ، وكانت

محاولاته لاتكف ، ولاتفلح ، لذا أدركت عبد الوهاب بتاريخ الحروب ، حارب الذين سافروا مثله إلى ينابيع الجحيم وبلغوها فى التوقيت الصحيح وسرقوا النار واحترقوا وأضاءوا ، حارب السياب والجواهرى ونزار قباني وعبد الصبور وأدونيس وأنسى الحاج ، ولم يتعلم اللعبة أبداً ، أن يدفع الباب فيفضى به إلى مدخل كبير فيه رسوم غريبة ينحنى مع المدخل إلى مدخل ثان تختلف رسومه ومساحته ثم إلى ثالث قبل أن يصل إلى الغرفة التى يقصدها ، وفيها طائر صغير إذا لم يفهم لفته سيظن أنه كائن تافه قيل لعبد الوهاب : لكى تصبح سارق نار أصيلاً لابد أن تطير.

فسأل : كيف؟

قيل له : لابد أن تصير خفيفاً بغير مواريث وبغير أملاك.

فسأل : كيف؟

قيل له : هكذا.

فسعى عبد الوهاب وراء هكذا ، استغنى عن أزميل النحات وأعلن أنه لا يحتاجه فهو لن ينحت اللفة ، واستغنى عن فرشاة الرسام وأعلن أنه لا يحتاجها فهو لا يحب العيون المفتوحة عن آخرها ، واستغنى عن آلة الإسكافى وأعلن أنه لا يحتاجها ، واستغنى عن أدوات الموسيقى ،

وأعلن أنه سيحتفظ فقط بالطبول لأنها تصلح لمهته ، ولما خيل له أنه أصبح خفيفاً ، لبس الخرقه ، وتجهز ، ولكنه كالعادة ذهب لاتذكر مبكراً أم متأخراً ، ومنذ ذلك اليوم ، طاشت قدماء وأخذ يتجول فوق الأرض ، فى كل مرة دخل علينا الحجرة ، السياب وأنا ، تركناه وانصرفنا ، ولكنه لايبأس ، فإذا دخل ثانية علينا ، الجواهرى وأنا ، تركناه وانصرفنا ، وأيضاً لايبأس .

استأنتنتنى زوجتى فى الذهاب إلى مكان قضاء الحاجة ، وسالتنى أين هو؟ ودلتها ، ونظرت من خلف الزجاج ، كانت أنوار طنطا تهرق وتلمع ، رأيت الشيخ يمشى فى الهواء وعصاه فى يده ، وخلفه ثلاث نساء ، عرفتهن بالتقريب أولهن زوجته مريم بنت محمد بن عبدون بن عبد الرحمن البجائى ، وهى امرأة صالحة لها منامات تدل على الطريق ، وبعدها ياسمين المرشانية التى موطنها مرشانة الزيتون من بلاد الأندلس ، امرأة مسنة ، تولاه الله بالتأوه مما تجده فى صدرها من الرد ، لقصورها عن عين الكمال ، فصارت من الأواهات ، بعدها فاطمة القرطبية التى صاحبها الشيخ سنتين متتاليتين ، مريداً وخادماً ،

وعايشها عيشة طاهرة فى كوخ من القصب قام ببناؤه هكذا فى أشبيلية ، وكان يتدرب على العزلة وعلى قراءة الظواهر العجيبة مثل حضور الجن حينما تدعوهم فاطمة.

فجأة اختفى الشيخ واختفت النساء وظهرت ثانية الأتوار الضعيفة كان القطار قد تجاوز طنطا، وزوجتى قد عادت واستقرت بجانبى وحثننى على الإكمال ، فقلت : صحيح أنتى استربت كثيرا فى شعر عبد الوهاب ، استربت كثيرا فى محبيه الذين كانوا يقفون دائما وراء راية لاتصلح لكى تكون راية الشعر.

أخر مرة رأيت فيها عبد الوهاب كانت خاطفة ، رأيته يجلس فى كافيتريا شيراتون القاهرة ، وحيداً وشيخاً ومهجوراً ، تفاديت أن يراى ، وتذكرت أنتى أواخر الستينات ، أحسست دون وعى بحمى البياتى وهى تفارق أجساد محومين كثيرين ، كان بعض زملاء جيلى قد أصيبوا بهذه الحمى ، أصابت حسن طلب وأحمد طه ، فيما بعد زالت عنهما ولم تترك أية آثار ، المهم أن حمى البياتى تصاعدت سخونتها حتى بلغت أقصى درجات الحرارة قبل هزيمة ١٩٦٧ ، وقبيل أو بعد هزيمة ١٩٦٧ كان بعض اليسار

المصرى النشط والمحتفى به فى أروقة النظام ، قد نشر وثيقة من أسوأ وثائقه الأدبية ، كتاباً جامعاً لمقالات مختلفة حول كما أذكر الانسان والقضية فى شعر البياتى ، كانت الحمى تزدهر كأنها العافية الوجوه حمراء وعضلات القلب نابضة ، ولكن الهزيمة أثت وكأنها أول الشفاء من الحمى ، هكذا كان العالم يفور فى إناء عيشى ، وكنت أفور فى الإناء نفسه . فى الدار البيضاء قابلت عبد الوهاب ، وقابلته أيضا فى مراكش ، كان شعره الأبيض الذى يكسوه ناعماً ، كأنه حزن ، ناعماً كأنه فجيرة قاهرة، ومثل أقل الممثلين المسرحيين براءة نجح فى أن يقنعنى أن كل فائنات المدينة يطاردنه ويرادونه ، وأن عائشة تنتظره فى غرفة عالية ، وفى قصر ، وفى بستان ، نجح فى أن يقنعنى أن دواوينه وأعماله الكاملة تنفذ فور صدورها وأنه بذلك يسبق كل الشعراء العرب ، كنت أعلم أن مراكش مدينة حنون ، وأن أهلها يسمحون للضيوف أن يتمتعوا بحقوق العزاء والسلوى ، وأن يصبحوا أرباب آلهة ، لذا صدقته ، نجح أيضا أن يقنعنى أن المرأة المراكشية الطيبة التى تلازمنى ،

تريدنى ، وأنه يقبل أن يكون الشاهد الوحيد فى زواج على ورقة طلاق ، وأمام أصدقائى حلمى سالم وأمجد ناصر وآخرين ، وكيفما أئفقت اندفع عبد الوهاب خلف خيال أدونيس وظل يطارده ، ويلتمس منا المعونة ، كان يلهث ، ويشتم ، ويحتد ، ثم ظن أن خيال أدونيس يسحبه بعيداً فى اتجاه غرفته ، غرفة عبد الوهاب فانصرف .

عبد الوهاب يزوجتى ، نصف قرن من الترويح لرواية شعرية المؤسف أنها يجب أن تزول ، نصف قرن من الضياع والتشرد والخوف من الشعر ، عبد الوهاب البياتى يحتاج منا الآن إلى دموع أكثر من الدموع ، لأن موته موت مؤكد ، موت أخير .

انتهت حكايتى مع وصول القطار إلى القاهرة ، استعجلت ، وانخلت

زوجتى وابنى التاكسى الذى سيوصلهما إلى البيت ، وفورهما دخلت سيارة أخرى توصلنى إلى أقدام الجبل قرب ضريح ومقام ابن الفارض ، الغريب أننى وجدت الشيخ واقفاً ، بمفرده ، عصاه عمودية على الأرض ، قال لى " عرفت مايلزمنى ، سأطلب منك مالن تفعله ، إن ضيوفى الأعماء الذين يزوروننى فى دمشق لأريدهم أن يعلموا أين ذهبت ، لأننى سأرجل كل يوم إلى مكان أبعد من أقدام الذين يظنون أنهم يكتبون على ألواح الطين ، كل يوم سأدخل خلوة ثانية ، ولن أعانى ظل الوحشة ، لاتزعجهم لأنهم ضيوفى ، ولاتسألهم كيف يُحبس من حلّ منه اللاهوت فى الناسوت ، لاتسألهم أبداً ، قالها واختفى .

بروميثيوس عصرنا الجديد

عذاب الركاب

(١) عبد الوهاب البياتي .. حياةً وشعرٌ وحبٌ...!!
يبدّل الحياة بالشعر ، والشعر بالحياة ، وما بينهما الحب الأعظم الذي منح
أصابه الوبوءة هذا القدر الهائل من السحر ، فصار كل ما يمس البياتي
يصبح شعراً (يشبه الملك ميداس) حسب تعبير " ماركيز " وهو يتحدث عن
نيرودا!!

(٢) عبد الوهاب البياتي .. سفرٌ دائمٌ...!!
لأنه في السفر يتجدد ، وفي الأمكنة الخضراء الجديدة يلتقط مطالع
قصائده ، وربما ينتقى وجهاً سماوياً - امرأةً يعشقها ويكتب مرارة شكواه
على ذراعها ، أو على فمها الكريّ يترك وصيته ربّما هي " لارا " أخرى ، أو " هند " ، أو " خزامى " ..!

(٣) عبد الوهاب البياتي .. الشاعر الثائر أبداً...!!
يفتح جسده الناحل لرياح التغيير وهو المؤمن بالثورة ، حاملاً وصاياها .
ويقلب فولاذي ، وساعد صلب يساهم في بناء مملكة الإنسان ، وهذا ما عمله
يضع أنظمة الحكم المتفطرة والتجبرة وراء ظهره ، مطلقاً رصاص قلبه
الموجع على الطغاة وسارقى الثورات ، ومالئ مدنتنا الجميلة بالدخان ،
والدماء ، والجثث ، والتراب!

(٤) كتابي « صلوات العاشق السومري » عن الشاعر الكبير عبد الوهاب
البياتي رغم تواضعه ، لم يرض طموحي وما زال الحديث عن شاعرية البياتي
وإنسانيته نهراً يتدفق ، لا يعرف التوقف وهو الشاعر الكبير بقلبه ...
والنحلة الشامخة بأغداق الإبداع ، والحب ، والوفاء !!

(٥) أبداً لم يكن الرهان خاسراً على وفاء البياتي - بروميثيوس عصرنا
الجديد ، وأكبر شعراء الحداثة ، شاعر الإنسانية فقراء ، وعشاقاً ، ومتبوعين ،
هو كل هؤلاء ، في تقاطيع وجهه يمكن أن تقرأ مدى شراسة هذا العالم الجاحد ،
ويمكن أن تسمع غناء عصفير صباح جديد تعد به ملامحه وأحاديثه

وقصائده..!

وهو صاحبُ الذاكرة المدهشة ، وصناديق البريد المتعددة في كل مكان من العالم حيث يتواجد الأصدقاء الأوفياء ، تحت كل نجمة غريبة منكسرة تقول :
إن البياتى الكبير لن ينسى أحداً من أصدقائه ، وأن أفعالها لن تصدأ ،
ومفاتيحها ستظل تصهل بصوتها الصباحى الملائكى مادام قلب شاعرنا
الكبير ينبض بالحياة ، والحب ، والجنون لعلاقات إنسانية جديدة..!!

(٦) وقبل أيام قليلة وصلنى كتاب « فتوحات البياتى .. نور الشعر
ومراته » ، وهو بقلم ثمانين كاتباً وشاعراً وناقداً ، وقد ضم الكتاب المقدمات
الجميلة ، والنظرات النقدية الجادة ، وشهادات فى شعره ، والذكريات
والمواقف ، ثم القصائد الرائعة المهداة إلى شاعرنا الكبير من مختلف شعراء
العالم الإنسانيين !!

(٧) ماذا أكتب عن شاعرنا الكبير ، والكلمات قد غادرتنا صوب بيته
المسور بالأحلام ، والرؤى ، والأسفار الجميلة ؟!! .. ماذا يوسع قللى أن يخطئ
؟!! ماذا أقول بعد ثمانين مُبدعاً ، جادت قرائنهم الصافية وأزهرت ورداً
وعصافير نادرة اللون والإيقاع وهى تتحدث عن الشاعر الكبير عبد الوهاب
البياتى ..!!

وبعد قراءة متأنية هادئة جعلت للكتاب فصلاً وأبواباً يمكن أن تمهد
الطريق لقارئ جاد فكانت كالاتى :

(أ) المقدمات

يقول د. على عباس علوان فى مقدمته : « إن البياتى قد وصل بشعره إلى
كل أرجاء عالمنا الحديث والمعاصر ، فقد ظل يتدفق منذ نصف قرن من الزمن
ومازال يتدفق قوياً خصباً مؤثراً يشعل حرائق الشعر فى كل المناخات وفى
كل الساحات . اسماً لا يمكن تجاوزه أو تخطيه أو محايدته أو تحجيمه .. » ص
٨.

وكانت تلك المقدمات تؤكد على أصالة البياتى « إنه شاعر أصيل جداً
ومتعمق جداً فى الجذور - أنطونيو جالا » ص ١٨ ، وعلى دوره فى حركة
وهوية شعرنا الحديث « إنها قصيدة ثرية مليئة - عبد الرحمن الربيعى »
ص ١٢٥ وأنه مؤسس مخلص للحداثة الشعرية العربية والعالية « لأن الشعر
عنده رؤية وإبحار فى فضاءات المطلق والحميمى - حاتم بن عثمان » ص ١٦٢
و« ينبغى ألا يستغرب أحد عند قراءة شعره وإيجاد مواقف وشخصيات
أسبانية مثل اليكساندرى ، ورفائيل البرتى ، أو بيكاسو أو لوركا وماشادو
- خواكين بنيتو » ص ١٨٨.

(ب) النظرات النقدية :

وقد أكد هؤلاء النقاد على حب البياتى للتجديد « لم يكن عبد الوهاب
البياتى شاعراً يقف به الشعر عند نقطة معينة يتحجر عندها ، بل كان دائماً

مُبدعاً خَلَقاً متطوّراً .. إنَّ البيّاتى يتجدّد ويتطوّر مع كلّ ديوان شعريّ جديد يصدرُ له - د. إحسان عباس - ص ٥٤ ، وعلى جمال موسيقاه الشعريّة التي أثّرت في أُجيال عديدة من الشعراء: « إن النغم الرقيق حتّى في القصائد السياسيّة هو من أكثر النواحي القريبة إلى قلبي في شعر البيّاتى - ناظم حكمت » ص ٢٤ ، وعلى رؤياه الشعريّة العظيمة حتّى صارَ نموذجاً للشاعر الرؤيوى بامتياز حسب تعبير د. صلاح فضل ص ٦٠ ، وعلى ثوريّته وإخلاصه لفكرة الثورة: « إنَّ عبد الوهاب البيّاتى شديد الإخلاص وحتّى التّوحد لفكرة الثورة والتّغيير .. وأنّه خارج أيّ تصنيف أيديولوجي ، إنّه من حزب الحلاج وسبارتاكوس ، وزوربا اليوناني - محمودة الريماوى ص ٨٦ .. وهذا ما جعل قصائده: « مناشير تداولناها في أزمنة عديدة - د. عبد الرضا على ص ١١١ ، وعلى التوظيف الأسطوريّ الرائع للواقع الأليم » « إنَّ شاعرنا الكبير لا يلجأ إلى استخدام الأسطورة خارجياً بل يكتشفها داخل القصيدة نفسها ، إذ لافواصل بين الأسطوريّ والراهن في قصيدته - محمد مظلوم ص ١٥٠ .»

(ج) شهادات في شعر عبد الوهاب البيّاتى:

كانت شهادات كل هؤلاء الشعراء والكتّاب تدور حول شاعريّة البيّاتى الكبيرة ، وعذاباته الخالدة ، وهى عذابات الإنسان المَقهور والمظلوم في كلّ مكان من الكرة الأرضيّة « إنَّ البيّاتى شاعرٌ رقيقٌ يمْضُ ألم كبيرٌ وهو إنسانٌ معذبٌ في المنفى ، وهو كذلك مسيحٌ مصلوبٌ . من أجل فكره وعقائده - د. على الراعى ص ٦٢ » وأنّه « يلتقى مع أعظم الشعراء الذين عرفتهم الإنسانية في القرنين الأخيرين كرامبو وريلكة وإليوت وسان جون بيرس - المنصف الوهايبى ص ٦٥ » و« ظلَّ يعانيّ عذاب التشردّ وألم الحنين - عبد الملك نورى ص ٧٢ » ، وأنَّ البيّاتى هو برومثيوس عصرنا الجديد « النار التي يريد البيّاتى أن يوقدها في الجبال وفي منازل البشر هي الرّدّ الوحيد على عبث الموت بالعالم - صادق النيهوم ص ٨١ » ، ويحمل البيّاتى جرحه وصلبته وحيداً بعيداً عن عكاكيز المؤسسات الهشّة والأنظمة الهزيلة: « فإنَّ أبا على يبدو على قدر كبير من البراءة الحقيقيّة فهو خارج كلّ الأجهزة والمؤسسات الثقافيّة والإعلاميّة وسواها - محمود الريماوى ص ٨٢ » ، وذاع صيته وازدادت شعبيّته لا في الوطن العربيّ بل في العالم « أصبح معروفاً على المستوى الجماهيريّ بصفته واحداً من أكبر شعراء العرب المعاصرين - د. كارمن بربابو ص ٨٨ » ، وهذا راجع لأصالته: « عبد الوهاب البيّاتى رائد أصيل من رواد الحركة الشعريّة الحديثة - يوسف الخال ص ٩٢ » وعبقريّته كشاعر شغل الناس وما زال ، لأنّه « في طليعة النخبة المتمتعة بروح المرض العبقريّ الخلاق الإله ، لائنخبة المثقفين الأدعياء - أنسى الحاج ص ٩٣ » ، وصوفيّته الجميلة كعاشقٍ تَوْضاً بالدم وفيه من « محبى الدين بن عربى ، وفيه من الحلاج ، ولوركا وبكاسو حيث يصنّع البطل النموذجي لعصرنا -

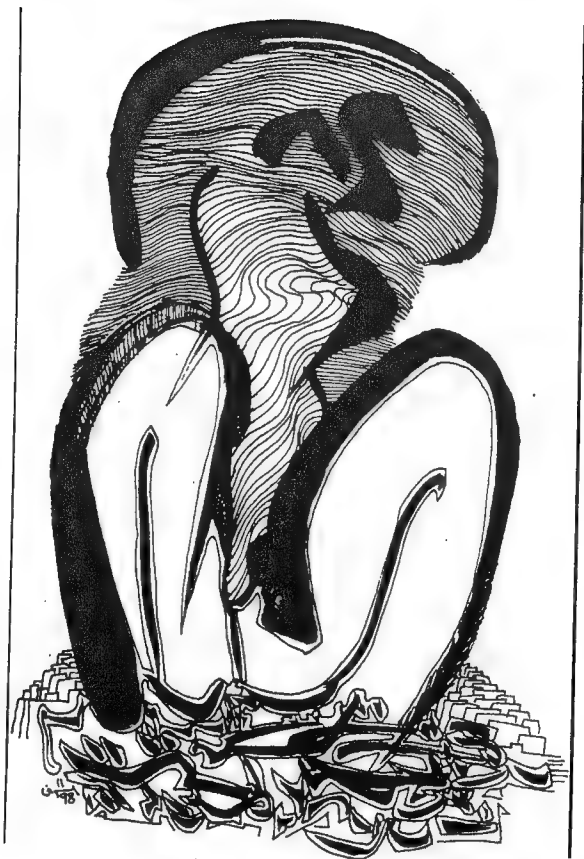
محمد الجزائري ص ٩٥ » ، وأنه قد تعرضَ للظلم والنفي والعسف السياسي طوال سنين عمره وما زال ملك النفي والتشرد » وربما كان واحداً من أبرز شعراء القرن العشرين تعرضاً للعسف السياسي وأجراءاته التي اضطرتّه إلى حياة النفي والغربة والترحال المستمر من بلد إلى بلد ومن منفى إلى منفى - عواد على ص ١١٤ » ، وأنه شاعر القضايا الكبيرة : « إن البياتي استطاع أن يسكب في جل قصائده قضايا عميقة وكبيرة - د. عبد السلام المسدي ص ١٣٣ » .. وشاعر المستقبل بدون منازع : « البياتي شاعر المستقبل ، أنا على يقين من هذا الحكم - د. محيى الدين صبحى ص ١٣ » وهو « من أكثر الشعراء الأحياء إثارة للإهتمام - ديزموند ستيوارت ص ١٥٢ » .. وسيظل البياتي بشهادة كل هؤلاء : « أكثر الشعراء العرب اتصالاً بالروح العالمية ، وأكثرهم نخولاً فيها وامتزاجاً بها ، أو قل إنه شاعر مسكون بروح عالمية - د. حامد أبو أحمد ص ١٨٥ .

(د) الذكريات والمواقف:

وكانت تلك الذكريات تدور حول نشأة شاعرنا الكبير ، وبداية حياته وماتضمنت من متاعب ومفارقات ، ومن صحاب وأصدقاء ، وكان المكان يلعب دوراً كبيراً في هذه الذكريات ، وبغداد هي المكان الذي أنجب الشاعر والأصدقاء والأحلام : « تحت شمس بغداد المبهجة الرقيقة ، كنا نسير نحن الأصدقاء الأربعة ، كما سمعنا عبد الوهاب ، على جهة من نهاية شارع الرشيد .. » و « كنا نزل إلى بغداد بعد ظهر يوم الخميس .. وكان الحديث غالباً ما يدور حول شؤون عامة أو شخصية أول الأمر ، ثم يتركز حول همنا الأساسي نحن الأربعة - الأدب » فؤاد التكرلي ص ١٨ ، ولولادة القصائد وفعلها دور هام في نسج هذه الذكريات ، حيث أن لقاء الأصدقاء يكون نارياً عندما تداهم أحدهم القصيدة : « لقد كنت أجد البياتي مزهواً بشعره وشبابه وقوة بلاغته وعمق ثقافته .. ص ٩٩ » و البياتي حينما حل أمة وحده ، من الشعر والثقافة المتنوعة مواطنوها من كل دين وجنس : قصاصون ، شعراء ، فنانون ، صحافيون ، أساتذة جامعيون حتى عامل المقهى هو من مواطني البياتي يحفظ قهوته ، ومواعيد حضوره ، وأسباب غيابه - طراد الكبيسي ص ١٣ . « .. ورغم مال تلك الزيام من مرارة لكنها ألهمت نيران الذكرى وصار الحديث عنها ممعناً شيقاً رغم قساوته : « فارتسنا الجوال الذي أمضى حياته ينظم الشعر ويصارع خرافتيه ودينصوراته في عصرنا الحديث .. أنه قد ألزم نفسه بلزوم مالا يلزم من التحديات والخصومات والمعارك والجراحات والعشق والعذاب والغرائب المستحيلة - فاروق البقلى ص ١٤ » ..

(هـ) الرسائل :

لقد كانت رسالة الشاعرة الكبيرة " نازك الملائكة " تحمل الرغبة في التواصل ، وتبادل الرأي في قضية ما أو في مسار القصيدة الجديدة : « وإنه



ليسعدنى أن أكتب إليك ثانية بعد أن تبادلنا أنا وأنت رسالتين عام ١٩٧٤ ثم سكتنا، والساکتة كنت أنا لأننى سألتك فى رسالتى: كيف يمكن الجمع بين تصوفك الذى تعلنه وإلحادك الماركسى المعروف، فأجبتنى إن التصوف عندك إنما يعنى: وحدة الحضارات - نازك الملائكة ص ٤٤ .

أما رسالة الشاعر الكبير (نزار قباني) فقد كانت تحمل من الود والدفء قدراً كبيراً ، مليئة بالشعر ورائحة الوطن والحرص على صنع جو أدبى وثقافى صحى على الساحة الثقافية العربية : « أما مناخ الأدب فهو ما عرفتة قبيح الوجه واليد واللسان لأنه يصدر عن مشوهين ، أطل إقانتك ما استطعت فى هذا الجو النظيف ، واذكرنا فى جنة كاساتك ، وصديقاتك .. ولك الحب الأخضر - نزار قباني ص ٤٤ » .

وكانت رسالة الشاعر (د. عبد العزيز المقالح) تحمل للبياتى وفاءً كبيراً وهو يدعو دعوة مفتوحة للرقامة فى صنعاء ، إقامة طويلة أو قصيرة ، مصحوبة بدعوة لحضور المعرض الدولى للكتاب الذى سيقام فى جامعة صنعاء وقتها : « ثم أدعوك لتجربة الإقامة فى صنعاء حيث التلاميذ والأصدقاء وماتزال الدعوى قائمة ومفتوحة وستكون هذه البلاد - بلادك - أسعد بقعة فى الأرض عندما ستنوى فى يوم من الأيام أن تلقى عصا الترحال عندها - د. عبد العزيز المقالح ص ٦٣ » .

أما رسالة الشاعر الصديق (عدنان الصائغ) فقد دارت حول الجو الثقافى فى السويد ، ثم ما أحدثه صوت البياتى وقصائده من فعل وتأثير فى نفوس الكتاب والشعراء فى السويد : « أتحدث عنك كثيراً ويسألني عنك بعض الشعراء والمثقفين السويديين ، فأقول لهم كل ما فيه ينبض شعراً ، إنه كوكب شعرى لا يتوقف ولا يهدأ - عدنان الصائغ ص ٢٠٧ .. »

(و) القصائد المهداة إلى الشاعر الكبير عبد الوهاب البياتى

فقد أهدى مجموعة من الشعراء قصائد جميلة ، عذبة ، ورقيقة ، إلى الشاعر عبد الوهاب البياتى منهم: « سعدى يوسف ، حسب الشيخ جعفر ، محمد على شمس الدين ، أحمد عبد المعطى حجازى ، عزت سرايلىتش ، محمد مظلوم ، كمال عمار ، دورين ، سفيتلانا باتيسبيفا ، خوليو بيلت ، خوان مونيجرو ، كارمن بسادرى ، زاهر الجيزانى ، عدنان الصائغ ، محمد لافى ، على الشلاه ، على السودانى ، نصيف الناصرى ، غريب اسكندر ، ياسنا شاميج ، مالفينا ماريلكوكفا ، غريب اسكندر ، هادى الحسينى » .

حوار

عز الدين نجيب:

الواحة : مسرح أطلال نفسى

حوار : أشرف ابراهيم

عصره ومعاصريه.

؟.....

أقيم أغلب معارضى فى هذا الشهر " إبريل " .. ربما لأنه شهر ميلادى (إبريل ١٩٤٠) هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهذا هو المعرض الأخير لى خلال هذا القرن ، وكنت حريصاً أن يقام هذا العام وليس العام القادم ، وهو (بشكل ما) رؤية أفقية ممتدة لتجارب عديدة سابقة لى ، وكأنه " كشف حساب " لهذه التجارب ، ولو كان من منظور له موضوع محدد وهو واحة سيوة.

؟.....

قصت جمع هذه التجارب فى

شهدت القاهرة أخيراً معرضاً لواحد من الفنانين الذين أثروا الحياة التشكيلية المصرية والعربية بجهد ودأب لا يكلان إبداعاً ونقداً ، المعرض بعنوان " سيوة : نداء الواحة " للفنان والأديب والناقد التشكيلي عز الدين نجيب والذي أقيم فى قاعة " بيكاسو " للفنون الجميلة

كان من الضروري أن نلتقى بالفنان وأن نتحاور معه حول هذا المعرض الجديد ، وقد أثرنا أن نترك له المساحة للبروح ، وللغوص فى مكنونات ضميره الإبداعى والفكرى فى محاولة منا لأن نستخلص شهادة فنان وناقد كبير مثله عن فنه وعن

بالقوب الشديد من عناصر الطبيعة ، مع تحليلها وإعادة صياغتها بحس ذاتى لتحمل صفات جديدة ، فكان معرضى عام ١٩٨٧ الذى شهد مزيداً من التحليلية والتركيبية لعناصر المكان ، خاصة الأطلال التى حملت سمات إنسانية وميتافيزيقية فى الوقت ذاته ، لكن مكان يميز لوحات هذا المعرض هو حالة المسرح ، حيث تتبدى المشاهد وكأننا أمام مسرح من نوع سورريالى ، تقف فوقه شخصوس أسطورية متشكلة عضوياً من أبنية منهار ، تقوم بأدوار درامية فى مسرحية تنتمى إلى اللامعقول ، وتواجه المشاهد بنوع من المحاكاة لما آل إليه أمر هذا الزمان .

؟.....

ربما أكد على هذا المعنى: أن المعرض حمل عنوان " حوار الأطلال " ، وما بين معرض ١٩٨٧ والمعرض الحالى كانت هناك تنويعات متباينة على هذا اللحن الأساسى . أما فى معرضى الأخير فربما كان التعبير الفنى والدرامى فيه أقرب إلى المونولوج منه إلى الديالوج أو الحوارية ، بمعنى أنه تعبير أكثر

معرض حتى يتبين لى من ناحية وللمتابعين لأعمالى من ناحية أخرى ايقاع التواصل والتطور من خلال موضوع محدد ، وإن اختلفت الأزمنة فى تعاقبه ومراحل السنية المختلفة ، داخل الفنان وداخل الوطن والمكان وهو البقعة النائية المعزولة عن أرض الوطن ، لكنها موصولة به بآلاف الخيوط ، ورغم ذلك فالمكان الجغرافى ليس هو القضية فى حد ذاته ، وإنما المكان لدى أشمل من حدود الجغرافيا ، إنه جغرافيا أخرى تعتمد بمساحة الوطن وتحمل جيناته ، وإن تباينت وتعددت المعالم ، أضف إلى ذلك أن المكان فى النهاية مسرح لإسقاط المشاعر والرؤى الذاتية للفنان ، بما يسمح باطلاق خياله ومفردات رموزه لما يجاوز الحدود والأزمنة إلى اللامتناهى .

؟.....

لأحبذ أن أكون أنا صاحب الكلمة فى تقييم عملى ، إنها للناقد والمتابع ، حتى يتبين مدى التطور والنمو عبر مراحل الفنية ، لكن بشكل عام يمكن القول إن أعمال الثمانينات - وهى بداية تعرفى على المكان - تتسم



جوانية مما شهدته المرحلة السابقة . وهذا قد يبدو واضحاً من التركيز على أجزاء محددة من الموثيات : الطبيعة والاطلال ، بعيداً عن الزوايا البانورامية ، وكلما زاد الاقتراب من تفصيلة من التفاصيل اشتدت درجة عضويتها ، حتى تبدو وكأنها تنبض بأحاسيس انسانية مثل عضلات الجسم أو نبضات القلب . وربما يؤكد ذلك المعنى أيضاً قوة الألوان وخشونة الملامس ، حيث تصل في بعض الأحيان إلى حد الصرخات التعبيرية ، وفي بعض اللوحات إلى درجة العلم أو الفلسفة .

؟.....

كلما ازداد الفنان اقتراباً من أعماق ذاته أصبح أكثر استقلالاً عن الطبيعة ، وبالتالي أكثر جرأة على تصويرها وتبريقها بما يخدم الحس التعبيري داخل نفسه ، وتطبيقاً على ماسبق أن قلته ، فإن هذه اللوحات كانت شديدة الالتصاق بالمنطقة الذاتية في هذه التجربة ، وهذا ماأتاح لى الفرصة للتجرو على هدم وإعادة بناء الطبيعة ، بالحس الداخلى أكثر منه الحس البصرى ،

فاذا أوحى ذلك بايماءات تكعيبية كما ذكرت وقد تكون في بعضها لآخر سورىالية أو تجريدية ، فإن ذلك لايعنى لى أمراً مهماً ، لأننى لاأتبع نظرية أو مدرسة بعينها ، خاصة تصنيفات المدارس الأوروبية سواء الحداثية منها أو مابعد الحداثية ، بل اتبع قبل كل شئ دافع الصدق والانتماء إلى روابط حميمة بالمكان والزمان ، وأملك القدرة على تجاوزهما معاً فى الوقت ذاته ، لأحقق مكانى وزمانى فى هذا العالم ، وترى مكتوباً فى مقدمة المعرض هذه الجملة:

« .. لم أكن أطل على أطلال سيوة ، بقدر ماأطل على الانسان فى نهاية الألفية الثانية بعد الميلاد ، بل على أطلال نفسى ، علنى أستنهض بعض ما اجتاحتها الرياح والرعود ، فى داخلى أو فى العالم ، أو أستعيد القدرة على الفرح من وسط الاطلال . أهى شهادة استشهاد إذن ، أم شهادة ميلاد أخرى ضد الموت ؟ »

... ؟

العمارة الفطرية تمثل بالنسبة لى مقابلاً رمزياً للإنسان ، فهى وإن

كانت جدراناً طينية ، إلا أنها تشكيلات عضوية تحمل بصمات الإنسان وأنفاسه ، بل وفي بعض الأحيان هيئته الجسمانية ، من خلال استداراتها وإنكساراتها وحركاتها في الفضاء ، وأشعر بألفة شديدة مع مثل هذه الأبنية التي تمثل لي درجة من الصمود والتماسك والاستمرارية أكثر ربما مما يمثلها أصحابها الراحلون ، هؤلاء فنوا واندثر ذكركم ، لكن تلك الشواهد تملك الحضور القوي على فعل الإنسان في الزمان والمكان ، ربما كانت مدينة " شالي " القيمة بشكل خاص تملك الخصائص الملفتة لكل هذه المعاني ، بل أيضاً تملك الشواهد على حماقة الإنسان في بعض تاريخه إزاء الواحة ، إذ دفعته نوازمه الآنية الضيقة إلى الصراع الذي وصل حد الحرب الأهلية في وقت من الأوقات ، وأدى في النهاية إلى هجرانه لهذه البيوت ، وهو ماقلته في مقدمة المعرض: " مؤكداً نبيل الإنسان وخيائنه في الوقت ذاته : نبلة في مواجهة الطبيعة وفي ترويضها والتكيف معها ، وفي الانتصار على

الغزاة والطفاة بابداع معمارى لاتقهره السنوات ، وخيائته لنفسه ، بهدم مايناه بيده أو تركه نهياً للضياع والاندثار .. ولاعنى انسان الواحة بالذات ، بقدر مااعنى الإنسان عموماً في عصرنا التعيس".
..... ؟

عنوان هذا المعرض أخذته من عنوان رواية كتبت مسودتها عن تجربة لمجموعة من الفنانين في سيوة ، وقد أعددتها في معالجة سينيمائية ، وتعاقدت مع إحدى الشركات على تقييمها للسينما ، إلا أن المشروع لم يتم وسوف استكملها كرواية أدبية قبل خروجها في عمل درامى سينمائى.

الوشائج كثيرة بين تعبيرى التشكيلى والأدبى في مجموعاتى القصصية السابقة ، حيث يمكن أن تجد في أسلوبى القصصى رسماً بالكلمات ، واحتفاءً بالمكان وجمالياته ، وغوصاً وراء المعانى المبهمة التي تلاصق حدود الميتافيزيقا ، وهى سمات مشتركة مع عالمى التصويرى.

..... ؟

والعالم خارج حدوده ، ومن ثم كان يمكن أن يكون لفنانيه إضافتهم الحضارية ومخرجهم من أزمة الفن العالمى ، لكن ما حدث هو العكس تماماً ، لقد كان مسار الفن المصرى الحديث فى مجمله انسياقاً خلف تيارات الفن الغربى المازوم ، ولانستطيع رغم ذلك أن ننكر أن فى الفن الغربى الحديث إبداعات رائعة ، بعيداً عن منظومة التصنع والافتعال وإثارة الدهشة للدهشة إلى ملامسته المناطق الذاتية العميقة للإنسان وإعادة صياغة ذوقه بشكل بئى ، مثل بعض فنانى التعبيرية والسوريالية وربما التجريدية كذلك . لكن فنانينا لم يركزوا على التأثير بهؤلاء الفنانين قدر تأثرهم بالاتجاهات العبثية الطائشة ، لمجرد إثبات مدى حداثتهم ومعاصرتهم ، والنتيجة يمكننا أن نلمسها بوضوح فى انعزال حركة الفن المصرى عن الشعب بما فيههم المثقفون ، على عكس ماكان عليه الحال فى فترة جيل الرواد فى الثلث الأول من هذا القرن ، وهو ما تعرضت له فى كتابى " فجر التصوير المصرى الحديث " عام ١٩٨٥

ليس خافياً على أحد أن الفن فى العالم يمر بأزمة خانقة وهو فى ذلك البرزخ قبل الدخول للقرن الحادى والعشرين . لقد مر القرن الماضى أكمله تقريباً فى تجارب عملية على كافة الأصعدة الجمالية والتقنية بمختلف المراحل والمدارس والاتجاهات ، بحثاً عن صياغة تبين ماهدمته اتجاهات الحداثة من مدارس الفن فى القرن التاسع عشر ، لكنها لم تستطع جميعاً أن تصمد كما صمدت مدرسة واحدة من ذلك القرن الماضى فجميعها مثل النباتات الصحراوية الجافة ، قصيرة العمر والفروع محدودة الأثر والجمهور ، وذلك أدى فى النهاية إلى عزلة الفن عامة عن الجمهور ، مع انكماش وظيفته الاجتماعية قياساً على ماكان عليه فى القرون السابقة من ارتباط بالمجتمع فى كل تفاصيل حياته حتى اليومية منها . وقد كان حرياً ببلد مثل مصر ، يحمل وراء ظهره تاريخاً عبقرياً من الفنون مازالت عظمته تحير العالم وتدهشه ، أن يكون بحثه الفنى نابعا من هذه الخصوصية ، منطلقاً إلى الحاضر

ما بعد الحداثة ، خاصة فى استخدام
المخلفات التافهة فى أعمال فراغية
لاتضع لمسمى بعينه ، وإن كان
إصطلاح على تسميتها مجازاً "
بالأعمال المركبة" وبلغت ذروتها فى
بيناليات القاهرة والاسكندرية
والشارقة وغيرها ، إلا أن ممكن
الخطورة بالنسبة للمستقبل : هو أن
الاجيال الجديدة من الفنانين الشباب
تقتفى أثر هذه الاتجاهات ، ليس عن
قناعة بها بقدر ما هو محاولة
لاكتساب رضا المسؤولين عن
المؤسسات الفنية المانحة للجوائز
الكبرى ، خاصة صالون الشباب
بالقاهرة ، مما أسس قاعدة حرجة لفن
المستقبل المحكوم عليه بمزيد من
العزلة عن مجتمعه.

، من ارتباطهم بمشروع قومى
للنهضة وبعثهم الحضارية
والبيئية ، مما يقربهم من نبض
الشعب ، كما تعرضت لهذه القضية
فى كتابى الأخير " التوجه
الإجتماعى للفنان المصرى المعاصر"
١٩٩٧. وأعتقد أن كثيراً من خطوطه
العريضة صالحة للتطبيق على أغلب
حركات الفن فى البلاد العربية ، من
حيث تبعيتها للاتجاهات الغربية
وانعزالها عن خصائصها الإقليمية
وجذورها الحضارية ، حتى لو تكلفت
استخدام بعض المفردات المحلية مثل
حروف الكتابة أو الزخارف العربية ،
إذ أنها فى النهاية محكومة بإطار
عام يتبع الأساليب الغربية. ثم
تبدت ذروة هذا الانفصال عن التراث
والواقع فى محاكاتهم لاتجاهات

مسرح

مهرجان المسرح التجريبي

لاحجر فى البحيرة الراكدة

خالد سليمان

عامه ، وهذه ليست سبة ، لكن العار الحقيقى هو الذى يحمله على عاتقه البعض من حملة الألقاب (المخيفة) ومن لف لفهم ممن يستأسدون على المنتج الثقافى العربى ، بينما هم الذين يتقزمون وينبطحون أمام كل ما يأتى من الغرب ، ومن يجرؤ على الاعتراض فهو أو على الأقل جاهل فاقد القدرة على الاستيعاب ، أن هؤلاء المكارثيين من عبدة السيد الغربى طالما نادوا بكسر التابوه ، بينما لم يجد هؤلاء أى غضاضة فى صناعة أصنام غربية يقومون بالتبشير لها ودعوتنا إلى عبادتها معهم.

منذ عدة سنوات وأثناء قيامى بتغطية فعاليات إحدى دورات مهرجان المسرح التجريبي .. كان العنوان الذى اخترته لتلك التغطية التى نشرت فى إحدى الدوريات العربية هو (العرب قدموا من أجل المسرح والأجانب من أجل السياحة) فقد كان مستوى العروض العربية مرتفعاً بالقياس إلى العروض الأجنبية التى كانت فى معظمها رديئة المستوى ، ووجه البعض إلى انتقادا حادا واتهامات متنوعة أهونها الانحياز للعرب ١١٩ وأنا لأخفى انحيازاً موضوعياً للمسرح العربى والثقافة العربية

لم يشعر هؤلاء بالدونية والعارحين تم فرض الحماية الثقافية عليهم في بداية القرن الواحد والعشرين ومطلع الألفية الثالثة ، واستقدموا لهم لجنة مشاهدة للعروض المشاركة في المهرجان مكونة من بريطاني وفرنسي وأسباني ، وكان العالم العربي من المحيط إلى الخليج لا يوجد به مثقف أو مسرحي واحد موضوعي يمكنه القيام بهذه المهمة .. ولكن الحجة جاهزة بالطبع وهي أن المهرجان دولي .. وعليه فإن اللجنة أيضا دولية ولا يصح أن يشارك العرب بها ربما لأن اتفاقية الجات تمنع ذلك ، أو لأن النظام العالمي الجديد استبعد العرب من الخريطة الثقافية والاجتماعية والسياسية وأسقط عضويتهم في عصبة الأمم (عفوا) أقصد الأمم الأمريكية المتحدة.

لم تأخذ هؤلاء الحماية ولا الغضبة المضرية أمام قرار فرض الحماية الثقافية عليهم ، لكنهم استمروا الاستئساد علينا وفي الوقت نفسه استمتعوا بالانكفاء والانبطاح أمام المندوب السامي للعالم الغربي الذي جاء لفرض الوصاية والحماية الثقافية علينا جميعا

ومثلما حدث في دورات سابقة للمهرجان ، كان التمثيل العربي قويا ومشرقا .. أما التمثيل الأجنبي فقد كان مخيبا للآمال إلى حد بعيد إذا أخذنا في الحسبان النسبة والتناسب .. فقد كان عدد العروض الأجنبية المشاركة يزيد على عدد العروض العربية بمقدار الضعف ، لكن العروض الجيدة منها أو التي رأى البعض أنها كذلك تكاد تتساوى مع عد العروض العربية ، كما يجب أن نذكر من ينسى أو يتناسى إن عرضا كالعرض التونسي " حب في الخريف " قد رشح بالفعل لأربع جوائز من مجموع خمس جوائز يمنحها المهرجان للعروض الفائزة .. وهي جائزة أفضل عرض ، أفضل إخراج ، أفضل ممثلة ، أفضل ممثل ، أفضل سينوغرافيا .. وتم ترشيح " حب في الخريف " لكل هذه الجوائز عدا جائزة أفضل سينوغرافيا .. والتي رشح لها أيضا عرض عربي .. هو العرض " البحريني " (ضوء .. ظل) ضمن العروض المرشحة لهذه الجائزة ، وقد فاز العرض التونسي بجائزة أفضل تمثيل عن الأدوار النسائية التي منحتها المهرجان مناصفة بين الممثلتين التونسييتين "

مصر ، تونس ، البحرين ، الأردن ، فلسطين ، هي تمثل حوالى ٥٠٪ من العروض العربية المشاركة فى المهرجان .. ولعل هذه النسبة ترد على ادعاءات المكابرين وأغلبهم لم يشارك فى الفعاليات الخاصة بالمهرجان بل والفضيحة الكبرى أن بعضهم لم يشاهد هذه العروض من الأصل لكنه جروّ وعلى توجيه انتقادات حادة جداً إليها ... ولم تكن لهؤلاء مشاركة تذكر اللهم إلا فيما يخص الحفلات والفعّادات ، ومع ذلك لديهم القدرة على خوض المعارك من بيوتهم الزجاجية ، .. إنهم جنرالات الأوهام الرائعة ..

وقد يختلف البعض ومنهم كاتب السطور مع بعض العروض العربية من حيث الشكل أو المضمون ولكنها ولاشك لاتقل من حيث التقييم عن أفضل مشاهدناه من عروض غربية عبر دورات المهرجان ، بل وكانت كما أسلفنا مثار جدال مما يؤكد أنها جديرة بالمشاهدة.

حب فى الخريف

علاقات جدلية لاتنتهى

كان العرض التونسى " حب فى الخريف" تأليف وإخراج " عز الدين

ليلى طوبال" ..و" صابرة الهميسى " ، كما فاز بجائزة أفضل ممثل " سامى العدل" من مصر (دولة عربية أيضا) عن دوره فى " طبول الشيطان" أو "طبول فاوست ٢ " ، مناصفة مع بطل عرض " فويتزك" الأسباني ، كما تم التنويه عن العرض البحريني (ضوء - ظل) فى تقرير لجنة التحكيم التى أشادت به (وهو عرض عربى أيضاً) !! وكان (ضوء .. ظل) كما ذكرنا سلفاً مرشحاً بقوة للفوز بجائزة أفضل سينوغرافيا .. كما أثارت بعض العروض العربية جدلاً واسعاً ، خاصة فى ندوات العروض مثلما حدث على سبيل المثال فى الندوة الخاصة بالعرض " اللبناني" " برمة الحوض" من تأليف وإخراج " جنى الحسن " ، والعرضين الأردنيين " ميديا" لجان أنوى ، " وملهة عازف الكمان" من سوء التفاهم " لالبيز كامى" وهما من إخراج " حكيم حرب" إلى جانب العرض الفلسطينى " مسك الغزال" الذى أثار هو الآخر جدلاً بين الجمهور وإن كان لم يحظ بندوة خاصة به مثل العرض الأردنى ومعظم العروض العربية الهامة وكانت أهم العروض العربية من

قنون" أفضل عروض الدورة الحادية عشرة لمهرجان المسرح التجريبي - شكلاً وموضوعاً والسبب في ذلك هو توافر بنية العرض المسرحي الحقيقي فلم يطف أحد عناصر العرض على عناصره الأخرى فجاء عرضاً محكماً ومتوازناً محققاً أكبر قدر من المتعة على المستويين " البراني والجواني" (المصطلح المستخدم لاستاذنا / عثمان أمين رحمه الله)

وتدور قصة العرض في البداية حول الصراع بين " هانية" تلك العاشقة المخذولة التي هجرها الحبيب هي وابتنتها ، وبين " يشار" سارقة الحبيب ، التي لوحث له بالثروة والنفوذ لكي يتزوجها ، ويزداد الصراع احتداماً بين المرأتين بعد أن تتعرض الابنة لظرف مرضى طارئ .. وتجرى لها " يشار" التي تعمل طبيبة .. جراحة تخرج منها الابنة بعاهة مستديمة ، فتحملها " هانية" مسئولية ما حدث لطفلتها وتتهمها بأن ما حدث كان عن قصد ... وعلى جانب آخر نرى ابن عم " هانية" المغرم بها منذ نعومة أظفاره لكنها لاتلق بالآ إليه .. فهي تكرهه وتكره أباه الذي كان يراود أمها ذات يوم حتى سقطت وانتهى بها الأمر

الى الانتحار في بئر منزل العائلة القديم ، ولاترى هانية في ابن عمها سوى امتداد لأبيه الشره الذي يريد الاستيلاء على كل شيء ابتداء من منزل العائلة القديم وليس انتهاء بالجسد والمشاعر إن أمكن ، ويحاول ابن العم استمالتها عن طريق مساعدتها للانتقام من الحبيب الخائن وسارقتها " يشار" ، لكنه لايفلح في ذلك أبداً فقد تاصلت كراهيته في قلب " هانية" ، وعلى صعيد آخر .. نرى خادم " يشار" وزوجها يسمى للاستيلاء على ابنة " هانية" المعاقة بكل الحيل كرد فعل على احتقار الجميع له .. خاصة أن تلك الابنة المراهقة تتوق الى واقع مختلف تشعر فيه بأنها أنثى حقيقية .. ويستمر الصراع الدرامي الحافل بالرموز والمفاجآت ..

ومن خلال العلاقات الجدلية بين كل عناصر العرض وشخصه تتعري ذوات الجميع .. فالكل جانر والكل مجنى عليه ، والقهر يشمل الجميع حتى الزوج الذي لاثراه أبداً .. وقع يوماً ما ضحية لثراء " يشار" التي هجرها هي الأخرى ، لتتحول إلى ضحية ، ويضيف " عز الدين قنون " بعداً جديداً للنص عندما يوظف "

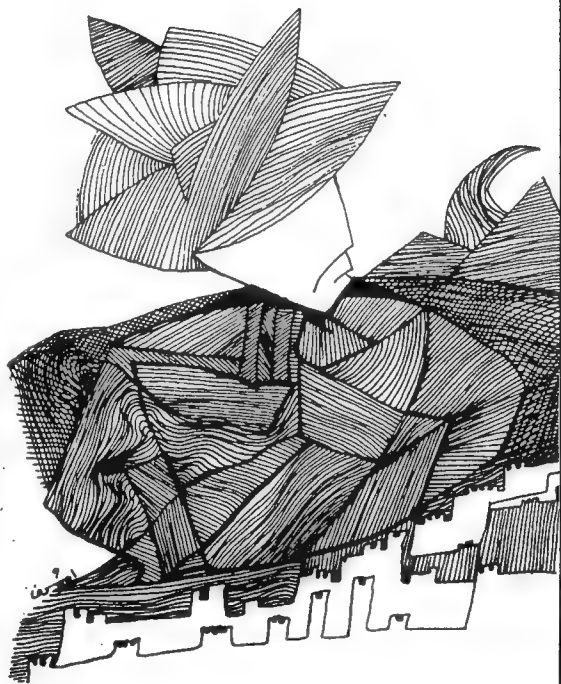
جهاز الراديو" كشخصية سادسة موجودة ومتجسدة بالفعل فى مساحة اللعب ، أو كشخصية سابعة على مستوى النص إذا أخذنا فى الحسبان الزوج .. ذلك الحاضر الغائب الذى لا نراه أبداً..

تتعرى ذوات الجميع إلى حد القسوة وجلد الذات ، ويتعرى معها الواقع الاجتماعى بماله من علاقات مع الواقع العام ككل بكل بشاعته .. ، أيديولوجية المجتمع الذكورى ، الجشع ، القهر .

كل عناصر العرض تتفاعل لتشمل العلاقة الجدلية المكان الذى تجده مقحماً بقوة بكل ما يحمله من تاريخ وأحداث فيفرض على المتلقى إسقاطاً خاصاً جداً ، وتارة تشعر وأنت تشاهد العرض بالحميمية فى علاقة الشخصية بالمكان ، وتارة أخرى بعكس ذلك ، فالمكان هنا تم توظيفه كفضاء حى .. لتشعر أن ثمة حواراً داخلياً بينه وبين شخص العرض .. يصل الى حد الصراخ المكبوت أحياناً ، والمتلقى هنا فى حالة توحيد مع الحالة المسرحية ككل باعتباره أحد عناصر العرض الذى لا يكتمل بدونه ، وقد كان اختيار " عز الدين قنون" لوكالة الغورى اختياراً ذكياً موفقاً

وبدا العرض الذى قدمه وكأنه أعد خصيصاً للمكان .. حيث تم توظيف تفاصيله المعقدة لخدمة العرض ، ونجح " قنون" فى خلق مستويات متعددة للعرض مستغلاً فى ذلك إمكانات المكان بأقبيته ودهاليزه ، وفسقيته التى استخدمها لإبراز أكثر من معنى .. فتارة هى معادل موضوعى للتطهر ، وتارة أخرى هى المعادل الموضوعى للموت والانتحار . وكانت خطة الإضاءة الذكية الواعية التى استخدمها المخرج .. تأكيداً موفقاً للمعانى " الجوانية " التى يحملها النص .. بالإضافة لإبرازها جماليات العرض ككل لتحقيق ثراء فى المتعة البصرية أيضاً..

واجتهد المخرج فى صياغة (ميزانسين) " خطة مركبة " شديدة الإنضباط لتفسير أبعاد العرض المتعددة والمركبة ، لتعكس رؤيته الخاصة .. ولعل أكثر هذه المشاهد روعة مشهد صراع الغريمتين على حافة البئر بحركاته الانعراوية .. ، وكأن المتلقى يشاهد صراعاً حقيقياً بين زوج من الأفاعى لا يسمع فيه سوى " الفحيح " ، والمشهد الذى ترقص فيه الابنه المعاقة ، ومشهد



النهاية المغلف بأستاتيكية الشكل
وبركانية " المضمون ..

ومشهد الخادم وهو سكران على
حافة البئر الذى كان متقنا وتآلق
فيه " جعفر القاسمى "

ويرجع الفضل للمخرج فى رقى
الاداء .. فقد بدا بوضوح جهده
المضنى الذى بذله لصقل حرفية
الممثل وهى إحدى السمات المميزة
للمخرجين التوانسة عموماً

أما عن التمثيل فحدث ولا حرج
عن البراعة والتميز غير العادى
للممثلين الخمسة الذين قدموا
مباراة ، أو بالأحرى سيمفونية
متناغمة فى الاداء فلا تستطيع وأنت
تشاهد العرض أن تقرر أيهم أفضل
من الآخر لأن كلاً منهم كان يكمل
الآخر ليتحقق مايمكن أن نطلق عليه
" هارمونية " الاداء ، ولم نكن نعرف
فى " مصر " منهم سوى القديرة "
ليلى طوبال " التى لعبت دور "
هانية " فقد شاهدناها من قبل ، وقد
أشفقنا فى بادئ الأمر على زملائها
منها ، لكننا سرعان ما اكتشفنا أنهم
أنداد لها ، وعلى رأسهم " صابرة
الهميسى " التى لعبت دور " ياشار "
واقترست معها جائزة أفضل ممثلة ،
و " توفيق العايب " الذى لعب دور ابن

عم " هانية " باقتدار وخفة ظل ،
وأيضاً " جعفر القاسمى " الذى لعب
دور الخادم .. وقد رشع الاثنان (
توفيق وجعفر) لنيل جائزة أفضل
ممثل عن استحقاق ، وكذلك " فاطمة "
التي لعبت دور الابنة - يبقى
للعرض التونسى " حب فى الخريف "
أن نشيد بانضباطه الشديد وتقديمه
كوميديا نظيفة رغم قتامة النص
وجديته ، حيث إنه عرض نخبوى فى
المقام الأول

ولابد أن نذكر للقائمين على
العرض قيامهم بواجبهم على أكمل
وجه ، على الرغم من أنهم عرضوا فى
ظروف غير عادية .. فقد كان العرض
الأول الذى حضرته لجنة التحكيم ..
ينقصه (ديمر) إضاءة لم ترسله
تجهيزات المهرجان إلا بعد انتهاء
العرض ، أما العرض الثانى فقد
توقف حوالى (ربع ساعة) لنشوب
مشاجرة ومع ذلك يثبت أبطال
العرض فى وضع " فيكس كادر " كما
لو كانوا صورة فوتوغرافية ثابتة
طوال هذه الفترة حتى لا ينقطع
التواصل بينهم وبين الجمهور .. (إنه
الانضباط وحرفية الممثل فى آن
واحد) .

برمة الحوض المتوسطى والتفسير الخاطئ

المخرج مؤلف أيضا من خلال رؤيته الخاصة للنص، لكننا فى هذه الدورة للمهرجان نصادف أكثر من مرة المخرج المؤلف .. فكما كان فى العرض التونسى "حب فى الخريف" المخرج هو المؤلف ، كذلك كان العرض اللبنانى "برمة الحوض" من تأليف وإخراج "جنى الحسن" .. والعرض يدور حول الأحاسيس الإنسانية وعلاقتها بالمجتمع والتابوهات .. المحكمة فيه وتوظيف "الجسد كمصدر للمعرفة الحقيقية (حسب وصف المؤلفة المخرجة) باعتباره هيكلًا للروح.

و"جنى الحسن" اختارت عنوانا لعرضها يحمل إسقاطاً خاصاً فهى كما قررت فى الندوة الخاصة بالعرض .. تعنى "ببرمة الحوض" "الحوض" بالمعنى التشريحى ، و"الحوض المتوسطى" أيضاً ، حيث إن شعوبه تحمل قيما إنسانية واجتماعية واحدة تقريبا ومخرجة العرض تتعرض فى عملها لإشكالية لم يقترب أحد منها تقريبا خاصة من السيدات اللاتى يشتغلن بالإبداع ..

وهى قهر الرجل وإحباطاته المتكررة فى علاقته بالأنثى فى المجتمع الشرقى بشكل خاص و"المتوسطى" إن أردنا التوسع فى نطاق الطرح وقد اجتمعت "جنى الحسن" فى تكثيف هذه الإشكالية من خلال منظومة متقنة جداً من الأداء الحركى بمصاحبة جمل حوارية قصيرة جلها من الأمثال والأقوال السائرة ، بالإضافة إلى مقتطفات من أشعار "أبى العلاء المعرى" و"الوليد بن المعتز" ، و"ديك الجن الحمصى" وغيرهم .. كان المقصود منها تأكيد المضمون وإثرائه ..

وقد نجحت "جنى الحسن" إلى حد بعيد فى تقديم عرض متميز على مستوى الأداء الحركى ، لكن جماليات العرض لم تكتمل بسبب ضعف خطة الإضاءة النسبى والرؤية السينوغرافية التقليدية فلم يتكامل عنصر الإضاءة والسينوغرافية كعناصر تقنية هامة مع الحركة والنص والموسيقى التى كان مستواها أفضل كثيراً فبدا البون شاسعاً بين هذا وذاك فاضير العرض من حيث الشكل ضرراً جسيماً . كما كان الفارق فى الأداء واضحاً بين بطلتى العرض ، فبينما كانت

معظم هذه الجمل الحركية مأخوذة
بتصرف من تراث الذنب الحركي "
الشيخي " وأقليات تعيش فى بعض
بلدان الشام ..

مسك الغزال .. وإهدار

جهود الآخرين

دائما المخرج هو مفتاح العمل
ومهما كانت عناصر العمل متميزة ..
إلا أن تناغمها لا يتحقق إلا من خلال
عمل المخرج وهو ما افتقده العرض
الفلسطيني " مسك الغزال " المأخوذ
عن رواية للكاتبة اللبنانية " حنان
الشيخ " وأعددها للمسرح " إيمان عون "
ومخرج العرض " بيتربراشلا ر "
السويسرى الجنسية.

ورواية الكاتبة " حنان الشيخ "
المأخوذ عنها العرض تدور حول
مشاعر الفربة والاغتراب التى
تعانيها أربع نساء إهداهن أمريكية
والأخرى شرق أوسطية ،
وصحراويتان .. يعيشن فى إحدى
الصحارى العربية وصراعهن الدائم
مع التابوهات والواقع المؤلم ،
صحيح أن الكاتبة لم تعدد المكان
ولاجنسية النساء عدا .. الأمريكية ،
إلا أن المكان يشي بأنه منطقة مافى
صحراء الجزيرة العربية أو إحدى

إحدهما " وداد " متميزة جداً فى كل
سكناتها وحركاتها ، كانت الثانية "
زائ " أقل فى القدرات الحركية وبدأت
بمدينة مترهلة رغم جمالها الواضح ،
ولأدري كيف فات على "
كريوجراف " قديرة مثل " جنى
الحسن " مثل هذا الأمر ..

فيما عدا الملاحظة السابقة عن
الآداء الحركي كان أبطال العرض
متميزين للغاية وعلى مستوى عال
من التدريب.

وقد أثار عرض " برمة الحوض "
جدلا عنيفا وكانت الندوة الخاصة به
ساخنة جداً .. خاصة أن البعض أساء
تفسير ماتقصده " جنى الحسن " شكلا
وموضوعا إلى حد إتهامها بالسخرية
من الإسلام وازدراءه لاستخدامها ..
المسبحة " بشكل أثار حفيظة بعض
النقاد الذين اعتبروها رمزاً
إسلامياً !! رغم أن المسبحة أداة
طقسية فى الأديان السماوية الثلاثة
، وبعض الأديان غير السماوية أيضا

- كما اعتبر آخرون هذه الأشكال
الحركية التى استخدمتها " جنى
الحسن " مجرد شكل من أشكال
الباليه المنقول من الغرب ، بيد أن
هذا النقد لم يكن فى محله .. لأن

دول الخليج ، أما النساء فيمكن للمتلقى أن يطلق لخياله العنان كي يفرض إسقاطه الخاص بالنسبة لجنسياتهن.

لكن الصحراء التي نشاهد شخوص الرواية يعيشون فيها ليست هي الصحراء الوحيدة ، بل إننا نكتشف صحارى أخرى داخل نفس كل امرأة من بطلات الرواية وتتقاطع الصحارى النفسية التي تعيشها كل واحدة منهن مع الأخرى .. فيتعرى الواقع للجميع ..

ويقدر الاختلاف مع الطرح الذى يطرحه النص إلا أنه بمثابة حجر فى الماء الأسن يحفز عقلك ومشاعرك أحيانا على الجدل والصراع مع مضمونه لأنه ولاشك يستحق المناقشة والمشاهدة على المسرح بشرط أن لايفسد هذه المتعة شيا ب التناغم بين عناصر العرض.

كانت ممثلات العرض اللائى لعبن أدوار كل شخصيات الرواية بما فى ذلك أدوار الرجال على مستوى عال جداً .. خاصة " إيمان عون" التى فازت من قبل بجائزة أحسن ممثلة فى المهرجان الثامن للمسرح التجريبي ، لكن هذا الأداء المتميز " لإيمان عون" ومعها " منيرة زريقى" و" فاتن

خورى" ، "تهانى سليم" .. تأثر كثيراً بترهل خطة الحركة " الميزانسين " ، والإيقاع البطئ غير المتوازن وهى مسئولية المخرج فى المقام الأول والأخير ، كذلك ضاع تصميم الإضاءة الجيد والأغاني والموسيقى المتميزة جداً للعرض بسبب افتقاد كل هذه العناصر التناغم بين بعضها البعض بما فى ذلك العنصر البشرى وعلاقته بالعناصر الأخرى فجاء العرض " استاتيكيًا" للغاية ، ولم يكن للمخرج بصمة واضحة اللهم إلا فى إهدار جهود الآخرين.

طبول فاوست

تفضع التناقض وتفشل

فى الإقناع

لأدري من الذى ألقى فى روح " أحمد سويلم" و" انتصار عبد الفتاح" ومعهما " سهام إسماعيل ، وهم من قاموا بالصياغة الدرامية لعرض " فاوست"؟ أنه يمكنهم إقناع المتلقى بفكرة أقل مايمكن أن يقال عنها إنها خلط ساذج للأوراق لايمكن أن يقنع أى شخص تخطى مرحلة الجهل البسيط..

فالعرض كما يزعمون رحلة صوفية شرقية داخل فاوست فى

ذلك أستاذنا عبد الرحمن بدوي الذي اعتمدوا على ترجمته لفاوست " جوته "

وكان التناقض يتضح كلما أكد الذين قاموا بالصياغة الدرامية على تمسك " فاوست " بالعقل ، بينما يتم اجتزاء عبارات " النفرى " من المواقف والمخاطبات وهى نتاج رؤية قلبية طبقا للمنهج الصوفى .. وتضفيرها " مع عبارات " شيلي " فى " برومئوس " طليقاً (وبالنسبة لم يشر إليه من قاموا بالصياغة الدرامية فى المصادر والمراجع بلئى صورة) ، ولامانع بعد ذلك من إضافة عبارات نثرية " لجبران خليل جبران " من عمله الخالد " رمل وزبد " مع أقوال " جوته " لعل كل ذلك يتحول بعد " خفقة " فى الخلاط إلى تصوف شرقى ..

وقد استخدم المخرج " انتصار عبد الفتاح " الإنشاد فى الحضره الصوفية مع طقوس وتعاويذ تضفير الجان ، بالإضافة لأسماء الله الحسنى " لسيد مكاوى " ، مع عدد من الممارسات الطقسية بين كل منها وبين الآخر بون شاسع (على الأقل من حيث الدوافع) وكذلك بينها وبين نص " فاوست " أو بالأحرى مايفترض أن

بحثه عن الحقيقة المطلقة وبرؤية خاصة ينزع فاوست إلى العقل والجمال والشهوة من خلال رحلات ثلاث لعله يبلغ الحقيقة ، ويبقى السؤال كيف يلتحم كل شئ مع الكل ؟ (هكذا)

ولأن المصطلحات مجانية لاشرقية ولاغربية يمكن لكل أن يقول أو يفعل مايشاء بشرط أن لايمتنع عقول الآخرين ، وألف باء التصوف هو المنهج إن جاز التعبير وهو باختصار طريق " الحدس القلبى " وليس العقلى .. لأن طريق العقل ليس طريق المتصوفة ولاعلاقة له من بعيد أو قريب بالتصوف ، وحينما " ينزع فاوست " إلى .. العقل والجمال .. إلخ فليس لهذا النزوع أى علاقة بالتصوف ولارحلاته ومراحله حتى لو قرر " فاوست " فى النهاية الخلاص والتحرر من طريق العقل أو تبادل الأماكن مع غريمه .. فالصلة معدومة تماماً بين التصوف الشرقى بمفهومه الواسع وبين هذا الهراء الأيديولوجى ، وإذا كانت المسألة مجرد مصطلحات براقة فقد كان يمكنهم أن ينزعوا بالأخ فاوست إلى أضابير الفلسفة الهيلينية . ويمكنهم أن يسألوا فى

الطرح .

هل كان هناك مضمون ؟ إذا كانت المقدمات خاطئة من البداية فما الذى يمكن أن ننتظره من نتائج .

لقد كان يمكن للمخرج أن يقدم ذلك العرض بكل الأشكال الطقوسية التى قدمها تحت عنوان " طقوس " مثلاً أو عنوان آخر .. ودون التعرض " لفاوست " ولاغيره ، ودون ممارسة فذلكات اصطلاحية .. أو حتى بدون نص على الإطلاق ..، وليسقط المتلقى على العمل مايريد من إسقاطات .

لكن النتيجة المؤكدة التى تخرج بها من العرض هى وجود حالة فرجة ممتعة .. موسيقى وفناء على قدر كبير من الجمال ، ولايمكننا إهدار الجهد الرائع فى تصميم الرقصات والأداء الحركى " لسامية علوية " الذى أضفى على هذه الفرجة ثراء وممتعة بصرية كبيرة .. ولايمكن أن نحملها ذنب تناقضات النص الأيديولوجية

بدأ العرض وهو يركن إلى اليقين ، وانتهى العرض وهو قعيد اليقين .. فعلام كانت المعاناة ؟ وفيما كان الجدل ؟

نص " فاوست " الذى لم يأخذوا منه سوى التيمة الرئيسية الخاصة بالصراع بتصرف .. ، حيث لايمكن أن تجد مايربط بين هذه المتناقضات وبعضها سوى منهج " الخلاط "

وكلما أمعنت التركيز فى الدور الذى تلعبه الفنانة " صفاء الطوخى " (روح الأرض) وحوارها مع " فاوست " أحمد عبد الوارث " تجد كل كلمة يتبادلانها تشبى بالعمل الخالد " لشيلى " برومثيوس طليقا " ولاعزاء للنص والتناص ..

ملك ووزير وحسان هى كل عدة فاوست التى يلعب الشطرنج مع " مفستو " الذى يمتلك مثلهم أيضاً !! ولكن ماالمقصود ومن يربح .. أخيراً يتبادل كل منهما موقعه مع الآخر لينتهى العرض وتبقى التساؤلات معلقة .. ولكننا سنحاول تصور بعض الإجابات ..

هل كانت هناك حالة مسرح ؟ بالتأكيد كانت هناك حالة مسرحية وفرجة جيدة ومتقنة وإن لم تكن منضبطة تماماً .. مع التحفظ على

تعليق

مراد وهبه وإعلان كوبنهاجن

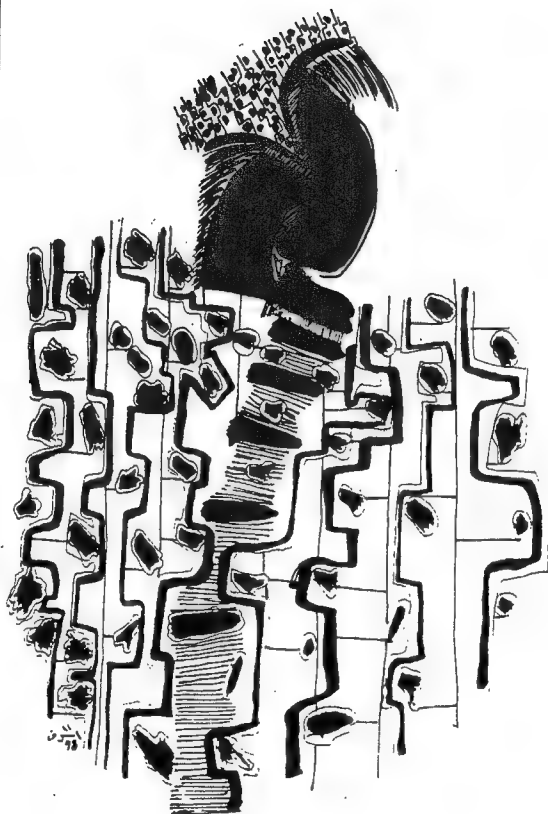
أيمن فايد

تلك الصفحات السبع في كتاب د. مراد ، محاولا قراءتها قراءة نقدية على أساس أن «نقد النص هو قراءة له تستخرج منه ما هو فيه أصلا من أساس يحمله .والأساس هذا ليس مرثيا في مباشرته ، وإن كان في النص حاضرا ، إذ لا يقوم بنيان هذا النص إلا به ، لذا وجب استخراج منه -أي قراءته- سيمعملية من النقد ترجع النص- إلى ما هو منه الأثر ، أي إلى بنية الفكر التي ولدت» (٢) يقول د. مراد «شاركت» في حوار لويزيانا» بكوبنهاجن مع مثقفين مصريين وفلسطينيين وأردنيين وإسرائيليين وأوروبيين لتكوين «تحالف دولي من أجل السلام العربي - الاسرائيلي عرف إعلاميا باسم «إعلان كوبنهاجن» (٣٠) يناير ١٩٩٧) ولم أكن غنى هذا الحوار- إلا ممثلا لشخصي (ص ٣٦١) ، ونتوقف قليلا عند العبارة السابقة ، الدكتور مراد يؤكد على أنه حضر الحوار ممثلا لشخصه فقط .. ولكن .. أي شخص هذا ؟! إنه الدكتور مراد

«إن تاريخ الإنسانية كله يعلمنا أن الخيانة تبدأ عندما يتسلل الوهن إلى القلوب ويسود الشعور بالعجز عن إحداث التغيير ولو على مدى زمني طويل».

فريدة النقاش

في سبع صفحات من كتابه « ملاك الحقيقة المطلقة» (١) يتحدث د. مراد وهبه عن إعلان كوبنهاجن الذي شارك فيه بفاعلية يفخر بها ويدافع عنها ، وتنتشر له الهيئة المصرية العامة للكتاب كتابه هذا ضمن مشروع مهرجان القراءة للجميع بأسعاره المخفضة وبتوقيته الصيفي الذي يضمن له انتشارا واسعا بين القراء ، وبعد أيام من وقائع مؤتمر «الماريوت» المشبوه وما قوبل به من رفض لفيف كبير من المثقفين المصريين الواضح والمتمثل -على سبيل المثال لا الحصر- في انعقاد مؤتمر معارض وفي نفس التوقيت في فندق «شيسرد» بالقاهرة .. أيكنا اعتبار ذلك مجرد مصادفة؟! على أية حال .. سأتوقف هنا أمام



وهبه ، ذو التاريخ الثقافى الحافل والمشرف فى الدفاع عن العقلانية والعلمانية ، مراد وهبه مؤلف محاورات فلسفية فى موسكو ، وقصة الفلسفة ، وجرثومة التخلف ، وعشرات بل مئات الكتابات الهادة والواعية التى شكلت جزءاً من النسيج الثقافى للكثيرين من أجيال عديدة ، مراد وهبه ذو الخلفية النضالية اليسارية المشرفة .

هذا هو شخص مراد وهبه الذى شارك به فى هذا المؤتمر ، ومما لا شك فيه أن هذا الثقل الثقافى والنضالى الجاد يكسب د. مراد مصداقية كبيرة فى كل كتاباته ، تلك المصداقية التى تكسيه قدرة التأثير على قارئه إلى الدرجة التى تجعله يتقبل كل ما يكتب د. مراد باقتناع كامل .

كما أن تأكيد د. مراد على أنه حضر هذا الحوار مثلاً لشخصه فقط ربما يعكس لنا استنكار العديد من الكتاب والمثقفين المصريين لإدعاء بعض المشاركين فى تصاليف السلام العربى - الإسرائيلى أنهم يتحدثون نيابة عن المثقفين المصريين ، وقد أكدت ذلك الروائية «رضوى عاشور» فى مقابلة تلفزيونية معها من قبل بالتلفزيون المصرى حيث ذكرت أنه لا يحق لأحد التحدث بلسان المثقفين المصريين .

ويوضح لنا د. مراد مبررات مشاركته فى هذا الحوار بسببين .. أولهما «أن الحوار ، على الإطلاق هو الطريق إلى التطور ، والتطور سمة

الحضارة . وتاريخ الحضارة شاهد على ما تقول فالثقافة اليونانية تطوير للثقافة المصرية القديمة . والثقافة الإسلامية تطوير للثقافة اليونانية ، والثقافة الأوروبية تطوير للثقافتين اليونانية والإسلامية (ص ٣٦١) ولم يستكمل د. مراد ليجيب لنا عن تساؤل بديهى ينبثق عن كلماته السابقة ، ترى .. هل مستطوّر الثقافة الاسرائيلية الثقافة المصرية الحديثة ؟ هل ستطوّر ثقافة صهيونية استعمارية فى الأساس ممرها فى المياة لا يتعدى عشرات السنين ثقافة مصرية ضاربة فى جذور التاريخ ، أثرت وتأثرت فى وبكل ثقافات العالم القديم والحديث ؟

ويؤكد د. مراد فى السبب الثانى لمشاركته فى الحوار «على أن الحوار -على التخصص- فى الشرق الأوسط ضرورى بين الأطراف المتصارعة . فإذا كان الحوار سمة التطور ، والتطور سمة الحضارة ، فالحوار العربى -الإسرائيلى لازم من أجل التطور . ولهذا فإن الامتناع عن الحوار سمة غير حضارية . ومن ثم فإن شعار «لا .. للحوار الثقافى» هو شعار لا يستقيم مع مسار الحضارة » (ص ٣٦١) .

ربما فات د. مراد وهو يكتب كلماته السابقة أمران ، أولهما : أن الحوار الثقافى لا يمكن أن يستقيم فى ظل شعور أحد أطرافه بالتعالى والتميز على الطرف الآخر ، وفى منطقة الشرق الأوسط - على

التخصيص - كما يؤكد د. مراد ، يمثل الاسرائيليون بنزعة التسعالي والتميز ، فهم أبناء (سارة) الحرة أما العرب فهم أبناء (هاجر) الجارية ، ناهينا عن التفوق الاقتصادي والعسكري لهم على العرب المتخلفين في جميع المجالات كما يعتقد الاسرائيليون فكيف إذن يستقيم الحوار في ظل ذلك الوضع المتأزم.

أما الأمر الثاني : فيؤكد د. مراد نفسه حيث يرى « أن الثقافة من إفراز العقل في تفاعله مع الواقع الخارجي (ص ٣٦٦) وهذا الواقع الخارجي ملئ بمظاهر العنف الإسرائيلي شبه اليومي في لبنان وفلسطين ، وأي مثقف عربي لا يمكنه أن يزعم الحياد الثقافي وأرضه . مختصة أو مهددة وأهله يقتلون أو يسجنون ، فيجلس هو متجاوزاً عن كل ذلك ليناقد مع بضعة مثقفين اسرائيليين - حتى وإن حسنت نواياهم - قضايا متفجرة وسياسية بالدرجة الأولى.

ويستشهد د. مراد في خطابه بكلمات من إعلان كوبنهاجن ، يشيد بها حيث يرى أهميتها التاريخية كما يقوله . « إن السلام من الأهمية بمكان بحيث يمنع معه أن يكون مقصوراً على الحكومات وحدها ، ذلك أن الاحتكاك بين الشعوب أمر حيوي لنجاح الجهد المبذول في تحقيق السلام في المنطقة . ومن ثم فإذا كان الأساس الشعبي ضعيفاً فإن مسار السلام قد يتعثر (ص ٣٦٢) ، هكذا إذن يتضح الأمر ، فالمسار الحكومي

للسلام المزعوم في ظل أزماته الراهنة بحاجة ماسة لتحرك دعائي وأيديولوجي يقوم به بعض المثقفين ، يهدف إلى تغليب عقول الشعوب العربية ويدفع بها من رءوسها تجاه إسرائيل . إلا أن هذه الشعوب العربية لا يمكنها أن تتقبل حديث مثقف - أيا كانت مصداقيته - يدعوهم فيه إلى نبذ روح العداء المتخلفة !! تجاه إسرائيل ، مبرراً ذلك بأن روح التنوير والمعرفة والكوكبة تطالبنا بذلك . فهي بنا نسرع بدفن آخر فتلنا لنستقبل القتل الاسرائيليين فتعاور معهم في الثقافة والتاريخ ونحن نصم آذاننا عن دوى القنابل والرصاص المنهمر فوق أراضينا العربية ، حتى نثبت للعالم أجمع تفهمنا العميق لروح التنوير والمعرفة والكوكبة.

ويكتب د. مراد كلمات تصيبنا بالاندهاش حيث يقول : « إن اثنين من أعضاء الوفود قد اعترضوا بحدة على نقدي للأصوليات الدينية أحدهما من «حماس» والآخر من «الليكوود» الأمر الذي أفضى بي إلى التفكير في أن ثمة وحدة وصراع بين الأضداد «في منطقة الشرق الأوسط». فثمة «وحدة» بين الأصولية الإسلامية والأصولية اليهودية تكمن في أن كلا منهما يريد تجسيد مطلق معين في الواقع (ص ٣٦٧) . ينطوي هذا الخطاب على أحبولة شديدة الخطورة ، الأزمة إذن أزمة أصوليات دينية إسلامية يهودية فهل هذا صحيح ١٩ وهل إذا قضينا على الأصولية



ترغب في تعميم حالة الاستسلام والإذعان للأخر المعتدى والاستعماري يأساً أو تيسئيساً من الرفض والمواجهة ، بنية فكرية تقع في منطق التماثل السوري - الذي تنتفضه ظاهرياً - فتضع الليكود وحناس في كفة واحدة ، وتسمي الدفاسع عن الأرض والوطن إرهاباً وعنفاً مماثلاً لعنف الاعتداء على الأرض والشعوب.

الهوامش:

١- مراد وهبه: ملاك الحقيقة المطلقة ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩.

٢- مهدي عامل: أزمة الحضارة العربية أم أزمة البورجوازيات العربية، الطبعة السادسة ، بيروت ، دار الفارابي ، ١٩٨٩ ، ص ٨.

الدينية ستصبح العلاقات بين العرب وإسرائيل كالسمن على العسل؟ وهل الأصوليون الدينيون العرب هم فقط المعارضون لسياسات إسرائيل؟ والعقبة الكئود في وجه السلام العربي الإسرائيلي؟ وهكذا تصاغ القضية منطقياً بهذا الشكل المغلوط .. أنتت معارض للسلام المطروح حالياً بين العرب وإسرائيل ، ورافض لعلاقات التطبيع العربي الإسرائيلي بكافة أشكاله ومجالاته إلى أن يتم سلام عادل في الشرق الأوسط . إذن - وبناءً على المسكوت عنه في الخطاب السابق - فسأنتت أصولي إما إسلامياً أم يهودياً .. فما أوسع علم الدكتور!!

وبناء على ما سبق اتساءل .. ترى أي بنية فكرية تكمن خلف هذا النص؟ فأجيب كما أعتقد أنها بنية محايدة لتوجهات سياسية محددة

متابعات

أزمة الأدب فى بيت ثقافة منوف

محمد عبد الحميد دغيدى

فى ندوة أدبية أقامها نادى الأدب ببيت ثقافة منوف وحضرتها الناقدة فريدة النقاش ، ومدير عام ثقافة المنوفية ، والمسؤولون ببيت ثقافة منوف ، ونخبة من أعضاء نادى الأدب ، ولغيف من مبدعى ومثقفى المحافظة ، نقوش موضوع أزمة الأدب الراهنة ، وهل هى أزمة أدب وربداع أم أزمة نقد ومتابعة ؟ وبعد كلمة الترحيب التى ألقاها سيد صقر مدير عام الثقافة بالمنوفية وكلمة نادى الأدب التى ألقاها الشاعر - محمد عبد الحميد دغيدى ، رئيس النادى - التى افتتح بها موضوع الندوة ، تحدثت فريدة النقاش ، فتطرقت فى البداية إلى موضوع الانفتاح الاقتصادى الذى حدث فى السبعينيات والذى أثر بدوره فى مختلف مناحى الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية والفنية والوجدانية بالطبع ، فظهرت تيارات جديدة وحديثة فى الأدب والفن ، وتغير الذوق العام ، كما تعرضت لموضوع تحول الاقتصاد حديثا من الاقتصاد الموجه إلى الاقتصاد الحر الذى هو فى حقيقته اقتصاد مخطط عالميا لتحقيق الهيمنة سياسيا واجتماعيا وثقافيا وأدبيا ، وتناولت مظاهر اهتمامات الناس حاليا ، ومشاكلهم بضروريات الحياة وتبعاتها ، وإقبالهم الآن على العناوين المثيرة الرياضية والاجتماعية أكثر من الأدب والثقافة ، مما أدى نتيجة لغياب النقد والتناول لهذه الإبداعات الأدبية إلى انخفاض مستواها فى كثير من الأحيان ، كما تحدثت عن أثر وسائل الإعلام كالراديو والتلفزيون والسينما فى تشكيل وجدان وذوق المستمع أو المشاهد ، ثم انتقلت إلى عملية الإبداع والابتكار الأدبى الآن وطالبت المبدعين والكتاب ببذل الجهد والفكر لبناء وتكوين أعمالهم الإبداعية والاهتمام بالقضايا الملحة المعاصرة .

ثم عقب سيد صقر على كلمتها بتأكيد على عملية التواصل وهضم التراث الأدبى وأهمية القراءة وأنه " لاكتابة بدون قراءة" ..

وفتح باب المناقشة للأعضاء ، فتحدث القاص - مجدى عرابى عن رسالة

الأديب ولم يكتب للخاصة أم العامة ؟ وحقيقة الاختلاف بين المبدعين حول الأشكال الأدبية وأساليب التشكيل الإبداعي فى القصة والشعر ..وتحدث الأديب - أحمد سالم عن أهمية العامل النفسى فى التكوين الإبداعي و إلى أى مدى تبدو شخصية المبدع الحقيقية فى أعماله الأدبية ..

وتحدث القاص - حسام الدين شاكر عن موضوع البيئة وأثرها فى إنتاج الأديب والفنان ، وتحدث القاص - سامى جعفر عن مشكلة المبدع الآن وعدم توازنه مع الوضع الاجتماعى والسياسى وإحساسه بالعزلة والانزامية والانسحاق ، وأنه يرى صورة الآتى قاتمة ومحبطة ، وقد تحفظت فريدة على نظريته تلك ، وأوضحت له أن الأمل قائم فى كل صاحب قلم وفكر ..

وتحدث الشاعر - تامر راشد عن أهمية اقتراب المبدع من الناس وتناوله لقضاياهم ومشاكلهم.

واعترض الشاعر - أحمد الصعيدى على إغفال دور الإلهام والتباس الحالة الشعرية للشاعر وأهمية ذلك بالنسبة للإبداع .. فأوضحت الناقدة أنها قصدت بذلك ألا يركن الأديب أو المبدع إلى فعل الإلهام وأن يكون أكثر ايجابية واجتهادا فى إبداعه ...

وأخيرا رحب الكاتب الصحفى - يسرى شاهين بفريدة النقاش ، وأكد على أهمية التواصل والتلاقى بين شباب المبدعين والأدباء ..

ثم استمعت الضيفة إلى عدد من الإبداعات الأدبية من بينها: قصة للأديب - عماد أبو زيد ، وقصيدة للشاعر - موسى الفقى ، وقصيدة للشاعر الأستاذ - على عمر عبد الله ، وقصيدة للشاعر - عبد المحسن عثمان ، وقصيدة للشاعر - أحمد الصعيدى..

وختاماً أبدت فريدة النقاش سعادتها بهذه الندوة ، ووعدت بلقاء آخر قريب فى مدينة شبين الكوم ...

شعر

هى لا تنام على قمر سليمان دغش

ولها نجوم تشتتى عسلا يعذبها
فتسقط كالغراش على وسادتها
وتملأها شرر
هى لا تنام على قمر
وبها نعاس قابل للانسحاب
كأن عصفور يحاول أن ينام
على جناح الريح .. فى فلق
الشجر
هى لا تنام على قمر
وعلى مآذنها القديمة
لا يزال الله متكئاً كعادته
على قمر النحاس
ونجمة من فضة القرآن
تقرأ سورة
وتعد من ذهب الكلام
صهيلنا الأتى
وتمنحنا سحر
وهى لا تنام على قمر
هى لا تنام ولا ينام على
شواطئها ..
السفر ..
هى لا تنام على قمر
هى لا تنام على حجر
وعلى حجارة صدرها
كتبت وصيتها الأخيرة:
«خذ بثأرى يا حجر»
هى لا تنام على قمر ..

هى لا تنام ...
هى القمر ..
نامت على أفق الفؤاد ..
نامت على أفق الفؤاد
وأطفاقت قنديلها ..
مذ أعلنت
فى البلاد
أصيلها ..
وصهيلها ..

ألقيت مفتاحي القديم على
جناح هديلها ...
وهبت روى
للرياح
لعلها
ترمى إلى - إذا اقتربت -
حبيبتى
منديلها ...

نامت على أفق الفؤاد
وأطفاقت قنديلها
هى فى دمى
وعلى فمى
وعلى شواطئ أنجمى
أرخت ضفائرها
فكنت قنديلها ..



نامت على أفق الفؤاد
وَحَبَّاتٍ
في غيمة المنفى
جدائل رَعْدِهَا الْآتِي
وبرقاً كي يرادها على عجلٍ
ويروى
غلبها
وغلبها ...

نامت على أفق الفؤادِ
فأيقظت في البلادِ
وأشعلت قنديلها ...

نامت على أفق الفؤادِ
وأشعلت برقاً يرادها
فراودني النخيل
وروادني شهقة الخخالِ
ياخلخالها ، خذ شهقتي
خذْ دمعتي
خدموحتي
وأعد لي إذا سمحت
أعد لي
دلالها .. ودليلها..

